محمد حسنين هيكل

حديث المبادرة

- العرب بين القبول والرفض والصمت
- اميركا بين غير المقبول وغير المحتمل
- الاتحاد السوفييتي .. افكاره ومشاعره
- النصوص الكاملة لثلاث اتفاقات بين حكومتي اسرائيل والولايات المتحدة
- بن غوريون : "ليس هناك حل ... الأرض واحدة .. وطالب الأرض اثنان"
- مناحيم بيجن : "اسرائيل وأرض اسرائيل شيء واحد..."
- قيل : المبادرة كشفت وعرّت اسرائيل..
- ردّي : موقف اسرائيل كان من قبل مكشوفاً وعارياً..

حديث
المبادرة

الناشر : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
تلفون ٣٤٤٣٤٦ تلكس ٢٢٦٦١
ص.ب ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

الطبعة السابعة ١٩٨٦

حديث المبادرة

المقدمات والوقائع والنتائج !

يضم هذا الكتاب بين دفتيه ـ تحت عنوان « حديث المبادرة » مجموعة وجهات النظر التي اسهمت بها في الحوار العام الذي احتدم حول حادث من أغرب الحوادث التي شهدها التاريخ العربي المعاصر ، ومن اشدها اثارة للجدل والخلاف .

وفي الحقيقة فان الأحاديث التي يحويها هذا الكتاب ليست مجرد متابعة أو تعليق على تلك الزيارة لاسرائيل في شهر نوفمبر من سنة ١٩٧٧ ، والتي رأى البعض أن يطلق عليها وصف « مبادرة السلام » ـ وإنما هي أكثر من مجرد ذلك بحكم ومقتضى الظروف .

والحقيقة أن النظر الى بعض الحوادث ذات الطبيعة الخاصة لا يكون مجرد رأي في وقائعها ، وإنما يصبح رؤ ية من خلالها الى ساحة أوسع وراءها . وكانت المبادرة ـ بكل ما قدم لها وأحاط بها وتوالى بعدها ـ واحدة من هذه الحوادث ذات الطبيعة الخاصة التي يمكن ان يتحول الرأي فيها الى رؤية أوسع من وقائعها وأشمل .

■

وأظنني كنت واحدا من هؤ لاء الذين رأوا منذ البداية أن المبادرة لا تستطيع التحليق عاليا وبعيدا مهما كان الصخب الاعلامي الذي يحيط بها ، لأن صراعات التاريخ الكبرى أعقد بكثير وأصعب من أن يجري حلها في استديوهات الاذاعة والتليفزيون ، وأمام الميكروفونات والعدسات ، وعلى الشاشات الفضية تتزاحم فوقها الظلال والألوان .

ومع ذلك فأظنني كنت واحدا من هؤ لاء الذين رأوا أن المبادرة ـ بصرف النظر

عن أي صخب - يمكن أن تكون لها بعض الفوائد ، ولو من ناحية سلبية . . . وأظن أن هذا صحيح .

وأحاول في هذه المقدمة لهذا الكتاب أن أركز على بعض الفوائد - السلبية - التي ظهرت للمبادرة ، خصوصا وأن الكتاب كله - فيما يلي هذه المقدمة - يركز على حساب الخسائر المحققة فيها .

● وأول الفوائد السلبية للمبادرة - فيما أرى - أنها كشفت المواقف ، بل وقامت بتعرية بعضها .

وإذا قيل لي :

- نعم . . إن المبادرة كشفت وعرت مواقف اسرائيل ، ولم تترك لها رداءً ولا حياءً تتستر به . . . حتى ولا ورقة توت !

فإن ردي :

- هذا صحيح . لكنه ليس شاغلي . لأن موقف اسرائيل كان من قبل مكشوفا وعاريا ، ولم نكن في حاجة الى اضافة درامية بهذا الحجم لكي نرى ونفهم ونحكم .

لكن الذي كان شاغلي - وهو ما أعنيه - هو أن المبادرة كشفت وعرت عربيا .

كشفت الأفكار . . . وكشفت المواقف . . . وكشفت القدرات .

وأتمنى لو أن كل مواطن عربي ، يهتم ويتابع الشئون العامة وتعنيه قضايا المستقبل والمصير قام باعداد كشف حساب بنفسه ولنفسه :

. . . كتب قائمة بالأطراف المسئولين في العالم العربي كله ، وأمام كل منهم توصيف لمواقفه المعلنة قبل المبادرة ، وموقفه في الفترة التي وقعت فيها المبادرة ، وبعد أيام وأسابيع من وقوعها ، ثم . . . ثم ، الى آخره .

كشف حساب من هذا النوع لكل طرف من الاطراف سوف يظهر عجبا : أوله تناقض في الفكر وخلط ، وآخره عجز عن الحركة والفعل .

● وثاني الفوائد السلبية للمبادرة ، وهي تتصل - الى حد ما - بما سبق ، هي

أن الشلل الذي أصيب به العالم العربي في ظروف وأعقاب المبادرة يقود الى استنتاجات خطيرة حين يطرح السؤ ال الحيوي التالي :

ـ ما هو السبب ؟ ولماذا بدا العالم العربي كله عاجزا من وقتها حتى الآن ، فاقدا لقدرته على المنطق فضلا عن قدرته على الحركة والفعل حتى إزاء عدوان فادح وخطير كذلك الذي حدث على جنوب لبنان ؟ ! .

هل يمكن أن يكون السبب نقصا في الموارد العربية ؟

لا أعتقد . . والشواهد أمامنا تقول بأنه ليس هناك صراع آخر في العالم كله يملك أطرافه من الموارد ما يملكه العرب : الموقع ـ العمق ـ الثروات ـ الوزن الحضاري والانساني ـ تعداد السكان خصوصا اذا قيس بالطرف الآخر في الصراع .

واذا لم يكن نقصا في الموارد ، فما عساه يكون ؟

هل يمكن ان يكون السبب هو ان هذه الموارد كلها موظفة لخدمة حياة اصحابها بحيث لا تترك فائضا لضرورات الامن ؟

مرة ثانية لا اعتقد . . فالشواهد أيضا أمامنا تقول بأنه ليس هناك صراع آخر في العالم كله دفعت شعوبه من التكاليف ما دفعته ـ وتدفعه ـ الشعوب العربية في صراعها مع اسرائيل . والحقيقة أن الحياة نفسها تعطلت في سبيل توفير وتوجيه أكبر قدر من الموارد لضرورات الصراع .

تعطلت التنمية الاقتصادية وتحملت الجماهير . . . تعطل التطور الاجتماعي وتحملت الجماهير . . . تعطلت الديمقراطية وتحملت الجماهير . . . تعطلت قضايا التحرر الثقافي والفكري وتحملت الجماهير . . . بل تحملت الجماهير أعباء فادحة في مجالات الخدمات العادية بدون صرخة ألم ، بل وبدون أنة شكوى في كثير من الأوقات .

ما هو معنى ذلك ؟

الموارد هائلة . . . والجماهير العربية راضية منها بأقل القليل ، ومع ذلك فهذا كله لا يكفي ولا يدرأ الشلل والتناقض والخلط والعجز عن الحركة والفعل .

وذلك يؤ دي الى إستنتاج أساسي ، هو :

ـ ان القصور ليس في الموارد وانما القصور في ادارتها ، أي أن هذه الموارد أكبر

بكثير الآن من كفاءة المسئولين عن ادارتها .

إن ذلك الاستنتاج الأساسي يقود الى إستنتاجات أخرى تتداعى منه ، وكلها مرهقة !

● وثالث الفوائد السلبية للمبادرة ، ما اظهرته التجربة العملية طوال شهور من « ممارسة المبادرة » عن طبيعة الحل الممكن للصراع العربي الاسرائيلي .

لقد آن أن نفهم ما فهمه قادة اسرائيل منذ زمن طويل من أنه ليس هناك حل سهل أو سريع .

هناك صراع بين طرفين على أرض غير قابلة للتقسيم : أولهما لديه الحق - ويمكن أن تكون لديه القوة - والثاني لديه القوة - ولا يمكن أن يكون لديه الحق . وأما أن تكون الأرض لصاحب الحق الباقي - الشعب الفلسطيني والأمة العربية - وأما ان تكون لصاحب القوة المؤقتة - اسرائيل والصهيونية العالمية .

ان هذه الأرض - الى جانب ذلك - تقع على ملتقى ومفترق طرق الاتصال بين العالم العربي الذي يقول أهله جميعا أنهم أمة واحدة ، وهو قول صحيح .
وإذا قامت اسرائيل على هذه البقعة من الأرض - فانها تقطع العالم العربي وتقسمه الى نصفين لا إتصال بينهما على الأرض .

وإذا كان لا بد أن يكون هناك إتصال على الأرض ، وهذا حكم طبيعة وتاريخ - إذن فان اسرائيل عقبة .

ولقد كان « دافيد بن جوريون » - الباني الفعلي لدولة اسرائيل - هو الذي اكتشف هذه الحقيقة ، أو بمعنى أصح هو الذي عبر عنها قبل غيره تعبيرا صريحا وواضحا . . وكان قوله :

- لا تتعبوا انفسكم في البحث عن حل . . . ليس هناك حل . . . الأرض واحدة ، وطالب الأرض اثنان ، ولا بد أن تكون لواحد منهما فقط ، ولا بد أن يكون الشعب الاسرائيلي هو هذا الواحد الذي يحصل على الأرض ويملكها . والحل الوحيد بالنسبة له - اذا كان هناك حل - أن يسعى بكل الوسائل - بما فيها القوة والسياسة وحتى الخديعة - لكي يجعل الطرف الآخر يرضى بالتنازل عن مطلبه .

هكذا الحل من وجهة نظر اسرائيل .

أية جهود . . . وكل الجهود . لكن هدفها هو « جعل الطرف الآخر يرضى بالتنازل عن مطلبه في فلسطين .

لكن بعض العرب لا يفهمون ذلك . . . يتصورون أن التنازلات الجزئية هي الطريق الى الحل . والحقيقة أن التنازلات الجزئية ليست طريق الحل الا على منطق اسرائيل . . . أي ان كل تنازل جزئي تحصل عليه إسرائيل معناه الاقتراب خطوة من التنازل الكلي .

ولقد اعطى العرب تنازلات لم تكن تخطر على بال ، والنتيجة هي ما نراه أمامنا اليوم !

ان ذلك ليس معناه أن العرب في حرب الى الأبد ، ولكن معناه وضع الصراع في اطاره التاريخي الطويل الممتد : صراع تتعدد وسائله وتتعدد مراحله وفقا للظروف والتوازنات الاقليمية والمحلية ، ووفقا للقدرات والطاقات ـ ولكن بشرط أن يظل هناك دواما ذلك الادراك العميق بجوهره وأبعاده مكانا وزمانا .

■

وبعد فان المبادرة نفسها سوف تذهب الى ملفات التاريخ . ولكن الذي لا يجب ان ينام في الملفات هو فوائدها ، حتى وان كانت سلبية .

حديث المبادرة ١

واحد من مصر!

طوال الشهور الاربعة الاخيرة فرضت على نفسي نوعاً من الصمت غير الذهبي .

أعني أنه لم يكن من ذلك النوع الذي تدعونا اليه الحكمة القائلة « بأنه اذا كان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب » !

كان آخر ما كتبته قبل أربعة شهور . وكان موضوعه البحث عن استراتيجية عربية . فقد كان يزعجني كما يزعج غيري بالقطع ذلك الضياع الذي تردت اليه اوضاعنا وقضايانا العربية العربية ، والذي كان مرجعه في رأيي الى انعدام الرؤية السليمة للمنهج والهدف في سياساتنا . وبينما حاولت أن أقدم تصوراً لما يمكن عمله تحت عنوان « بدلاً من الظلام شمعة » ، فقد وجدتني في نفس الوقت أحذر من أننا في غيبة التصميم على وشك تسليم أقدارنا للمصادفات تلعب بها كما تشاء الأهواء، ما لم نسارع بحزم الى تدارك خطانا وتصحيح مسارنا .

كان ذلك آخر ما كتبته قبل أربعة شهور ، وبعدها ذهبت الى رحلة أوروبية قادتني في البداية الى « أثينــا » للمشاركة في ندوة دولية عن مستقبل الديمقراطية ، ثم الى « فلورنســا » أحاول أن أتابع القلق الايطالي العنيف في الشمال الذي أوشك أن يتحول الى ساحة حرب أهلية ، ثم الى « زيوريــخ » أتقصى مصير ومآل أموال البترول العربي ، وأخيراً الى لندن التي ما زالت في نظري أنسب مركز لمتابعة الاتجاهات الغربية خصوصاً فيما يتعلق بأمور الشرق الاوسط .

كانت رحلة عمل طويلة قصدت فيها الى آفاق أستطيع عليها أن أرى أوسع وأن أفهم أدق ، وأن أجلو فكري عن طريق الاحتكاك مرة أخرى بأفكار وتيارات ومجتمعات فوارة بالحرية والحركة .

وعدت الى القاهرة بعد غياب سبعة أسابيع وفي تقديري أن أستأنف الكتابة بحديث عن « مشكلة الديمقراطية في العالم الثالث » وهو الموضوع الذي كان من نصيبي أن أعرضه تفصيلاً في ندوة أثينا الدولية عن مستقبل الديمقراطية ، ثم أتبعه بأحاديث أخرى عن « موازين القوى المتغيرة في جنوب أوروبا » متخذا ما يجرى في ايطاليا اليوم نموذجاً حياً وعملياً له ، وعن « مصير ومآل أموال البترول العربي » ، وأخيراً عن « آخر تطورات أزمة الشرق الاوسط » على ضوء مناقشات واتصالات ومعلومات توفرت لي في العاصمة البريطانية .

كان ذلك تقديـــري !

لكني لم أكد أبدأ محاولة الكتابة حتى انفجر اقتراح الرئيس السادات باستعداده للذهاب الى الكنيست الاسرائيلي . ثم تطورت الحوادث بسرعة مذهلة ، واذا أبعد الأشياء عن الظن هو أقربها الى الوقوع على حد تعبير الكاتب الفرنسي الأشهر « أندريه موروا » !

وتلاشى اهتمامي بمشكلة الديمقراطية في العالم الثالث . وتلاشى اهتمامي بغيرها من المشاكل . وبدت لي هذه المشاكل كلها وكأنها مجرد بقايا مترسبة على طبقة جيولوجية من التكوين السحيق لطبقات الأرض . . .

وتوقفت عن الكتابة أو محاولتها ، ورحت بكل حواسي أتابع المسرح الجديد الذي تركزت عليه كل الاضواء وازدحمت فوقه كل الألوان وتدافعت حوله كل الأصوات ، وأصبح في طرفة عين استعراضا لم يسبق له مثيل ويحار مشاهدوه في نسبته للمجال الذي ينتمي اليه : وهل هو مجال السياسة أو هو مجال الفن ؟

□ □ □

ينبغي أن أقول ومنذ لحظة مبكرة من هذا الحديث أنني لم أكن من المتحمسين لهذا الاستعراض الذي بدا لي غريباً ممعناً في غرابته . وحاولت أن أكون منصفاً فاتهمت نفسي بأننا قد نكون أمام شيء جديد قصرت مداركنا عن استيعاب

حكمته   خصوصاً اذا كنا من مدرسة في السياسة ترى أن الصراعات بين الأمم والشعوب تناقضات حقيقية في أسباب المصالح وفي ضرورات الأمن ، ثم ان حل هذه التناقضات لا يكون بالقفز فوقها ولكن بمواجهة دواعيها وعللها ، وأن ذلك يتحقق بترتيب موازين القوة الذاتية وبحشد التوازنات الاقليمية والدولية المساعدة ، ولا يتحقق بحشد أكبر عدد من ميكروفونات الاذاعة وعدسات التليفزيون !

وقلت انني اتهمت نفسي ، ومن هذا السبب وأسباب أخرى غيره ، فقد رحت أغالب مشاعري وأرد فهمي لطبائع الأشياء أن يدفعني الى المسارعة بانكار ما لا أفهم مقدراً أن الحقيقة في كل الاحوال أكبر من كل ما نراه منها .

لكن الانسان ـ أي انسان ـ لا يستطيع أن ينكر نفسه ولا أن يهدر تجربته ، واذا لم يكن صادقاً مع الاثنين فانه لا يمكن أن يصدق مع غيرهما .

هكذا كنت أريد أن أتكلم . . . وفي نفس الوقت كنت أريد أن أنتظر .

وتوصلت أخيراً الى حل وسط هو أن أتكلم وفي نفس الوقت لا أكتب .

أي أبدي تحفظاتي على ما يجري بالكلمة المنطوقة ، وفي نفس الوقت أنتظر على الكلمة المكتوبة حتى تتكشف الصورة وتنجلي مساحات الضوء والظل على رقعتها !

□ □ □

ومنذ بدأ هذا الذي اصطلحوا على تسميته « بمبادرة السلام » فاني تكلمت ولكني هذه اللحظة فقط أكتب . . .

وأعود الى بعض ما قلته وقتها كمجرد تمهيد لما أكتبه الآن ، وذلك لكي يكون السجل واضحاً ، وتتابع المواقف في ترتيبه الصحيح .

تكلمت لأول مرة يوم الاثنين ١٤ نوفمبر ، وكان ذلك بعد خمسة أيام بالضبط من اعلان المبادرة ، وكان كلامي أمام عدسات التليفزيون لمحطة

« اي . بي . سي . » وهي أكبر محطات التليفزيون الامريكية ، وكان حديثي مع مندوبها في الشرق الاوسط « جون سنايدر » ـ وأستأذن في أن أنقل الحوار عن نص منقول من التسجيل الأصلي بعثت به اليّ فيما بعد بناء على طلبي محطة « اي . بي . سي . » ، وكانت قد أذاعته كاملا على كل شبكاتها في الولايات المتحدة مساء يوم الثلاثاء ١٥ نوفمبر منقولاً بالقمر الصناعي من القاهرة .

بدأ « جون سنايدر » بسؤالي :

ـ ما هو رأي الشعب المصري فيما يجرى الآن ؟ »

وقلت :

ـ انني بالطبع لا أعرف رأي الشعب المصري ولا أعطي نفسي حق الحديث نيابة عنه ، وكل ما أستطيع أن أبديه هو رأيي الشخصي فقط » .

وعدل « جون سنايدر » صيغة سؤاله واتصل الحوار على النحو التالي بالنص :

سؤال ـ اذن ما هو رأيك أنت ؟ »

جواب ـ أعترف أنني لا أفهم هذا الذي يجرى الآن . وكل ما أرجوه أن يكون صادراً عن مخطط واضح ومدروس يستهدف استعادة السلام القائم على العدل ، واذا كان الأمر كذلك فاني أرجو له النجاح ، ومع ذلك فلا بد أن أعترف أنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكن لهذا النجاح أن يتحقق .

دعني أعترف أيضاً أنني شعرت بالقلق عندما سمعت الرئيس السادات يقول أنه لم يستشر في مبادرته أحداً وأن جميع مستشاريه لم يعرفوا بها الا عندما قام باعلانها .

كنت أفضل أن تكون الأمور على غير هذا النحو .

ان عملية صنع السلام عملية هامة وجادة وخطيرة .

وبأمانة فانني كنت أفضل أن تجري عملية صنع السلام في جنيف .

ان السلام لا تصنعه ارادة رجل واحد مهما كانت الثقة فيه . ثم ان صنع السلام يحتاج الى اقتناع كل الناس وبالدرجة الأولى اقتناع كل الدول العربية فالقضية هي قضية الأمة العربية كلها .

لهذا فانني كما قلت لك لا أفهم ما يجري ولا أستطيع أن اتحمس له .

سؤال ـ هل تخشى من ردود فعل عكسية . . . أو خطيرة ؟

جواب ـ الحقيقة انني لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث ، ولكن الذي يشغلني هو ما حدث فعلاً .

انني حتى الآن لا أعرف ما هو الدافع الى هذه الزيارة المقترحة للقدس .

هذا الصباح كان عندي هنا في مكتبي عدد من السفراء العرب ، وبالطبع فاننا كنا نتحدث عن آخر التطورات ، وكانت هذه النقطة بالذات مثار مناقشاتنا .

أحدهم قال لنا انه فهم من بعض المصادر القريبة من صنع القرار أن سبب هذه الزيارة هو أن الرئيس السادات بلغته معلومات عن نوايا هجوم اسرائيلي فأراد استباق الهجوم واجهاضه بزيارة القدس .

والحقيقة أن ذلك لم يكن مقنعاً لي . لقد كانت هناك تقارير في الصحافة العالمية أخيراً عن الاستعداد العسكري الاسرائيلي ، وكان أبرز هذه التقارير تقريرا كتبه « جيم هوجلاند » في صحيفة الـ « واشنطن بوست » ، ولكن « جيم هوجلاند » لم يكن يتحدث عن نوايا اسرائيل القريبة وانما كان يتحدث عن مستقبل بعيد .

واذا ناقشنا نظرية استباق هجوم اسرائيلي وشيك فاني أرى أن هذه النظرية لا تثبت لأي مناقشة جادة .

لمـــاذا ؟

سياسياً : لأنه لا بد لأي طرف يفكر في هجوم أو يقوم به أن يعطي نفسه أرضية سياسية ، ومثل ذلك غير متاح لاسرائيل في الوقت الراهن على الأقل ، فقد كان الحديث في المنطقة كلها وفي العواصم المهتمة بالأزمة وواشنطن بينها بالذات عن مؤتمر جنيف والترتيب له ومن الذي يحضره واجراءات الحضور الى آخره ، وليست هذه أرضية يستغلها أي طرف ويبدأ بهجوم عسكري ، والا عرض نفسه للوقوف ضد الدنيا كلها .

وعمليـــا : فأنا لا أعرف لماذا تقوم اسرائيل الآن بهجوم مباغت على الجبهة المصرية وهي جبهة في الوقت الحاضر هادئة خالية من أي نوع من أنـواع التوتـر الساخن .

وفضلا عن ذلك فكيف يمكن أن يحدث هجوم مباغت وبين الجيشين المصري والاسرائيلي على الجبهة المصرية مناطق عازلة ، ومراكز رقابة يعمل فيها خبـراء أمريكيون ، وذلك الى جانب منطقة الفصل بين القوات التي تحتلها كتائب الأمم المتحدة .

ان الترتيبات الموضوعة لتنفيذ اتفاقية سيناء الثانية تفرض على كل طرف من الطرفين حتى في حالة تحريك قواته لاجراء مناورة مهما كانت صغيرة أن يبلغ الجنرال « سيلاسفـــو » كبير مراقبي الامم المتحدة ، وهو يبلغه ليس فقط بموعد المناورة ولكن بنوعيـة القوات المشتركة فيها وحجمها واتجاهات حركتها ، ومن جانبه فان الجنرال « سيلاسفو » ينقل هذه المعلومات الى الطرف الآخر .

فمن أين تأتي المباغتة واحتمال الهجوم الوشيك ؟

ومع ذلك فلنفرض أن هذا الاحتمال كان وارداً فهل يتحقق استباقه واجهاضه بالذهاب الى القدس المحتلة ؟

أتصور أي شيء الا الذهاب الى القدس .

أتصور مثلاً أن يذهب الرئيس السادات بمفرده الى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ويقوم من فوق منبرها بفضح المخطط الاسرائيلي أمام العالم كله . . . وربما خرج من الأمم المتحدة في نيويورك يقصد الى البيت الأبيض في واشنطن ليقابل الرئيس كارتر ويضع الولايات المتحدة أمام مسؤولياتها .

ذلك أو غيره يجوز تصوره .

سؤال ـ ربما كان السبب هو الضغوط الاقتصادية ؟

جواب ـ لا أظن ذلك أيضاً . . . لو كان ذلك هو الدافع لكان الأولى بالزيارة أن تكون الى الرياض مثلاً أو الى الكويت .

دعني أعود الى ما كنت أتحدث فيه عن اللقاء الذي كان هنا في مكتبي واشترك فيه بعض السفراء العرب .

أحدهم كان رأيه أنه ربما أراد الرئيس السادات أن يساعد الرئيس كارتر ضد جماعات الضغط الصهيوني .

وكان رأيي : ربما ولكن ذلك باهظ التكاليف بالنسبة له بالطبع الا اذا كانت لديه ضمانات مسبقة باتمام الانسحاب وقيام الدولة الفلسطينية ، ففي مثل هذه الحالة يختلف الأمر ، ومع ذلك فقد كان الأفضل أن يتم لقاء مباشر ـ اذا كان ذلك ضرورياً ـ في جنيف .

سؤال ـ اذن ما هو الدافع ؟

جواب ـ الحقيقة انني لا أعرف . . . هناك دافع بالتأكيد جعل هذا التغير في المواقف ممكنا .

عندما كان الرئيس السادات في الولايات المتحدة في الربيع الماضي تحدثوا معه عن تطبيع العلاقات مع اسرائيل ، وكان رده أن ذلك شيء لن نراه في جيلنا وربما

تحقق في أجيال لاحقة ، وكان في ذلك على حق .

كان أقصى ما أبدى الاستعداد له هو انهاء حالة الحرب في مقابل الانسحاب وقيام الدولة الفلسطينية ، وذلك فيما أظن كان منطقياً .

كذلك تحدثوا مع الرئيس السادات في الربيع الماضي عندما كان في أمريكا عن المفاوضات المباشرة ، وكان رأيه أنه لا يرى امكانية لذلك طالما الأرض محتلة ، وكان في ذلك على حق .

كيف تغيرت المواقف ؟ ولماذا ؟ لا أعرف .

هناك شيء ما حدث ، وأنا أعترف بجهلي به ، ولكن جهلي به لا ينفي حدوثه .

سؤال ـ هل تتوقع مقاومة من الشعب المصري ضد الزيارة المرتقبة ؟

جواب ـ انني كما قلت لك لا أستطيع أن أتحدث عن الشعب المصري ، ثم انه لم يمض وقت كاف على المبادرة بحيث يمكن اجراء رصد دقيق لاتجاهات الشعب .

ولكني عندما أتحدث عن نفسي فاني أتحدث في الواقع عن مواطن مصري وبطبيعة الحال فلا بد أن ما أشعر به قريب على نحو أو آخر مما يشعر به الآخرون من أفراد الشعب . . . وأكثر ما أحس به أنا شخصياً هو الشعور بالحيرة .

انني عندما أعلنت المبادرة لم آخذ موضوعها جداً في البداية ، وتصورت المسألة كلها زلة لسان ، وكانت هناك بعض الشواهد المشجعة على هذا الظن ، لكن التطورات سارت في اتجاه آخر ، فقد التقطت اسرائيل الخيط ووجهت دعوة ، وتوالت الخطى المتبادلة ، واكتسبت القصة كلها قوة فعل ذاتية بدا صعبا ايقافها . . . انني أمس فقط بدأت أعتقد أن هذه الزيارة سوف تحدث ، وأنا في حيرة بالنسبة للدافع اليها ، ثم أنني في حيرة بالنسبة لما يمكن أن تسفر عنه .

لأكثر من ثلاثين سنة كان الصراع العربي الاسرائيلي هو الصراع الرئيسي في حياتنا ، ودعني أقول لك أنه بالقياس اليه فان صراعكم مع الشيوعية لا يزال مجرداً فيما يتعلق بكم .

ان صراعنا مع اسرائيل ليس مجرداً وانما هو خطر واقع .

أن أحداً لم يمس وحدة أراضيكم . . . ولا شرد ملايين من أمتكم . . . ولا خاض ضدكم خمسة حروب متوالية بهدف السيطرة والتوسع .

اننا حتى فيما يتعلق بمصر وحدها لم نستعد بحرب أكتوبر وباتفاقيات سيناء الأولى والثانية الا ما مساحته سبع أراضي سيناء ، ومعنى ذلك أن ستة أسباع سيناء ما زالت تحت الاحتلال ، هذا بالطبع غير هضبة الجولان السورية ثم الأراضي المحتلة من فلسطين وفي مقدمتها القدس .

دعني أقول انني لم أفهم أيضاً سر الذهاب الى القدس . منذ أيام كما تذكر كان « بلومنتال » وزير المالية الأمريكية يزور اسرائيل وأراد « تيدي كوليك » عمدة القدس ان يصحبه في زيارة للقدس الشرقية ، ولكن « بلومنتال » ـ وهو يهودي أمريكي ـ رفض دعوة « تيدي كوليك » لأن حكومة الولايات المتحدة لا تعترف بالسيادة الاسرائيلية على القدس الشرقية وتسبب ذلك في أزمة .

كل هذه أشياء لا أفهمها وأتصور قياساً على شعوري أن هناك غيري لا يفهمونها .

سؤال ـ هل أنت متفائل بنتائج هذه الرحلة أو أنت متشائم ؟

جواب ـ الموضوع ليس موضوع تفاؤل أو تشاؤم وانما الموضوع حساب تقديرات . . . وفي تقديري أن المواقف الاساسية لم تتغير ، على الأقل لم يتغير الموقف الاسرائيلي ، وأمس فقط قرأت رد مناحم بيجين رئيس وزراء اسرائيل في الترحيب باقتراح زيارة الرئيس السادات . . . ان بيجين حتى وهو يرحب بالزيارة حدد شروطه الأساسية وركز على نقطتين :

الأولى : ان اسرائيل لا تقبل بمبدأ الانسحاب الى خطوط ما قبل يونيو سنة ١٩٦٧ .

والثانية : ان اسرائيل لن تسمح بقيام دولة فلسطينية .

واذن فهو قد بادر الى تحديد إطار المحادثات المقبلة ، وأنا لا أعتبر هذا الاطار مقبولاً . . .

انني أريد بأمانة أن أكون متفائلاً ولكني لسوء الحظ لا أجد أساساً مهما كان واهياً أبني عليه تفاؤ لي .

انني أرى من حولي ما يشبه مهرجان الفرح ، ومن العيب أن يتحدث الانسان بالشؤم في ليلة الزفاف ، ولكنني مع الأسف لا أعتبرها ليلة زفاف ! .

. . . .

. . . .

وكانت تلك أول مرة أبديت فيها رأيي بالكلمة المنطوقة ، وكان ذلك كما قلت يوم الاثنين ١٤ نوفمبر أي بعد خمسة أيام من اعلان المبادرة .

□ □ □

وفي يوم الخميس ١٧ نوفمبر وجدت نفسي أمام عدسات تليفزيون هيئة الاذاعة البريطانية أرد على أسئلة يوجهها اليّ « جوناثان ديمبلباي » وهو من ألمع نجوم الجيل الجديد في القناة الثانية من التليفزيون البريطاني ، وقد أذيع حوارنا مساء يوم ٢٤ نوفمبر في برنامج « هذا الأسبوع » تحت عنوان « قرارات صعبة وجذرية » . ومرة أخرى أنقل عن النص المكتوب للحوار كما بعث به اليّ « جوناثان ديمبلباي » نقلاً حرفياً عن التسجيل .

سؤال ـ ما هو رأيك في النتائج التي يمكن أن تسفر عنها الزيارة القادمة التي

يزمع الرئيس السادات أن يقوم بها الى القدس ؟

جواب ـ لا بد أن أقول لك بكل موضوعية أنني حتى الآن ما زلت مذهولا لهذه الزيارة . . . انها في رأيي تجيء على عكس كل شيء من أسس سياساتنا قبلها حتى في عهد الرئيس السادات نفسه .

كيف يمكن عبور الخطوط الى الناحية الأخرى ؟ ذلك أمر يفوق قدرتي على التصور .

هناك حالة حرب ما زالت قائمة . . . وهناك أجزاء من وطننا محتلة . . . وهناك أجزاء من عالمنا العربي محتلة . . . والخصم الذي نعبر الخطوط اليه يقول لنا صراحة أنه لن يقبل تحت أي ظرف من الظروف أن ينسحب الى ما وراء خطوط سنة ١٩٦٧ ، ولن يقبل تحت أي ظرف من الظروف بقيام دولة فلسطينية .

انني لا أعرف للرحلة المنتظرة سابقة أخرى في التاريخ .

ومن سوء الحظ أنني قرأت في احدى الصحف المصرية استشهاداً تاريخياً برحلات السلام التي يمكن مقارنتها برحلة القدس . . . ومبعث سوء الحظ أن الباحثين في التاريخ من كتاب الصحف المصرية لم يجدوا ما يقارنون به هذه الرحلة الا سابقتين عليها هما رحلة « نيفيل تشمبرلين » رئيس وزراء بريطانيا الى ميونيخ لمقابلة « هتلر » سنة ١٩٣٨ ، ثم طيران « رودولف هيس » نائب « هتلر » الى اسكوتلندا في سنة ١٩٤١ لمقابلة « تشرشل » . . .

وأظن أن المقارنة مزعجة ، والحقيقة أنني أعتبرها ظلما للرئيس السادات .

سؤال ـ غير معقول . . . هل قالوا ذلك فعلا . . . هل أجروا هذه المقارنة ؟ !

جواب ـ ان الصحيفة التي نشرت هذا الكلام على مكتبي في الغرفة المجاورة وتستطيع أن تأخذها اذا أردت .

سؤال ـ اذن لماذا هذه الرحلة ؟

جواب ـ أنا شخصياً لا أعرف . . . ولكني أدعو الله أن يكون هناك من يعرف أكثر مني والا فنحن في مشكلة خطيرة . . . لا بد أن يكون ما يعرفه الآخرون خطيراً وحاسماً . . . لا بد أن تكون لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين الى نتائج مثل هذه المغامرة الخطيرة . . . أما أنا فأعترف بجهلي ولا أخجل من ذلك .

سؤال ـ هل تتصور أن رد الفعل في العالم العربي خارج مصر وهو حتى الآن مصاب بالدهشة والذهول سوف يفيق مما أصابه ويغير موقفه ، خصوصاً سوريا ؟

جواب ـ أخشى أن الأمر سيكون عكس ذلك . . . ان الدهشة والذهول سوف يزولان ، ولكني أعتقد أنه سيحل محلهما شعور عميق بالمرارة . . . انني سمعت رأياً يقول ان بعض رد الفعل الذي نسمعه الآن من العالم العربي خارج مصر سبق لنا سماعه بعد اتفاقية سيناء الثانية ، ومن ثم فليس في الأمر جديد .

أخشى أن أقول ان المقارنة ليست دقيقة .

اننا الآن أمام شيء جديد تماماً . .

ان اتفاقية سيناء الثانية كانت على نحو أو آخر استمرارا للمنطق الذي عقدت به اتفاقية سيناء الأولى .

أما الآن فنحن أمام منطق مختلف تماماً .

سؤال ـ هل تظن أن هناك فرصة كما أوحى الرئيس السادات بأن ذلك سوف يفتح الطريق أمام مؤتمر جنيف ؟

جواب ـ انني لا أدري كيف يمكن أن يحدث ذلك . . . لقد كنا نريد أن نذهب الى جنيف كوفد عربي موحد ، وكان هذا ضرورياً لأسباب عديدة . . .

والآن فانني لا أتصور أن امكانية تشكيل وفد عربي موحد لا تزال قائمة . . . ان عقلي لا يستطيع أن يتصور مثل ذلك الاحتمال .

سؤال ـ اذن فأنت ترى استحالة عقد مؤتمر جنيف ؟

جـواب ـ هذا صحيح . . وأظننا نحتاج الآن الى جنيف عربية قبل حاجتنا الى جنيف مع الاسرائيليين ! .

□□□

ورأيت أن أمتنع حتى عن الكلمة المنطوقة مع قرب اتمام الزيارة ، بل انني غادرت القاهرة الى الاسكندرية لأبتعد عن مركز الحوادث منتهزاً فرصة اجازة العيد . لكن ما يجري كان له تأثير المغناطيس في قوة جذبه مهما حاولت الابتعاد . وهكذا وجدتني على شاطىء البحر في الاسكندرية وأمامي طوال الوقت جهاز راديو أتنقل بمؤشره بين اذاعات العالم .

وأعترف على استحياء أنني لم أتمالك نفسي ذات مرة حين سمعت اذاعة القاهرة تتحدث عن ترتيبات وصول الرئيس السادات الى القدس مساء يوم ١٩ نوفمبر وتقول بين ما تقول أن « سرباً من مقاتلات سلاح الجو الاسرائيلي سوف يخرج للقاء طائرة الرئيس السادات » .

لم أتمالك نفسي ولا أعرف لماذا لحظتها فاذا أنا أغطي عيني بكفي وأجهش في بكاء لم أعرفه منذ تلك اللحظة الرهيبة التي وقفت فيها بجوار فراش جمال عبد الناصر وهو يجود بالنفس الأخير ، ولم أستطع ضبط مشاعري الا عندما أحسست بيد تمس كتفي في رفق والتفت لأجد طفلي الصغير يرقبني بعينين تملؤهما الدموع والدهشة شاعراً أن شيئاً خطيراً ألم بي ولكن مداركه لا تسعفه بتفسير لهذا الذي لم يعهده في من قبل !

وواصلت متابعة الاحداث كما فعل الملايين غيري في العالم العربي

وخارجه ، ولكني أسلمت نفسي لصمت حزين أطبق عليّ أياما طويلة حتى بعد أن عدت الى القاهرة وانقضى ذلك المهرجان الغريب وانفض سامره وان بقيت أصداؤه ملء الآفاق .

ومرة أخرى ظللت أمسك نفسي عن الكتابة أنتظر النتائج .

ومرة أخرى لجأت الى الكلمة المنطوقة لأن الصمت الكامل كان مستحيلاً مهما كانت النتائج !

وأدليت بحديث الى مجلة « الاكسبريس » الفرنسية ، ثم بحديث الى جريدة « الموند » الفرنسية أيضاً .

ثم بعث اليّ « ويليام ريس موج » رئيس تحرير جريدة « التيمس » البريطانية يقترح عليّ أن أدلي بحديث بوجهة نظري الى « التيمس » لأن العالم كله لا يستطيع أن يسمع وجهة النظر الثانية من مصر . وكان « ويليام ريس موج » رقيقاً في طلبه ، فقد قال لي « انه يقدر الظروف ولا يريد احراجي ولكنه يعتقد أن الوقت مناسب لسماع كل وجهات النظر خصوصاً من مصر » . ووافقت ، وبتكليف منه جاءني « ادوار مورتيمر » مراسل « التيمس » في الشرق الاوسط ليقوم باجراء الحديث معي .

واهتمت « التيمس » بما قلت ، فأبرزت حديثي في موضوعها الرئيسي في صدر صفحتها الأولى على ثلاثة اعمدة ثم استكملته في الصفحة الرابعة ، وكان عنوان صفحتها الأولى :

« هيكل يحذر من مخاطر اتفاق بغير قبول عربي »
« تحذير من سلام مصنوع من ورق الكرتون »

□ □ □

قلت ونشرت « التيمس » يوم الثلاثاء ٢٠ ديسمبر ما يلي :

« انني لست ضد تسوية سلمية لأزمة الشرق الاوسط .

وربما كنت أخفف من معارضتي لزيارة الرئيس أنور السادات لاسرائيل لو أنها اقتصرت على مجرد كونها تحدياً للسلام نواجه به اسرائيل من الداخل .

ان الزيارة تحولت الى شيء آخر . . . تحولت الى زيارة رسمية . . . ثم اكتسبت الزيارة ديناميكية تطبيع العلاقات . . . ثم جاء مؤتمر القاهرة ـ مينا هاوس ـ ليعزز هذه العملية . . . ثم تجيء زيارة بيجين المرتقبة للاسماعيلية وتعززها اكثر واكثر .

وفي ذلك الوقت فان مصر في حالة قطيعة كاملة مع الدول العربية التي تعارض المبادرة ، وهي في نفس الوقت على غير اتصال مثمر مع جبهة الدول المساندة التي تقدم لها الدعم .

حتى لو قبلت منطق الزيارة فانني لا أعرف لماذا لم نقل للعالم العربي بما ننوي أن نفعله متحملين مسؤوليته كتحد من أجل السلام واعدين بعرض النتائج عليه فور اتمام الزيارة .

اننا لم نفعل ذلك . . . وبدلا منه رحنا ندافع عن أنفسنا وتركنا الأمور تتصاعد ثم رحنا نهاجم في كل الجبهات . . . العرب والاتحاد السوفيتي .

انني أسلم أن المبادرة قبلت في مصر ومن جانب شعبها بحماسة ، ولكن ذلك في ظني حدث لأسباب اخرى لا علاقة لها بموضوعها ، ومن هذه الأسباب الضيق بالحرب وتكاليفها .

ثم جاء تأثير التليفزيون وغيره من وسائل الاعلام التي شدت الشعب المصري الى متابعة مبهورة بما يجري ، والنتيجة أن الشعب المصري أحس أنه شارك فيما جرى وكان من أثر هذا الاحساس أنه جرف أية تحفظات عليه ، ولكن صنع السلام أخطر من كل المؤثرات التي يمكن ان يصنعها استعراض تليفزيوني ضخم .

الى جانب ذلك فقد كان هناك الاعتقاد بأن السلام ـ لا أعرف أي سلام ـ

سوف يؤدي الى حل جميع مشاكل مصر الاقتصادية . . . كان هناك أيضاً احساس المصريين بأن غيرهم من العرب ازدادوا غنى في حين أنهم ازدادوا فقراً .

ان أحدا لا يعارض في السلام ولكن السلام يحتاج الى دعائم قوية يقوم عليها . . . بل انني حتى وبرغم كل ما يقال لا اعتقد ان الاتحاد السوفيتي يعترض على السلام . . . ان الاتحاد السوفيتي يحبذ ـ وكان طول الوقت يحبذ ـ الوصول الى تسوية سلمية ، وبالنسبة لهم فقد كان ذلك يجنبهم مخاطر صدام محتمل مع الولايات المتحدة ، كذلك فانهم يريدون أن يوفروا على أنفسهم أعباء امداد العرب بالاسلحة ، ثم اني أظنهم يتصورون أن جو السلام قد يواتيهم بما يتفق مع خططهم ، فهم يتصورون أن انتهاء النزاع مع اسرائيل سوف يفتح الباب أمام ضرورات التغيير الاجتماعي في العالم العربي .

ان سوء العلاقات بيننا وبين الاتحاد السوفيتي لا يقع علينا وحدنا ولكن الاتحاد السوفيتي نفسه له نصيب فيه ، فقد تصرفوا في كثير من الاحيان بطريقة غليظة ، وأظنهم يستحقون بعض ما يجري لهم الآن ، ولكني لا اعتقد أنهم يستحقونه كله !

كان يجب أن ننسق سياستنا مع الآخرين ولكننا لم نفعل .
وانتقدنا الآخرون في العالم العربي وانفعلنا .
والآن فان هناك موقفا مؤسفا في العالم العربي .

هناك فوق مصر ضباب يحجب الرؤية السليمة ويحجب التقييم الصحيح لما قمنا به بسلبياته وايجابياته ، وهناك في بقية العالم العربي نوع آخر من الضباب . . . ضباب العصبية التي لا ترى أي شيء ايجابي فيما قمنا به .

انني لا أوافق على هذه الحملة المعادية للعرب التي نقوم بها الآن . . . اننا نريد أن نكسب معركة تكتيكية في داخل مصر من أجل الحصول على قبول الشعب المصري لما حدث ، ولكننا في هذا السبيل ندمر بأيدينا عناصر استراتيجية لقوتنا في المنطقة كلها .

وليس يهمني أن يقال بأننا هدمنا حاجزا نفسيا كان يقوم بيننا وبين اسرائيل اذا

كنا قد أقمنا بدلا منه حاجزا نفسيا بيننا وبين أمتنا العربية .

ان ذلك قد يمهد لعزلة مصر عن العالم العربي ، وهذا أمر خطير بالنسبة للأمة كلها ، ثم انه سوف يفرض علينا ـ حتى لو لم نكن نريد ذلك أو نقصده ـ أن نجد أنفسنا أمام مخرج واحد وهو عقد اتفاق منفرد مع اسرائيل ، وذلك ما تريده اسرائيل .

وحتى لو اضطر بعض العرب الى السكوت عما نقول به ، فان سكوتهم سوف يكون عناء شديداً وسوف يفتقد عنصر الرضا الاختياري وذلك ليس طريق السلام . . . ان سلاماً على هذا النحو سوف يكون بناء من ورق الكرتون وسوف يقود الى الكثير من المتاعب والمخاطر ، لأن السلام لا تصنعه الهستيريا من جانب أو لوي الأذرع من جانب آخر » .

□ □ □

هكذا كنت كمن يحاول السير على الصراط المستقيم .

أريد أن أعطي نفسي الوقت اللازم لأفكر وأقدر بالتزام وموضوعية . . . وهكذا امتنعت عن الكلمة المكتوبة لمدة أربعة شهور .

وفي نفس الوقت فلقد كان الصمت مستحيلاً لأن الحقائق واضحة وضوح الشمس . . . وهكذا اعتمدت الكلمة المنطوقة أعبر بها عن آرائي بينما التطورات تجرى وتتلاحق وتهدر كأنها موجات في أعقاب موجات !

وحين هاجمتني احدى صحف القاهرة واستشهدت بفقرات مبتسرة من بعض ما قلت لجريدة الاكسبريس الفرنسية ووضعته في صفحتها الأولى تحت عنوان : « واحد ضد مصر ! » ـ فاني لم اغضب ، ذلك لأنني في كل ما قلت لم أكن أشعر بأنني واحد ضد مصر وانما كنت طول الوقت اشعر أنني « واحد من مصر » .

حَديث المبادرة ٢

اللغز الملفوف بالأسرار
والمحاط بالغموض!

لم يكن السفر الى اسرائيل شهاباً برز من المجهول فجأة ، وتوهج في الظلام على غير انتظار ، فلا شيء في التاريخ يحدث على هذا النحو ، لأن التاريخ سياق متصل ، واذا ظهرت أمامنا في سياقه فجوات فهذه الفجوات في الحقيقة حلقات ناقصة في علمنا بما جرى ويجري !

وهكذا فاننا حين نتحدث عن المفاجىء وغير المنتظر ـ انما نتحدث في الواقع عما خفي علينا أمره أو فاتنا في أوانه رصد مقدماته وتعقب مداخله .

وربما كان علينا أن نفرق بين « مقدمــات » أي حدث وبين « مداخله » ، مع العلم بأن العلاقة متصلة بينهما فأحدهما يفضي الى الآخر ويقود اليه . وقد نقول في محاولة للتعريف بسرعة : ان المقدمات هي مجموعة العوامل التاريخية البعيدة والقريبة التي يمكن أن تؤدي الى طريق معين ، وأما المداخل فهي مجموعة الخطوات العملية التي تؤدي الى عنوان محدد على هذا الطريق بالذات !

وفي قصة السفر الى القدس فان « المقدمات » طويلة ومعقدة ، وهـي تبدأ بالظروف التي برز فيها انتماء مصر العربي في الاربعينات والخمسينات ثم تتصل بعد ذلك بالرؤية المصرية الشائعة للصراع العربي الاسرائيلي في الستينات والسبعينات ، ثم ترتبط بالطريقة التي مورست بها ادارة هذا الصراع خصوصاً بعد حرب أكتوبر العظيمة سنة ١٩٧٣ ، وأخيراً ترتبط بمجمل الخيارات الاجتماعية والسياسية والعربية والدولية مما أخذ به وتبناه صناع القرار المصري في السنوات الأربع الاخيرة على وجه التحديد ـ وهذه كلها موضوعات كبيرة الاهمية عظيمة الخطر ولا بد لها من تحليل مفصل أعد أن ألتفت اليه في مكان لاحق من هذه الاحاديث ، ذلك لأنني أريد الآن أن أتوقف عند « المداخل » في قصة السفر الى القدس ، لأن هذه « المداخل » أقرب

وألصق بهذه اللحظة التي نحن فيها ، ومن ثم فان تأثيرها مباشر وقوي على اللحظة التالية .

□ □ □

ان الخطوات العملية التي قادت الى عنوان الكنيست الاسرائيلي في القدس المحتلة يكاد يصدق عليها تعبير « ونستون تشرشل » في وصفه الشهير للاتحاد السوفيتي حينما قال « انه لغز ملفوف بالأسرار ومحاط بالغموض » !

لكن الخطوات العملية التي قادت الى عنوان الكنيست الاسرائيلي في القدس المحتلة منعطف مهم ، وبالتالي فان تعقب الخطى على المنعطف الذي سارت عليه الوقائع يصبح أمراً ضرورياً حتى وان أصبح هذا الجهد من نوع ما يقوم به قصاصو الأثر في الصحراء . . . مزيج من تتبع آثار أقدام ظاهرة على الرمال ، الى فحص مخلفات باقية وراء كثبانها ، الى استقراء الرياح العابرة والروائح العالقة في الجو ، وربط هذا كله مع بعضه ، ووصل الفراغات بين أجزائه ، ولو حتى بالاستنتاج بغير الجموح الى الخيال .

ومثل هذا للامانة هو ما أحاوله الآن !

□

وربما استطعنا أن نقول بغير مجازفة أن البداية كانت في الربيع من العام الماضي ـ ربيع سنة ١٩٧٧ ـ وذلك عندما استطاعت بعض الظروف والملابسات أن تقنع الرئيس الامريكي الجديد ـ وقتها ـ جيمي كارتر بأن ينقل ازمة الشرق الاوسط من المكانة الخامسة أو السادسة في أولوياته الى مكانة متقدمة . وكان أهم هذه الظروف والملابسات هو أن سيلا من أعضاء الكونجرس الامريكي عادوا اليه من زيارات لمنطقة الشرق الاوسط يقولون له « انهم لمسوا اعتدالاً كبيراً في المنطقة وأنها في رأيهم لحظة مناسبة لتناول الأزمة وأن النجاح فيها ممكن ، واذا حدث النجاح فهو خير استهلال لرئاسته في مجال السياسة الدولية » .

واقتنع الرئيس الامريكي وبدأ اقترابه من أزمة الشرق الأوسط بدعوات وجهها الى عدد من ساسة المنطقة ليلتقوا به . وكان الرئيس الامريكي في ذلك الوقت قد اعتمد مشروع معهد « بروكينجز » الشهير للابحاث في واشنطن ليكون أساس محاولته لتناول أزمة الشرق الاوسط ، وساعد على ذلك أن عدداً من أبرز مستشاريه ـ برجينسكي وكوانت ـ كانوا بين مجموعة الخبراء التي أعدت مشروع معهد « بروكينجز » . واستخلص الرئيس الامريكي من هذا المشروع اربع نقط محددة للحل على النحو التالي :

- انسحاب اسرائيل من معظم الأراضي التي استولت عليها سنة ١٩٦٧ على أن يتم الاتفاق على الحدود الجديدة الآمنة بالتفاوض بين الاطراف .

- اقامة علاقات طبيعية تماما بين اسرائيل وبين كل جيرانها العرب .

- أن يكون للفلسطينيين وطن ـ وليس دولة ـ في مكان من فلسطين يتفق عليه بين اسرائيل وبين المتفاوضين العرب معها .

- وأخيراً أن يؤجل موضوع القدس برمته الى مرحلة لاحقة .

وعرض الرئيس كارتر أفكاره على كل من قابلهم من زعماء المنطقة . وكانت هناك نقطة تشغل باله وتلح عليه وهي « ان أي اتفاق سليم لا يمكن أن يتوصل اليه غير أطراف النزاع في المنطقة بأنفسهم ولأنفسهم وأنه لا يمكن فرض اتفاق من الخارج عليهم ، كما أنه من المستحسن أن ينحصر دور القوى الخارجية عن المنطقة في تسهيل الاتفاق بين الأطراف » ، وفي هذه النقطة فقد تساءل الرئيس الامريكي عن المحاذير التي تمنع الأطراف من مواجهة بعضها مباشرة خصوصاً وأن كل بنود المشروع المقترح لحل الأزمة تقتضي اتفاقاً من خلال التفاوض بين الأطراف ؟ وفضلاً عن ذلك فان أهم بنود المشروع هو تطبيع العلاقات تماماً بين اسرائيل وكل جيرانها ، واذا كان التطبيع على هذا النحو هدفاً لا بد من الوصول اليه في حد ذاته فان الوصول مبكراً الى قسط منه سوف يساعد على حل عقد مستعصية في بنود أخرى ، ومن هنا كان تساؤل الرئيس الامريكي : « ما الذي يمنع من اجراء مفاوضات مباشرة ؟ وهل

السبب هو مجرد العقد النفسية المتخلفة عن مراحل سابقة من الصراع ؟ واذا كان الأمر كذلك فهل لم يجيء الوقت لتجاوز الماضي ؟ »

ان بعض الزعماء العرب في ذلك الربيع الماضي في واشنطن كانوا حريصين على تشجيع الرئيس الامريكي الجديد على مواصلة اهتمامه بأزمة الشرق الاوسط . . . كانوا قد تعودوا التعامل مع هنري كيسنجر في عهد رئاسة نيكسون وفورد من بعده ، وكان كارتر بالنسبة لهم عاملاً مجهولاً ، وفي الوقت نفسه فقد كان رهانهم كاملاً على حل أمريكي ، وهكذا فانهم لم يضعوا تحفظاتهم قاطعة أمام الرئيس الامريكي .

أبدوا التشكك في امكان اجراء مفاوضات مباشرة مع اسرائيل بينما قواتها تحتل أجزاء من أراضي أوطانهم .

وأبدوا التشكك في امكانية تطبيع العلاقات بسرعة بعد ثلاثين سنة من العداء الشامل .

وأبدى كارتر بعض التفهم لشكوكهم ولكن لأن تحفظاتهم لم تكن قاطعة فان الرئيس الامريكي تصور أن الباب لم يغلق تماماً في وجه تساؤلاته ، وهكذا كان قوله في النهاية « انه يعد ببذل كل جهده لتمهيد الطريق أمام مؤتمر جنيف ولكنه يدرك أن جهوده قد تصل الى نقطة قد يتحتم فيها على الأطراف مساعدته بأخذ مبادرات تعطي دفعة جديدة لعملية الحل » .

□

في ذلك الوقت من ربيع ١٩٧٧ كان الدكتور هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة السابق يتابع الاتصالات التي تجرى في واشنطن بكثير من القلق ونفاد البصر .

كان قد تعود الحياة تحت الأضواء ، وكانت أزمة الشرق الاوسط ذات بريق خاص بالنسبة له ، وكان قد شجع من طرف خفي فكرة أن يعهد اليه الرئيس

الامريكي الجديد بدور الوسيط الامريكي في حل أزمة الشرق الأوسط على أساس غير حزبي ، ولكن كارتر لم يتحمس للفكرة رغم ادعاءات كيسنجر بأن كل الزعماء من أطراف النزاع يثقون فيه ، وفوق ذلك فقد كان هناك موضوع يلح على كيسنجر وهو موضوع التهديد الموجه الى نظام موبوتو في « زائير » بسبب التمرد ومحاولة الغزو التي تقوم بها قوات الجنرال « بومبا » في اقليم « شابــا » المجاور « لأنجــولا » . وكان مبعث اهتمام كيسنجر بالموضوع أنه أصبح مستشـاراً لمجموعـة بنـوك أمـريكية لهـا استثمارات طائلة في « زائير » يضمنها نظام موبوتو وهي تخشى انهياره فتضيع تحت أنقاض الانهيار استثماراتها . وكانت هناك نقطة أخرى في دواعي اهتمام كيسنجر بما يجري في « شابــا » على حدود أنجـولا . . . تلك هي أن أنجـولا كانـت هزيمتـه الكبرى في افريقيا وهو رجل لا ينسى بسهولة هزائمه .

وسعى كيسنجر الى لقاء بعض الزعامات والشخصيات القادمـة من الشرق الأوسط الى واشنطن ، وكانت أهدافه متعددة :

يريد أن يبدو ظاهـراً على المسرح يطلب الجميع نصائحه وقد يطلبون دوره .

ويريد أن يلفت نظر الرئيس الامريكي الجديد الى نفوذه على زوار واشنطن من الشرق الاوسط .

ويريد أن يتبرع بنصائحه كما كان يفعل أيام المجد ويتحدث كأستـاذ يملك التاريخ ملكية خاصة ويحتفظ بسلطان على الأرض لا يطاوله سلطان .

وكان كيسنجر هو الذي أذاع بطريق غير مباشر أن الرئيس السادات عرض عليه أن يكون مستشاراً خاصاً له في الشئون الخارجية ولكنه هو ـ كيسنجر ـ رجـا الرئيس أن يعفيه من هذا المنصب واعدا بأن يكون تحت التصرف في أي معضلـة وبواجب الصداقة دون أي التزام آخر .

وفي ذلك الوقت في واشنطن كان « كيسنجر » يفيض ويتدفق في أحاديث مع كل زعماء وشخصيات المنطقة من زوار واشنطن ، ومن بين آرائه في ذلك الوقت :

● ان هناك هجوماً سوفيتياً جديداً في افريقيا ، وأن هذا الهجوم شديد الخطر ، وبداياته هي ما يجرى في زائير وما يتعرض له موبوتو من غارات الجنرال بومبا على شابا من قواعد في انجولا .

● أن أزمة الشرق الاوسط تحتاج الى شيء جديد ، ثم راح الدكتور كيسنجر يتغنى ببعض أمجاده السالفة خصوصاً في الصين ، وكان قوله « انني طرقت باب الصين على غير انتظار . . . فتح العالم عيونه فجأة فاذا أنا في الصين واذا قطيعة ثلاثين سنة تسقط في ثلاثين ساعة قضيتها في بكين . . . لقد أسقطت الحاجز النفسي بين الولايات المتحدة والصين وفي حين كان يظن آخرون قبلي أن الرأي العام الامريكي لن يستجيب لما فعلت فان الاستجابة كانت كاملة وأصبح فتح أبواب الصين من أهم منجزات السياسة الامريكية في عهد نيكسون » !

□

وفي بدايات صيف ١٩٧٧ كان الدكتور « ناحوم جولدمان » رئيس المجلس اليهودي العالمي والشخصية اليهودية الأولى في العالم خارج اسرائيل يتحرك بنشاط . كان الدكتور « جولدمان » في واشنطن قبل اسابيع والتقطت أذناه الحساستان بعض الاحاديث عن موجة الاعتدال الجديدة في المنطقة ، وتجدد لديه الأمل أن تحدث معجزة في العلاقات العربية الاسرائيلية قبل أن يعلن اعتزاله الوشيك للعمل اليهودي العام .

وركز الدكتور « جولدمان » على عاصمتين : « الرباط » و « بوخارست » باعتبار أن هناك صداقة خاصة تربط بينه وبين « الملك الحسن » ملك المغرب من ناحية وبين الرئيس « تشاوشيسكو » رئيس رومانيا من ناحية اخرى ، وكان يعرف أن الاثنين لديهما خيوط وخطوط من الصلات والصداقات في المنطقة .

ولم تؤثر نتائج الانتخابات الاسرائيلية وفوز « مناحم بيجين » برئاسة الوزارة في اسرائيل على حماسة الدكتور جولدمان ، وهكذا فانه راح يبشر في الرباط وفي بوخارست بأن « مناحم بيجين » قد يستطيع أن يلعب دور « ديجول » في الجزائر

وكان قوله « ان التاريخ قد يثبت أن بيجين هو الرجل القوي الذي يستطيع تقديم تنازلات لا يجسر أحد على اتهامه بالضعف عند تقديمها » .

وكانت النغمة شجية ، فقد كانت هناك رغبة لدى كثيرين في أعقاب صدمة فوز بيجين الى سماع ما يطمئن المخاوف من تشدده المعروف .

وسعى « جولدمان » حتى رتب اجتماعات في المغرب بين بعض المسئولين المغاربة الكبار وبين وزراء اسرائيليين من زملاء بيجين .

وفي نفس الوقت لعب جولدمان دوراً في التمهيد لزيارة مناحم بيجين الى رومانيا ، وفي العاصمة الرومانية وضع رئيس الوزراء الاسرائيلي الجديد أفكاره أمام الزعيم الروماني بوضوح وحسم طالباً منه أن ينقل وجهة نظره الى أصدقائه من العرب وفي مقدمتهم الرئيس أنور السادات .

وكان ملخص آراء بيجين على النحو التالي :

- ان بعض الزعماء العرب يعتمدون فيما يبدو على مقدرة أمريكا في الضغط على اسرائيل ، وهو يؤكد له أن اسرائيل لن تقرر الا ما تراه لنفسها وبنفسها ، وأن أي قدر من الضغط الامريكي لن يزحزحها خطوة واحدة الى غير ما تريد .

- ان اسرائيل مطمئنة الى موازين القوة العسكرية وأنها تستطيع أن تنتظر سنوات وسنوات دون أن ينفد صبرها ، وعلى العرب أن يتصرفوا كما يشاؤون .

- انه يطلب مفاوضات مباشرة مع من يرغب من العرب ، وسوف يدهش هؤلاء الذين يتقدمون لاسرائيل من استعداد اسرائيل لملاقاتهم في منتصف الطريق .

وأضاف بيجين :

ـ كيف يمكن أن أصدق باستعدادهم للحياة معنا بسلام اذا لم يكونوا على استعداد للحديث معنا عن هذا السلام . . . هذه مسألة نفسية ولكنها تنطوي على

عوامل حقيقية . . . ان رفضهم الكلام معنا الآن هو تعبير عن رفضهم للحياة معنا في المستقبل وهذه ليست مسألة نفسية .

ثم أبدى بيجين استعداده لمقابلة من يشاء مقابلته من الزعماء العرب في القدس أو أي عاصمة عربية ، أو في بوخارست ، أو في نيويورك أو جنيف في اطار الأمم المتحدة ، أو حتى في البيت الأبيض في واشنطن !

□

ومع دخول صيف سنة ١٩٧٧ كانت هناك اتصالات كثيرة بين واشنطن وبين عواصم المنطقة ، وأظهرت هذه الاتصالات مجموعة اتجاهات بدت كلها عقبات صماء تعرقل الطريق الى جنيف .

● كانت هناك عقبة تمثيل الفلسطينيين ـ حتى ضمن وفد عربي موحد ـ في مؤتمر جنيف .

● وكانت هناك عقبة أن اسرائيل ، وكذلك بعض الاطراف على الناحية العربية ، تتشكك في الدور الذي يمكن أن يقوم به الاتحاد السوفيتي في حالة انعقاد مؤتمر جنيف خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي بدأ يظهر ضيقه من النشاط المصري في مطاردة سياساته في افريقيا .

كان هناك تدخل مصري مباشر في زائير لمساعدة موبوتو .

وكان هناك ضغط من القاهرة ـ وغيرها من العواصم العربية ـ على الرئيس الصومالي « سياد بري » لكي يطرد الخبراء السوفيت من الصومال .

أي أن المعركة كانت مفتوحة على آخرها بين القاهرة وموسكو في افريقيا ، فكيف تضمن القاهرة على دور الاتحاد السوفيتي في تسهيل اعمال مؤتمر جنيف وله فيه شركة الرئاسة !

● وفي نفس الوقت فان مناحم بيجين عندما زار واشنطن والتقى لأول مرة مع الرئيس الامريكي جيمي كارتر اعاد على مسامعه بعض ما ذكره قبلا للرئيس الروماني تشاوشيسكو واوله « كيف يمكن أن أصدق باستعدادهم للحياة معنا بسلام اذا لم يكونوا على استعداد للحديث معنا عن هذا السلام » .

وفي وسط هذه العقبات وصل « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكي الى المنطقة يبحث عن منفذ وسط السدود المغلقة .

وفيما يبدو فان فانس حمل معه الى الاسكندرية خطابا من الرئيس جيمي كارتر الى الرئيس أنور السادات ، وفي هذا الخطاب فان كارتر ذكر الرئيس السادات بما كان بينهما عند اجتماعهما في الصيف في واشنطن من « أن الأمور سوف تصل الى نقطة يتحتم فيها على الأطراف مساعدته بأخذ مبادرات تعطي دفعة جديدة لعملية السلام » ، وكان رأي كارتر أن الأمور وصلت بالفعل الى هذه النقطة .

وفي هذا الجو عاد الرئيس السادات الى اقتراح سابق يقضي بانشاء مجموعة عمل يرأسها « سيروس فانس » نفسه وتتولى وضع جدول اعمال لمؤتمر جنيف . وكان مقتضى اقتراح مجموعة العمل أن تتشكل لجنة ينضم اليها وزراء خارجية مصر وسوريا والأردن واسرائيل وأن تجتمع هذه اللجنة تحت رئاسة وزير الخارجية الامريكي . وكان الاقتراح على هذا النحو نوعاً من المفاوضات المباشرة بين أطراف خمسة ، ثم يكون على الطرفين الباقيين وهما الاتحاد السوفيتي ومنظمة التحرير الفلسطينية أن ينتظرا دورهما حتى ينعقد مؤتمر جنيف وبعد أن يتم التمهيد له في نيويورك التي كان الكل في الطريق اليها مع بدء دورة الانعقاد العادي للجمعية العامة للامم المتحدة .

لكن الاقتراح لم يبق في الجو أكثر من اربع وعشرين ساعة لأن الرئيس حافظ الاسد رفضه على الفور عندما نقله اليه وزير الخارجية الامريكي في اليوم التالي .

□

وتعقدت الامور أكثر وأكثر في نيويورك فقد كانت هناك أوراق متشابكة .

كانت هناك ورقة عمل أمريكية ، وورقة عمل أمريكية معدلة ، وورقة عمل أمريكية اسرائيلية .

وبلغ من تعقد الأمور أن وزير خارجية فرنسا « لـويس دي جيرنجـو » قال لأحد الوزراء العرب :

ـ انني لم أعد أعرف لنفسي رأسا من قدم . . . لقد اختلطت الأوراق أمامي كأنها « أوراق كوتشينة بغير نظام » .

ثم زاد الطين بلة حين اقتضت احكام الوفاق أن تصدر ورقة عمـل جديدة عليها توقيع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وكان صدور هذه الورقة صدمة لكثيرين في نيويورك ، فقد بدا لهم أن للازمة جوانبها المتصلة بالعلاقات على القمة الدولية وأن الاتحاد السوفيتي الذي خرج من الباب يوشك أن يعود من النافذة .

وكان تعليق سيروس فانس على غضب البعض في نيويورك هو قوله :

ـ أرجوكم أن تعرفوا أنه مستحيل استبعاد الاتحاد السوفيتي من أزمة الشرق الاوسط ، فهو موجود فيها بحكم عوامل كثيرة أولها أنه احدى القوتين الأعظم في هذا العالم » .

وكان أكثر الغاضبين تعبيراً عن غضبه في نيويورك وواشنطن وقتها هو الدكتور هنري كيسنجر الذي قال لبعض من قابلوه :

ـ ان بيجين لا يريد السوفيت في محاولات حل أزمة الشرق الاوسط . ثم ان السادات دخل في عداء مرير مع السوفيت في افريقيا وهو أيضاً لا يريدهم .

وقيل للدكتور كيسنجـر :

ـ هل تستطيع أن تتصور حلا لأزمة الشرق الأوسط بدون الاتحاد السوفيتي ؟

وكان رد الدكتور كيسنجر :

ـ حسنا . . . من قال أني لا أريدهم في الحل ولكن المسألة هي أين أريدهم ؟ انني أريدهم في البداية وأريدهم في النهاية ولكني لا أريدهم في الوسط .

ثم استطرد الدكتور كيسنجر يشرح :

ـ انني أردتهم في البداية لأنهم كانوا في صميم الأزمة عندما انتهت المعارك في أكتوبر ١٩٧٣ ، ولكن عملية التفاوض نفسها جرت بدون اشتراكهم في اتفاقيات سيناء الأولى والجولان الأولى وسيناء الثانية ، ثم أردتهم بعد ذلك في مراسم التوقيع لكي يشتركوا في ضمان التنفيذ .

ان المرحلة التي يستطيعون فيها ممارسة ألاعيبهم هي مرحلة المفاوضات الفعلية ولهذا فانه يجب عزلهم عنها ، وأما عند الجلوس للتوقيع فاني أحتفظ لهم بمقاعدهم .

وقيل للدكتور كيسنجر :

ـ ولكن ما الذي يدعو السوفيت الى قبول هذا الوضع المهين ؟

وكان رده :

ـ نحن لسنا الذين نضعهم في هذا المكان . . . ان أطراف الأزمة انفسهم هم الذين يجب أن يضعوهم فيه . . . اتركوا لهم الأمر وهم يتصرفون ، ولكن لا تتصرفوا بالاتفاق مع السوفيت على عكس مطلب السادات وبيجين !

□

ومع نهاية صيف سنة ١٩٧٧ كانت الاشارات تترى على القاهرة من بوخارست تقول أن الرئيس الروماني تشاوشيسكو لديه ما ينقله الى الرئيس السادات عما جرى في لقائه مع مناحم بيجين .

وفي نفس الوقت كان ناحوم جولدمان دائم الطيران بين بوخارست والرباط

وبدا أن عدة اقتراحات تختمر لترتيب لقاء مباشر بين بيجين والسادات .

وبدا من جانب الذين مدوا أصابعهم الى خمائر الفكرة أنهم يستبعدون القاهرة والقدس « لأن تلك خطوة أبعد مما يمكن توقعه في هذه الظروف .

وكانت هناك أسئلة مطروحة ولكنها حائرة :

● أين يكون اللقاء . . . هل يكون في بوخارست أو في طنجة ؟

● هل يكون في اطار الأمم المتحدة ، جنيف المقر الأوروبي ، أو نيويورك المقر الدائم ؟

● هل يكون في واشنطن تحت المظلة الامريكية وضمانها ؟

● ثم ، وهذا مهم جدا . . . هل يكون اللقاء سرياً أو يجرى علنياً تحت الاضواء ؟ وكان هناك لأول وهلة تحفظ ضد السرية ، لأن السرية غير مكفولة ولأن التسرب ـ وهو محتمل ـ قد يعطي مجالا لحملات تشهير تفسد المحاولة كلها قبل أن تستطيع تحقيق هدف من أهدافها !

● وأخيراً ، كيف يتم اللقاء ؟ على أساس جدول أعمال معين ؟ وكيف يتم الاتفاق عليه ؟ وأي ضمان أن لا يحدث له ما حدث من قبل للاتفاق على جدول أعمال جنيف ؟ !

ان أحداً لا يستطيع أن يقطع كيف تفاعلت هذه الخمائر كلها ، ولكن لدينا بعد ذلك قول الرئيس السادات في أول حديث صحفي أدلى به بعد اعلان مبادرته حين قال :

ـ لقد بدأت أفكر في الموضوع بطريقة جدية عندما أقلعت بي الطائرة من مطار بوخارست في الطريق الى مطار طهران . . . عندما كانت الطائرة قرب الحدود التركية البلغارية كان رأيي قد استقر على الذهاب الى القدس .

وبالتأكيد فانه من الصعب على أي محلل أن يتصور العوامل والاعتبارات التي دارت في ذهن الرئيس السادات لحظتها ، ولكن قياساً على التطورات اللاحقة فمن المرجح أن أهم هذه العوامل والاعتبارات كانت تصوره لكل ما سمعه عن أهمية العامل النفسي لدى اسرائيل ولدى مناحم بيجين .

وربما ـ أقول ربما ـ لمعت وسط هذه العوامل والاعتبارات كلها مقولة الدكتور هنري كيسنجر في الربيع : « انني طرقت باب الصين على غير انتظار . . . فتح العالم عيونه فجأة فاذا أنا في الصين على غير انتظار واذا قطيعة ثلاثين سنة تسقط في ثلاثين ساعة قضيتها في بكين . . . لقد أسقطت الحاجز النفسي بين الولايات المتحدة والصين ، وفي حين كان يظن آخرون قبلي أن الرأي العام الامريكي لن يستجيب لما فعلت فان الاستجابة كانت كاملة » .

ولعل السؤال الذي بقي معلقاً في الطائرة تلك الساعة الحاسمة من تاريخ الشرق الاوسط هو :

ـ كيف تكون استجابة الرأي العام المصري لعملية اقتحام الحاجز النفسي بين مصر واسرائيل ؟ !

ونستطيع أن نتصور أن هذا السؤال ظل ملحاً لأيام وأسابيع تالية .

بعد رومانيا كانت هناك زيارة لايران ثم زيارة للمملكةالعربية السعودية .

وفي طهران يقول المتصلون بالقصر الامبراطوري أن الشاه محمد رضا بهلوي لم يفاجأ عندما أعلن الرئيس السادات استعداده للذهاب الى القدس المحتلة .

ومن الحق أن يقال أن شاه ايران كان له دائما رأي في انتماء مصر العربي وفي دورها في الصراع العربي الاسرائيلي .

كان رأي الشاه أن مصر ليست عربية وأنها مثل ايران مجرد جار للعرب ومجرد صديق في الاسلام .

وكان رأي الشاه أن الصراع العربي الاسرائيلي كلف مصر أكثر مما تطيق وأنه قد حان الوقت لكي تلتفت مصر لنفسها وتنصرف الى شئونها الخاصة .

وبالطبع فاننا نستطيع أن نتصور أن رأي الشاه يتأثر برؤيته للامن القومي الايراني .

وفي الرياض يقول المتصلون بالقصر الملكي أن الملك خالد لم يسمع من الرئيس السادات شيئاً عن نواياه ولو عرف لحاول اثناءه عن عزمه . والراجح أن الرئيس السادات أشار في أحاديثه مع بعض المسئولين السعوديين بطريقة عابرة الى « اعتقاده بأن تحريك الأزمة قد يقتضي في مرحلة لاحقة نوعاً من الاتصال المباشر باسرائيل » ، ولكن خيالهم لم يصل الى حد تصور ما هو قادم ، ثم أن الملاحظة العابرة لم تدفع أحداً منهم الى تصور أن في الأمر عجلة ولعلهم ظنوا أنه حين يجيء الأوان فانهم سوف يعرفون مسبقاً وسوف تكون لديهم الفرصة لابداء الرأي فيما سوف يعرفون .

وفي الطائرة الى القاهرة فان الرئيس السادات ـ على حد روايته في مؤتمراته الصحفية ـ طرح الفكرة التي تجول برأسه على رجل واحد وهو وزير خارجيته في ذلك الوقت اسماعيل فهمي وأبدى وزير الخارجية مخاوفه ، ودار بين الرئيس ووزيره حوار برز من خلاله الاقتراح الذي أشار اليه الرئيس السادات أكثر من مرة وهو اقتراح دعوة الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وفرنسا والصين ، الى جانب أطراف النزاع في المنطقة الى اجتماع على مستوى القمة في القدس .

ولكن هذا الاقتراح جرى العدول عنه في سياق نفس الحوار في الطائرة لأن نجاحه كان مرهوناً بقبول كل الأطراف ، وذلك أمر يصعب ضمانه .

وربما كان مناسباً في هذا الموضع أن أقول أن الولايات المتحدة الامريكية كانت في ذلك الوقت على علم بالخيارات المطروحة لاجراء لقاء مباشر بين السادات وبيجين ، ولكن أحلامها لم تصل الى تصور أن القرار الذي يختمر هذه الساعات

كان يتعدى كل تلك الخيارات ويتجاوزها كلها بكثير !

□

ثم جاءت جلسة مجلس الشعب المصري التي اعلن فيها الرئيس السادات اقتراحه باستعداده للسفر الى القدس المحتلة والتوجه بالخطاب الى اعضاء الكنيست الاسرائيلي .

وهنا تتضارب الروايات بالنسبة لنقطتين :

أولاهما ـ هل كان الاقتراح قد اختمر تماماً وتحول الى قرار قبل أن يقف الرئيس السادات على منبر مجلس الشعب ، أو أن الاقتراح كان ما زال بعد خاطراً ملحاً . . . تحول من خميرة الى خاطر ؟

وثانيهما ـ سواء كان الاقتراح في مرحلة القرار أو الخاطر ـ فهل كان الرئيس السادات ينوي تفجيره تلك الليلة عن قصد مقصود ، أو أن الاقتراح تسرب من العقل الباطن الى اللسان في زحمة المشاعر والانفعالات أثناء الخطاب ؟

هناك من يرجحون الاحتمال الأول في كل من النقطتين ، أي أن الاقتراح كان قد اختمر تماماً وأن تفجيره تلك الليلة من فوق منبر مجلس الشعب كان قصداً مقصوداً .

ولكن هناك من يرجحون الاحتمال الثاني في كل من النقطتين ، وهي أن الاقتراح كان بعد في مرحلة الخاطر وأن تسربه تلك الليلة لم يكن قصداً مقصوداً ، وحجة الذين يرجحون هذا الاحتمال شواهد محددة :

- بين هذه الشواهد ان الرئيس السادات ألح على السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أن يحضر جلسة مجلس الشعب تلك الليلة لدرجة أن ياسر عرفات ذهب وعاد بطائرة خاصة الى ليبيا في اربع وعشرين ساعة لكي يتمكن من حضور جلسة مجلس الشعب . ولو كان الرئيس السادات يقصد الى تفجير

اقتراحه تلك الليلة ماكان ألح على ياسر عرفات في حضور الجلسة حتى لا يحرجه ولو حتى من الناحية الانسانية فضلاً عن الناحية السياسية .

- وبين هذه الشواهد أن مؤتمراً لوزراء خارجية الدول العربية كان على وشك أن ينعقد في تونس بعد أيام ، ومن المتصور أن مثل هذا الاقتراح في ذلك الوقت سوف ينزل على المؤتمر كالصاعقة ، ومن المؤكد أنه سوف يحدث ردود فعل عربية سلبية ، ومن الخير للاقتراح ولفرص نجاحه أن يجيء بعيداً عن توقيت أي لقاء عربي واسع حتى تفوت فرصة حدوث رد فعل جماعي معاد له من الدقيقة الأولى !

- وبين هذه الشواهد أن الرئيس السادات حين نزل من منبر مجلس الشعب لم ينتظر حتى يسمع قلق معاونيه ، ولكنه بادر فطلب توجيه الصحف المصرية الى عدم ابراز المقطع الذي ورد فيه اقتراحه باستعداده للذهاب الى الكنيست في سياق خطابه ، وحدث ذلك بالفعل وتولت جهتان رسميتان على الأقل ابلاغ المشرفين على توجيه الصحف فحوى طلب الرئيس السادات .

وأكثر من ذلك وصلت احدى هذه الجهات الرسمية الى كتابة تعليقات تنشرها الصحف ، والهدف من هذه التعليقات امتصاص الأثر الذي يمكن أن يحدثه الاقتراح الذي انفجر ، وبين هذه التعليقات « أن الرئيس السادات مستعد للذهاب الى القدس على شرط أن تستجيب اسرائيل مسبقاً لكامل المطالب العربية وأهمها الانسحاب واقامة الدولة الفلسطينية » .

□

ولم تمض الا ساعات على تفجير ذلك الاقتراح حتى كان اعلان الاستعداد للسفر الى القدس المحتلة دوياً تتجاوب أصداؤه في كل أرجاء الأرض ومن ثم اكتسب هذا الاقتراح قوة حركة ذاتية خارجة عن كل الارادات ، خصوصاً في عصر سيطرت فيه وحكمت وسائل الاعلام المرئية والمسموعة واختلطت فيه الحدود بين التحرك وبين الفعل السياسي . . . أي أن وسائل الاعلام الحديثة ملكت القدرة على الايحاء بوجود تحرك ولكن الفعل السياسي ظل قضية أخرى مع التسليم بأن

الايحاءات الاعلامية تستطيع فرض قدر من الضغوط لا يمكن الاستهانة به .

ويمكن أن يقال بغير مبالغة أن التليفزيون الامريكي لعب دوراً حاسماً في فتح طريق القدس وأسباب ذلك يمكن فهمها بالطبع وردها الى دواعيها الحقيقية، وتطايرت الاسئلة والأجوبة أمام العدسات وتحت الأضواء .

سؤال : هل صحيح أنك مستعد للذهاب الى اسرائيل ؟

جـواب : نعـم . . . لقد أعلنت ذلك .

سؤال : متـى ؟

جـواب : عندما أتلقى دعوة رسمية . . . انني حتى الآن لم أتلـق دعـوة رسمية .

ومن عدة عواصم في العالم طارت الرسائل الى مناحم بيجين تسأله : ماذا تنتظر ؟ هذه هي الاشارة التي كنا نتوقعها جميعاً . وكان بيجين لا يصـدق ، كان أميل ـ كما قال ـ الى اعتبار الاعلان عن الاستعداد للزيارة محاولة ضغط مباشرة تدعوه الى الاستجابة للمطالب العربية ـ الانسحاب والدولة الفلسطينية ـ ولكي يريح نفسه ويريح آخرين فقد أعلن موقفه وهو يتلخص في نقطتين :

- الأولى أنه يرحب بالزيارة ترحيبـاً حاراً وقلبيـاً .

- والثانية أنه لكي تكون الأمور واضحة فانه يريد تحديد شروط اسرائيل مسبقـاً حتى لا يكون هناك مجال للوم بعد ذلك وهذه الشروط هي :

أن اسرائيل لن تنسحب الى ما وراء خطوط سنة ١٩٦٧ ، وأن اسرائيل لن تتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وأن اسرائيل لن تقبل بقيام دولة فلسطينية .

لكن أحداً لم يلتفت الى ما قال . . . فقد كان الضجيج العالمي صاخباً . . . أكثر صخباً من دق أبواب الصين والثلاثين ساعة التـي قضاهـا كيسنجـر في بكين

وهدمت الحاجز النفسي بين الشعب الامريكي وبين الشعب الصيني !

□

وساد في كل الآفاق جو أسطوري من نوع ما ساد بالفعل اثناء نزول الانسان على القمر ، وفي زحمة المهرجان لم يسأل الكثيرون أنفسهم ذلك السؤال المزعج : وماذا بعد ؟

حتى النزول على القمر لم يغير شيئاً في حياة الرواد الأول . . . أيام وأسابيع وشهور وهدأت الضجة وعاد الرواد الى مشاكل كل يوم على الأرض وهي مشاكل لا علاقة لها بكل ما جرى على القمر .

وأتصور ـ على اية حال ـ ان هناك بعض من سألوا انفسهم : وماذا بعد ؟

● أتصور ـ مثلا ـ أن البعض في واشنطن تساءلوا وكان احساسهم مشوباً بالقلق . . . لقد فاجأهم الشكل النهائي لما حدث ، وعلى حد تعبير أحد مستشاري كارتر في حوار معي في القاهرة فان « طبيعة المشاكل التي تطرحها أزمة الشرق الأوسط تقتضي بحثها بغير أسلوب المواجهة المباشرة بين الأطراف ، ذلك لأن المشاكل معقدة ومتداخلة وأي خلاف في حالة المواجهة المباشرة يمكن أن يؤدي الى أزمة ، على العكس مما لو اتبع اسلوب المواجهة غير المباشرة » . ثم ان الرئيس كارتر كان يشعر بقلق لأن العملية على النحو الذي تمت به سوف تؤدي الى استبعاد دور سوريا والى تعقيد المشكلة الفلسطينية بأكثر مما هي معقدة .

لكن واشنطن كان عليها أن تكف عن تساؤلاتها وأن تلحق بسرعة بالمهرجان الكبير لأنها لا تستطيع أن تتخلف أو تتردد بعد أن ارتفع الستار عن أول المشاهد المثيرة فيه !

● وأتصور ـ مثلا ـ أن تل أبيب طرحت على نفسها ذات السؤال ، ولكن جوابها عنه كان يختلف عن جواب غيرها . . . كان جوابها : ليكن بعد ذلك ما يكون ، فالزيارة اذا تمت سوف تكون في حد ذاتها أبعد أثراً من أي شيء يلحق بها . . . انها وحدها تعطي اسرائيل معظم ما تطلبه ان لم يكن كله : الاعتراف ، وتطبيع

العلاقات ، والمفاوضات المباشرة ، وفرصة الانفراد بمصر وحدها ، الى آخره .

والغريب أن مناحم بيجين لم يكن حتى هذه اللحظة قد تغلب على الشكوك التي دفعته الى تردد اللحظات الأولى عقب انفجار اقتراح الذهاب الى القدس .

تصور ـ وربما كان هناك من صور له ـ أن الطائرة سوف تنزل في مطار بن جوريون وينطلق منها سيل من رصاص المدافع الرشاشة يحصد كل زعماء اسرائيل وقياداتها الواقفين في الانتظار . . . غارة عنتيبي بالعكس .

ثم قرروا أن يضعوا جهازاً اليكترونيا يستطيع تحليل موجات الصوت بحيث يلتقط كل كلمة يقولها الرئيس السادات في اسرائيل ويقوم بالنفاذ الى اعماق الانفعالات التي تعكس نفسها في موجات وذبذبات الصوت طولا وعرضاً حتى يمكن لهم أن يضعوا نواياه الحقيقية تحت فحص ميكروسكوبي .

ويبلغ الأمر الى حد اجراء تمويه على الطائرات من طراز « كفير » التي تقرر خروجها لاستقبال وتوديع الطائرة المصرية الذاهبة الى القدس والعائدة منها مخافة أن تلتقط لها صورة من الطائرة المصرية تكشف بعض ما يلزم اخفاؤه من أسرارها .

● ثم نصل الى القاهرة :

هل راودها مثل هذا السؤال كما راود غيرها ؟
أظن أن القاهرة لم يكن لديها الوقت لتتساءل : وماذا بعد ؟

لقد كان نهارها شديد الزحام وليلها طويل السهر . وعلى أية حال فقد سادت الأجواء كلها قناعة لا أحد يعرف من أين جاءت أوما هو سندها . هذه القناعة هي أن الأزمة انتهت ووصلت بالفعل الى مرحلة الحل النهائي وأن السلام ينتظر عند أول منحنى للناصية القادمة على اليمين !

ثم ظهرت نظرية أن الحاجز النفسي في الصراع العربي الاسرائيلي يشكل سبعين في المائة من المشكلة ، واذا كان ذلك . . . اذن فان الزيارة في حد ذاتها سوف

تهدم هذا الحاجز ، وبذلك يتبقى ثلاثين في المائة من الموضوع ، وهذه سوف يتكفل الضغط العالمي الذي ولدته الزيارة بأن يجرفها ويزيحها عن الطريق لينفتح واسعاً أمام عرائس السلام .

هو التفاهم الكبير في القرن العشرين .

وكان هذا بالضبط هو سوء التفاهم الكبير في القرن العشرين !

. . . .
. . . .

هكـــذا كانـــت « المداخـــل » !

حديث المبادرة ٣

الخلفية العميقة للصورة المثيرة!

قمت أخيراً بجولة عربية قصرتها على منطقة الخليج .

كان هدفي من القيام بجولة عربية في هذه الظروف بالذات أن أرى وأسمع وأشعر برد الفعل العربي تجاه التطورات الاخيرة وبالذات هذا الحدث الذي اصطلحوا على تسميته بمبادرة السلام .

وكان ما دعاني الى قصر الجولة على منطقة الخليج هو أنها منطقة مأمونة من وجهة النظر السياسية المصرية وبالتالي فان ذهابي اليها في هذه الظروف الحافلة بالتوتر لا يمكن اعتباره في القاهرة احدى الكبائر كما لو كنت مثلا قد ذهبت الى بغداد أو دمشق أو حتى بيروت ، ومع ذلك لم أسلم من احتجاجات السفارات المصرية حيث ذهبت على الطريقة الكريمة التي استقبلت بها وعلى نشر مقابلاتي وتصريحاتي في الصحف والاذاعة والتليفزيون . وكان ذلك في تقديري شيئاً غريباً في الوقت الذي استقبل فيه عشرات من الصحفيين الاسرائيليين في القاهرة كالأبطال وحفلت الصحف والاذاعات وقنوات التليفزيون بأخبار مقابلاتهم وتصريحاتهم . . . تلك على أية حال قصة أخرى !

أعود الى موضوعي الأصلي .

كنت أقول انني قمت اخيراً بجولة عربية وكان السؤال الذي سمعته أكثر من غيره حيث ذهبت هو :

ـ أين مصر ؟ وماذا حدث للشعب المصري ؟ وكيف قبل الناس هناك بهذا كله ؟ وما الذي جرى ؟ وكيف جرى ؟ ولماذا جرى ؟

وكان ردي في كل الاحوال :

ـ مصر بخيـر . . . وشعبها كما عهدتموه دائماً . . .

ثم كنـت أضيـف :

ـ وأما فيما يتعلق بقبول الناس لكل هذا الذي جرى فأرجوكم أن تعرفوا أنهم قبلوه ، وقبلوه عن رضا وطيب خاطر ، بل انهم تحمسوا له . . . على الأقل تحمست له أغلبية لا شك فيها ، وهذه هي المسألة التي يتعين عليكم أن تفكروا فيها طويلاً وتردوها الى اسبابها الحقيقية اذا كان يهمكم دور مصر ، وأنا شخصياً لا أتصور الا أنه يهمكم .

ثم كنت أشرح الأسباب لمن كنت أتصور أنه يعنيهم سماعها ، وأشهد أنهم كثيرون جداً ، لأن مكان ومكانة مصر في الأمة العربية لا يمكن تعويضهـــا .

□□□

كنـت أقـول لهـم :

ـ أريدكم قبل أي شيء ـ وكمقدمة لأي كلام ـ أن تطمئنوا على عروبة مصر ، وثقوا أنني لا أقول لكم ذلك فرط حماسة لقناعة أؤمـن بها وبالتالي فاني أعمم خالطاً بين الواقع والتمني ، بل أقوله لأن الأقدار التاريخية للشعوب ليست تقلبات مزاج يرضى ويغضب بالهوى ، وانما الأقدار التاريخية للشعوب هي نتائج مباشرة للجغرافيا والتـاريخ ومـا يصنعـه الاثنـان بمنطقـة معينـة من العالـم من صلات وتفاعـلات وضرورات أمن ومقتضيات مصلحة ، وهكذا فان الاختيار العربي لمصر لم يكن قرارا اتخذه جمال عبد الناصر وبالتالي فهو اختيار يمكن العدول عنه . . .

القول بمثل ذلك خلط ، فحتى القيادات العظيمـة للتـاريخ لا تملك اختيار أقدار بأصدار قرار ، وانما ميزة القائد التاريخي هي مقدرته على الاتصال بالحقائق التاريخية وقابليته للتعبير عنها فكرة وحركة .

وهكذا فان تصور خروج مصر عن عروبتها يوازي تماماً تصور خروج مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها وعن خلاصة تراثها الانساني والحضاري وعن ضرورات أمنها ومقتضيات مصلحتها .

هل ذلك محتمل ؟ . . . أو هل هو ممكن ؟ . . .

واذن ـ قد يتساءل بعضكم ـ ما هذا الذي تترامى الينا أصداؤه مما يقال الآن في مصـــر ؟

وبدون أن أدخل في تفاصيل لا لزوم لها ، فاني أقول لكم :

ـ تجاوزوا عن بعض ما تسمعون الآن منسوباً الى مصر . . . ضعوا الحقائق الثابتة والمؤكدة وحدها أمام عيونكم ، واتخذوها دون غيرها دليلاً ومرشداً ، وحينئذ يستبين أمامكم وينكشف ما هو أصيل وما هو دخيل .

ثم كنت استطرد :

ـ لكي أكون أميناً معكم فاني لا أقول لكم ذلك وأسكت بعده وانما أجد لزاماً عليّ أن ألفت نظركم الى أن هناك بجانب الحقائق الثابتة والمؤكدة ـ مؤثرات طارئة وعارضة .

ان هذه المؤثرات الطارئة والعارضة لا تستطيع يقينا الغاء الحقائق أو انكار وجودها ، ولكننا يجب أن نسلم أن هذه المؤثرات تستطيع احياناً ـ ولو لبعض الوقت ـ أن تحجب وتغطي وتحول دون الرؤية الصحيحة أو الرؤية الكاملة للحقائق .

وهنا أستأذنكم أن اتكلم بصراحة أكثر متمنياً أن لا أتجاوز بها الحد أو القصد ، ذلك أن بعض ما سوف أقوله يحمل شيئاً من العتاب عليكم !

أريد أن أقول لكم : ان كل فرد في هذه الامة العربية يحب مصر ، فهي

ليست مصرنا وحدنا وانما هي مصرهم جميعا ، ولكني أتساءل ما اذا كان كل فرد في هذه الأمة يفهم مصر بقدر ما يحبها . . .

أكاد أقول أن الكل يحبونها ولكن ليس الكل يفهمونها . . . وأن تحب انسانا فقد يكفيك النظر اليه ، وأما أن تفهمه فانه يقتضيك أن تضع نفسك في مكانه وفي ظروفه وأن تعيش مشاعره ومشاكله .

والذين أحبوا مصر كثيرون ، نظروا الى دورها وطالعوا ثقافتها وشاهدوا ما أبدعت من خلق وفن .

لكن الذين فهموا مصر أقل أكيدا من الذين أحبوها .

أن افلام السينما المصرية على سبيل المثال ليست مفتاحاً لفهم مصر الا بمقدار ما نستطيع أن نفهم الولايات المتحدة عن طريق السينما الأمريكية ، وبالقطع فان افلام رعاة البقر والجنس والجريمة ليست هي التعبير الصحيح عن أقوى المجتمعات في عصرنا .

وكذلك فان الطريق الى فهم مصر لا يمر بأبهاء فنادق القاهرة الكبرى أو مغاني هذه العاصمة الكبيرة وملاهيها .

وأسأل : كم من أبناء أمتنا العربية عاشوا حياة أسرة مصرية عادية ؟ كم منهم يعرفون ريف مصر ؟ كم منهم يعرفون قضايا العمل والبناء الاقتصادي المصري ؟ كم منهم يعرفون مشاكل التحول الاجتماعي ؟ بل كم منهم يعرفون خصائص الشخصية المصرية مع العلم أن حقيقة وحدة الأمة لا تنفي حقيقة التنوع في خصائص شعوبها ؟

ان عدم الفهم لم يخلق سوء الفهم فحسب ولكن خلق ما هو أخطر . . . خلق مآزق تاريخية من نوع ما نعيش فيه الآن ، واسمحوا لي أن أضرب مثالاً .

في تجربة جمال عبد الناصر مثلاً فان استقراء الواقع أملي على مصر مجموعة

اختيارات اجتماعية وسياسية ودولية .

في الداخل كان الاختيار طريقاً عربياً الى نوع من الاشتراكية ، ولست أعرف أي خيار آخر كان يمكن أن يكون متاحاً لبلد كان متوسط الدخل القومي للفرد فيه حوالي ٤٧ جنيها في بداية التجربة ، فاذا تذكرنا التفاوتات البشعة في توزيع الدخول وقتها ادركنا حجم المشكلة الاجتماعية بعد المشكلة الاقتصادية .

وترتب على ذلك خط معين في التنمية الشاملة استطاع على سبيل المثال فيما بين سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦٦ أن يعطي زيادة سنوية في الدخل القومي بمعدل ٦,٧ في المائة طبقاً لتقرير البنك الدولي بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦ ، وهي نسبة لم يكن لها مثيل في العالم النامي كله - فاذا وضعنا هذه الزيادة أمام مشهد التحولات الاجتماعية الضخمة التي عاشتها مصر في الستينات لرأينا صورة عظيمة لشعب يبني حياته من جديد بعمله وجهده . خصوصا اذا ذكرنا أنه في تلك الظروف لم تكن مصر تطلب من أمتها العربية عونا ولا كانت تلك الأمة - بصراحة - قادرة على مد يد العون الى مصر ، بل ربما كان العكس هو الصحيح .

ولقد امتزجت التجربة الداخلية المصرية مع مطالب الأمن العربي الشامل فأملت على مصر في ذلك الوقت سياسة خارجية معينة اختارت طريقاً مستقلاً لا منحازاً في المجال الدولي وتمكنت من بناء توازن اقليمي وعالمي استطاع تمكين مصر من قيادة قوى الدفاع عن المصير العربي ، وانتصرت احيانا - كما حدث سنة ١٩٥٦ - ولم تنتصر أحياناً - كما حدث سنة ١٩٦٧ - وكان معيار أصالة الالتزام المصري أنه في النصر لم يتكبر وفي غير النصر لم يتخاذل ، وانما راح يحشد جهده ويعبىء قواه ويواصل مسيرته .

ماذا رأينا في تلك الفترة - هنا في عالمنا العربي - من جانب الذين لم يفهموا مصر ؟

- لم يفهموا - مثلا - دواعي الاختيار الاشتراكي في مصر فركزوا ضده - نسوا أنه ليس هناك أمام مصر طريق غير طريق التنمية الاجتماعية الاقتصادية الشاملة .

- لم يفهموا ـ مثلا ـ دواعي خياراتها الدولية ـ بما في ذلك صداقة متكافئة اقامتها مع الاتحاد السوفيتي ـ وخلطوا بين الصداقة مع الاتحاد السوفيتي وبين الشيوعية الدولية ـ نسوا أن الخطر السابق في تلك المرحلة كان هو الاستعمار العالمي وأن الشيوعية الدولية هي الخطر اللاحق ، والسابق أولى بالتصدي واللاحق سوف يجيء دوره ، ثم ان تحديد الأولويات بحزم هو أول الضرورات في ادارة الصراعات .

- لم يفهموا ـ مثلا ـ مبرر طلب مصر للسلاح السوفيتي ، واصبح اخراج السلاح السوفيتي من المنطقة هدفا ملحا يتقدم غيره من الاهداف اطلاقا ـ نسوا أن السلاح السوفيتي هو السلاح الوحيد الذي نستطيع به محاربة التوسع الصهيوني لأن الغرب ـ وهو مورد السلاح الوحيد لاسرائيل ـ لا يستطيع ان يكون في نفس الوقت مورد السلاح الوحيد للعرب ، واذا حدثت المعجزة فمعنى ذلك أن الغرب سوف يكون وحده الحكم على حدود الصراع العربي الاسرائيلي ، بل سوف يكون وحده الحاكم وليس مجرد الحكم .

هكذا فان الحرب التي وجهت الى التجربة الناصرية كلها من داخل العالم العربي ومن جانب الذين لم يفهموا مصر فيه ـ خلطت بين الأسباب المتعددة للاختيارات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية لكل شعب عربي ولم تحسن تقدير الدواعي المعقدة للاختيارات الخارجية الاقليمية والدولية وما ترتب على هذه الاختيارات في كل ميدان ومجال خصوصا في ترتيب الأولويات والفرز بين ما هو ملح فيها وبين ما هو مؤجل .

وتتداعى من هنا أسئلة :

أليس أن استبعاد الخيار الاشتراكي يفتح الباب لبعض ما نرى في مصر باسم الانفتاح الاقتصادي ؟

أليس أن استبعاد التوازن الدولي في المنطقة يؤدي الى بعض ما نرى في المنطقة الآن كمسرح مستباح للنفوذ الامريكي ؟

أليس أن استبعاد السلاح السوفيتي من المنطقة يؤدي الى بعض ما نرى اليوم من استبعاد السلاح أساسا كعنصر من عناصر الحل لما نسميه ازمة الشرق الاوسط ؟

ثم وهذا هو الأهم في موضوعي اليوم .

ـ اليس أن ضرب تجربة بكاملها ـ أو محاولة ضربها ـ لا يقتصر ضرره على بعض المقصود ضربه وانما يمتد الضرر من الجزء الى الكل ؟

وبعبـــارة أصرح

أليس أن هذا كله يمكن أن يصيب ضمن ما يصيب التزام مصر العربي ، وقد كان تأكيده وترسيخه جزءاً أساسياً من مجمل التجربة الناصرية ، مع العلم بأنها ـ شأنها شأن أي تجربة غيرها ـ عرضة للصواب والخطأ وعرضة للنقد والتوجيه ولكن من موضع الفهم وليس من موضع العداء .

واذن أي غرابة أن تسمعوا الآن بعض ما تصل اليكم اصداؤه من مصر محاولة من البعض أن يشككوا في عروبتها ؟

ومع ذلك أقول لكم : اطمئنوا على عروبة مصر فان عروبتها لم تكن قرارا اتخذه جمال عبد الناصر أو غيره لأن الاقدار التاريخية للشعوب لا يمكن أن يصنعها أو يقطعها قرار : انها الجغرافيا والتاريخ منذ الأبد والى الأزل وهي صلات وتفاعلات قرون وهي ضرورات أمن ومقتضيات مصلحة .

□

والآن وبعد هذه المقدمة وقد طالت ، وبعد هذا العتاب ولعله لم يتجاوز الحد والقصد ، أحاول معكم مواجهة بعض تساؤلاتكم .

ان بعضكم يتساءل ـ وهو معذور في تساؤله ـ ما الذي جرى ؟ وكيف جرى ؟ ولماذا جرى ؟

وهل يعقل أن تختلف الأمور على هذا النحو من الشيء الى نقيض الشيء في

ساعات معدودات خصوصاً وأن الأمر يتصل باستراتيجيات عليا لشعوب ، وبانتاءات وولاءات تحملت مسئوليتها اجيال بعد اجيال ، وبنظريات أمن ، ومصالح ومواقف الى آخره ؟ . . . .

انني بالطبع فيا سوف أجيب به أو أحاول ـ اقتصر في حديثي على الشعب المصري ، فهو الذي يهمني بالدرجة الأولى رصد ودراسة الأفعال وردود الأفعال لديه وهو الذي يعنيني شرح وتفسير تحركاته واتجاهات هذه التحركات .

. . . .

. . . .

ثم كنت أقول :

هناك في ظني ثلاث مجموعات من الأسباب :

- الأولى منها مجموعة أسباب قديمة ونستطيع ردها جميعاً الى اخطاء في الفكر والفعل السياسي المصري ـ والعربي ـ خلال الثلاثين سنة الأخيرة وربما أكثر وأبعد .

- والثانية منها مجموعة أسباب جديدة مرجعها ومردها جميعا الى طول الصراع والى ملابسات ومضاعفات اخرى عربية ودولية زادت من تكاليفه وأثقلت وطأته .

- والثالثة والأخيرة منها مجموعة أسباب طارئة وهي تتمثل في الجو النفسي الذي احاط بالتطورات الاخيرة وصنع ما يشبه الانفصام بين ما كان قبلها وما جاء بعدها .

□

وكنت أقول :

ـ سوف أبدأ بمجموعة الأسباب القديمة . . . أخطاء الفكر والفعل السياسي

المصري خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، واعدها على النحو التالي :

أولا ـ أن الفكر والفعل السياسي في مصر قدم قضية فلسطين الى الشعب المصري باعتبارها قضية تضامن مع شعب شقيق في محنة دهمته ، ولم يكن ذلك دقيقاً . فالحقيقة أن الغزوة الصهيونية كانت موجهة الى مصر قبل فلسطين . ان القوى الدولية الطامعة في ارث الخلافة العثمانية والراغبة في السيطرة على الشرق ادركت منذ بداية القرن التاسع عشر أن مصر هي القوة المحلية الوحيدة القادرة في المستقبل المرئي على توحيد الأمة العربية وعلى تحدي المطامع المرسومة للمنطقة بعد تحلل الدولة العثمانية وانهيارها .

ان هذه القوى الدولية الطامعة قابلت الخطر الذي تحسبت له فعلا عندما ظهرت دولة محمد علي في مصر وحينما استطاع الجيش المصري بقيادة ابنه ابراهيم باشا ان يصل الى الشام ليلتقي هناك بالاحلام العظيمة في قيام دولة عربية كبرى في المشرق . ان القوى الأوروبية ـ وبريطانيا في مقدمتها ـ ادركت لحظتها ان اتصال عرب مصر بعرب الشام والجزيرة يستطيع توليد شحنة هائلة من الطاقة كفيلة بتغيير اوضاع المنطقة التي كانت جاهزة للتقسيم غنائم وجوائز للأقوياء الطامعين .

ان القوى الأوروبية كما تذكرون حاصرت محمد علي وضيقت الخناق عليه ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة سنة ١٨٤٠ وهدفها ابعاد مصر نهائيا عن المشرق العربي . وكان الأمر يحتاج بجانب معاهدة سنة ١٨٤٠ الى ما نسميه اليوم « اجراءات امن اضافية » ، وتقدم البارون روتشيلد عميد البيت المالي اليهودي العتيد الى اللورد « بالمرستون » رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت يعرض عليه فكرة تمكين اليهود من الهجرة الى فلسطين واقامة نطاق من المستوطنات فيها يكون بمثابة حائط يحجز او على الأقل يعطل اي حركة من مصر الى المشرق أو اي حركة من المشرق الى مصر .

والمراسلات التي دارت بين « بالمرستون » و « روتشيلد » موجودة في الوثائق الرسمية البريطانية وهي ليست سرا لمن يريد الاطلاع عليها ، واظن ان مراجعة بعضها مفيد في هذه الظروف ، وتكفي سطور من خطاب بعث به روتشيلد الى

رئيس الوزراء البريطاني في شهر مارس سنة ١٨٤١ وفيه يقول :

« ان هزيمة محمد علي وحصر نفوذه في مصر ليست كافية لأن هناك قوة جذب متبادلة بين العرب وهم يدركون أن عودة مجدهم القديم مرهونة بامكانيات اتصالهم واتحادهم . اننا لو نظرنا الى خريطة هذه البقعة من الأرض فسوف نجد أن فلسطين هي الجسر الذي يوصل بين مصر وبين بقية العرب في آسيا . وكانت فلسطين دائما هي بوابة من الشرق . والحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر وفي هذه البوابة لتكون هذه القوة بمثابة حاجز يمنع الخطر العربي ويحول دونه . والهجرة اليهودية الى فلسطين تستطيع ان تقوم بهذا الدور ، وليست تلك خدمة لليهود يعودون بها الى أرض الميعاد مصداقا للعهد القديم فقط ولكنها أيضا خدمة للامبراطورية البريطانية ومخططاتها ، فليس مما يخدم الامبراطورية ان تتكرر تجربة محمد علي سواء بقيام دولة قوية في مصر أو بقيام اتصال بين مصر والعرب الآخرين » .

ولست أريد أن أضيع سياق حديثي في وثائق التاريخ ولكن يكفي ان نتذكر ان الهجرة اليهودية الأولى الى فلسطين في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تمت نتيجة لمراسلات بالمرستون وروتشيلد واتفاقهما معا ، وكانت الافكار التي عبر الاثنان عنها في ذلك الوقت من القرن التاسع عشر هي نفسها الأفكار التي ترددت بعد ذلك في جلسات مجلس الوزراء البريطاني التي نوقش فيها وعد بلفور سنة ١٩١٧ .

لقد كانت للصهيونية اساطيرها واحلامها في فلسطين ولكن القوة الاستعمارية هي التي ساندت هذه الأساطير والاحلام وهي التي اعطتها فرصة التحقيق . كانت أرض فلسطين هي الجسر بين عرب افريقيا وعرب آسيا . . . وكان يراد لأرض فلسطين أن تتحول الى حاجز يمنع مصر ويصد الشام والجزيرة ويوقف ويضرب عند اللزوم قوة الجذب المتبادل بين العرب هناك وهنا .

لكننا في مصر ركزنا على جزء من الحقيقة واغفلنا اجزاء وبدا مما ركزنا عليه اننا طرف في الصراع بحكم التضامن مع غيرنا وليس بحكم الدفاع عن أنفسنا .

وكان هذا اول الأخطـــاء .

□

ثانيـــا ـ أن الفكر والفعل السياسي المصري ـ خصوصاً في عصر جمال عبـد الناصر ـ قدما انتماء مصر العربي باعتباره حقيقة مسلما بها ، ومع أنها حقيقة يجب التسليم بها فان هذا التسليم كان يحتاج الى دعم وترسيخ عن طريق المناقشة الحرة والمفتوحة حتى وان كان الشك بدايتها . ولا بد أن نتفق معا على ان مصر هي الكيان العربي الوحيد الذي يملك لظروف تاريخية عديدة امكانية الادعاء بوجود أمة ـ وليس مجرد دولة ـ مستقلة ومنفصلة ، ومن هنا فان انتماء مصر الى الأمة العربية كان يحتاج الى جهد أكبر وأوسع والا ظلت دعاوي الاستقلال والانفصال تطل برأسها اذا ما اتيحت لها ظروف شك أو أتيح لها أن تجد من القوى المتربصـة من تذكي نزعـات الاستقلال والانفصال ولمقاصدها وليس لمقاصد مصر .

كان يجب أن ندرك أنـه حتـى الحقائـق تحتـاج الى تأصيل يمـد جذورهـا في الأرض ، ذلك لأنه بغير جذور قوية ضاربة في اعماق الأرض فان فروع الشجـرة حتى وان أزهرت واثمرت تصبح تحت رحمة الرياح والزوابع .

وكـــان هذا ثاني الاخطـــاء .

□

ثالثـا ـ ان الفكر والفعل السياسي المصري ـ والعربي أيضا ـ لم يتمكنا خلال الثلاثين سنة الأخيرة من وضع استراتيجية عامة وشاملة ومستمرة لادارة الصراع ضد الحاجز الغريب الذي تمكن من الجسر الفلسطيني الذي هو في نفس الوقت بوابـة المشرق الى مصر وبوابة مصر الى المشرق . ولم يكن هذا الحاجز الغريب على الجسر وعند البوابة قد اقتصر على مجرد مستعمرات استيطان يهودية وانما تحول هذا الحاجز الى رأس جسر مسلحٍ لم يعزل ويحجز فقط وانما راح يستنزف القوى ويرهق الوجود العربي كله .

وفي غيبة استراتيجية عامة وشاملة ومستمرة فان اعباء الصراع لم تتوزع على اصحابه بالعدل وانما وقع النصيب الأكبر منهـا بالطبيعـة على الأقرب الى خطـوط الاحتكاك والصدام .

تحمل الشعب الفلسطيني اقسى الأعباء ، وتحمل الشعب المصري والشعب السوري اكبرها كل بحجمه ، ولما كان الشعب المصري أكبر حجما فقد كان نصيبه أظهر ولا أقول أثقل .

وبرغم هذه الأسباب من قصور الفكر والفعل السياسي المصري ـ والعربي ـ فان الشعب المصري كان بحسه الصافي يفهم باكثر مما يقال له وكان يندفع الى ابعد مما يطلب منه .

□

ثـم كنـت أقـول :

ـ سوف أنتقل الآن الى المجموعة الثانية من الأسباب ومرجعها ومردها جميعا الى طول الصراع والى ملابسات ومضاعفات اخرى عربية ودولية زادت من تكاليفه واثقلت وطأته ـ وأعدها بدورها على النحو التالي :

أولا ـ ان القوة الاسرائيلية زادت بما تلقته وتتلقاه من دعم غير محدود ، ومع زيادة القوة الاسرائيلية ـ وقد وصلت كما تعرفون الى نطاق السلاح النـووي ـ فان المسئولية اصبحت باهظة .

ولقد وجدت مصر نفسها تخوض خمسة حروب ـ اذا تذكرنا حربنا العظيمـة المنسية وهي حرب الاستنزاف ـ وفي بعض هذه الحروب ـ كحرب سنة ١٩٥٦ وحرب الاستنزاف ـ كانت مصر وحدها ، وفي بعضها الآخر كان معها جزء فقـط من قوة الامة العربية .

وأعتقد في غير ما تعصب أن مصر استطاعت في فترة تصـدرت فيهـا قيادة الصراع العربي أن تصـل الى ازاحـة الاستعمار من كل الأرض العـربية ثم انهـا استطاعت أن تهيىء الظروف التي مكنت من تحرير موارد وثروات الامة العربية ـ ولكن ذلك لم يقدر بما كان ينبغي ان يقدر به .

ان احدا لا ينكر ـ ولا يحق له ان ينكر ـ ان انتصار السويس هو الذي حمل

رياح التغيير الى الأرض العربية كلها . . . ولكن ذلك ما لبث أن نسي .

ومن ناحية اخرى فأنا أول من يسلم أن هزيمة سنة ١٩٦٧ صدمت أمتنا كلها ، ومع ذلك فلقد كان واجبا علينا جميعا أن لا نبالغ في اللوم وأن نتذكر أنها عثرة الصامدين في الميدان يقاتلون - ومهما كانت اخطاؤهم في الحساب فلقد حاولوا قدر ما استطاعوا وظلوا حتى والدماء تنزف من جروحهم رافضين للمساومة على الحق - وما كان اسهله - ومصممين على القتال - وما كان اصعبه .

وهكذا فانه ليس في التكاليف فقط ولكن في المشاعر ايضا أحس الشعب المصري - وله بعض الحق - أن ما يلقاه من أمته أقل مما كان ينتظره .

□

ثانيا - ولكي أكون منصفا فان دول المساندة قدمت لدول المواجهة - ومصر بينها - ما لا يمكن انكار اهميته من أسباب الدعم ، وكون أن مصر كانت تنتظر أكثر لا يعني انكار أهمية ما حصلت عليه فعلا ، وفي الحقيقة فان ما حصلت عليه مصر لم يكن لها بالمعنى الضيق وانما كان لمجمل حصيلة القوة العربية الشاملة وقدرتها .

لكننا هنا أيضا وقعنا في خطأ دفع الشعب المصري ثمنه ، ذلك الخطأ هو أن دول المساندة ودول المواجهة معا رأت ان تغطي الأرقام ولا تكشف تفاصيلها ، وكانت لذلك تعلات اعترف انني لا اجد لها داعيا . . . قيل بالحساسية تعلة . . . وقيل بعدم تشجيع الآخرين تعلة . . . وقيل بالحياء الطبيعي تعلة . . . وقيلت تعلات اخرى لا اظنها مقنعة .

والنتيجة ان الشعب المصري تحت ظن أن هؤلاء الذين اغتنوا من رفع اسعار البترول نتيجة لحربنا نحن في أكتوبر احتكروا لأنفسهم الذهب وتركوا لغيرهم التراب ، وليس ذلك صحيحا كما أعرف ، ولكن أصحاب الحق لا يعرفون .

والنتيجة أننا تركنا حملات التشكيك الموجهة الى الشعب المصري تحرضه على

أمته ـ كما حرضت من قبل أمته عليه !

□

ثالثا ـ ولم تكن حرب التشكيك التي وجهت الى الشعب المصري تستهدف تحريضه على امته فقط ولكن الحرب امتدت الى ما هو أبعد واعمق . . . نفذ التشكيك الى كل شيء . . .

الى قدرات الشعب المصري . . . الى انجازاته . . . حتى الى معاركه التي دفع فيها دماء اغلى الأبناء .

تجربة ثورة ٢٣ يوليو كلها تصور الآن وكأنها سنوات طويلة من القهر والظلم .

السد العالي وهو ملحمة يصور الآن وكأنه كارثة

حرب السويس وانتصارها الذي كان نقطة تحول في العالم العربي ، وفي قارات العالم الثلاث النامية ـ آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ـ تصور الآن وكأنها هزيمة ساحقة .

كان هناك من يتصورون انهم بهذا ومثله يهدمون تاريخ شخص ، وما دروا انهم قصدوا أو لم يقصدوا لن ينالوا من الشخص ، فقد أصبح دوره ملكا للتاريخ يحكم له أو يحكم عليه ، وانما الضرر سوف يقع على الشعب الذي هو مالك التاريخ وصانعه .

ومع ذلك دعوني أعبر أمامكم في صراحة عن شعور غامض أحس به أحيانا وربما أحس به غيري .

شعور بأن حملة التشكيك الموجهة الى الشعب المصري انما هي قصد مقصود يراد منه أن يهتز يقين الشعب المصري في كل شيء حتى في نفسه ، ليصل الى حالة من

الاحباط الشديد تورثه شعورا من اللامبالاة يجعله يقبل بما لا يمكن قبوله ويسكت عما لا يجوز السكوت عليه .

لكن الشعب المصري ـ ودعوني أؤكد لكم ـ اثبت بالواقعة بعد الواقعة وبالموقف بعد الموقف أنه أصلب مما تظن به الظنون وأنه اذكى من هؤلاء الذين يحاولون أن يسلبوه ثقته بمصيره وثقته بنفسه وأنه أقوى من أي شعور بالمرارة والاحباط .

□

وكنت أقول :

ـ والآن تجيء المجموعة الثالثة من الأسباب ، وهي أسباب طارئة تتمثل كما قلت في الجو النفسي الذي احاط بالتطورات الاخيرة ، وصنع ما يشبه الانفصام بين ما كان قبلها او ما جاء بعدها .

وهنا يطول الحديث . ذلك أن سرد الوقائع والحوادث هنا يجب أن يدور بأسلوب العرض السينمائي البطيء لكي تظهر الومضات والخلجات ولكي نتبين القسمات وما ارتسم عليها من تعبيرات .

ولعلي حين أستعير أسلوب السينما ـ العرض البطيء ـ لا أقحم على السياسة عنصرا غريبا على طبيعتها ، فالحقيقة أن بعضا مما رأينا في التطورات الاخيرة كان في كثير منه عدسات وميكروفونات واضواء والوان ، ولم تكن السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل السابقة بعيدة عن الواقع حين قالت : « لا أعرف اذا كان ما يحدث يستحق جائزة نوبل التي تمنح لجهود السلام العظيمة . . ولكني أعرف يقينا أنه يستحق جائزة الأوسكار التي تمنح لأفلام السينما الناجحة » !

حديث المبادرة ٤

ماذا حدث داخل مشاعر الشعب المصرى ؟

نصل الى تلك الأيام المثيرة من نوفمبر ١٩٧٧ .

تلك الأيام التي بدأت بالوقوف على منبر مجلس الشعب المصري وانتهت بالوقوف على منبر الكنيست الاسرائيلي . . . .

كيف عاشها الشعب المصري ؟ وماذا كانت أحاسيسه خلالها ؟ وعلى أي نحو تفاعلت مشاعره في أعماق أعماق وجدانه الانساني والسياسي ؟

أسئلة أعتقد أننا سوف نسمع عنها الكثير في مستقبل الأيام لأنها سوف تكون موضوعات لأبحاث ودراسات وتحاليل لا غنى عنها لمن يريد أن يفهم ويغوص في بواطن الأمور أكثر مما يعوم على سطحها .

ومن سوء الحظ أن الاسرائيليين على وشك أن يسبقونا في هذا المجال ، ففي الأيام الأولى من العام الجديد ١٩٧٨ وصل الى مصر فريق من أساتذة علم النفس اليهود وهدفهم اجراء دراسة لمجمل العوامل النفسية التي حكمت التصرف الجماعي المصري في الأسابيع الاخيرة من سنة ١٩٧٧ .

وكانت الأبواب مفتوحة أمامهم حيثما ذهبوا ، وكذلك كانت الأفواه ، والله وحده يعرف ما الذي وجدوه وسمعوه ، ثم سجلوه في أوراقهم وذهبوا به من حيث أتــوا .

وهذه على اية حال مسألة اخرى ، والمسائل الأخرى في هذه الحكاية كثيرة كما نرى ، وليس هناك ما نملكه حيالها غير الاشارة لها ثم تركها لمستقبل الايام .

□ □ □

نعود الى موضوع هذا الحديث : تلك الأيام المثيرة من نوفمبر ١٩٧٧ ، وكيف عاشها الشعب المصري ؟ وماذا كانت أحاسيسه خلالها ؟ وعلى أي نحـو تفاعلـت مشاعره حيالها ؟

لعلنا نتفق على أنه لا يمكن فهم أي حدث في عزلة عن المنـاخ الـذي جرى

تحته ، كما أنه لا يمكن ادراك أي تعبير بعيداً عن الاطار الذي تم فيه .

ان خلفية الصورة وراء الحركة البارزة على سطحها هي جزء لا يتجزأ من الانطباع العام الذي تنقله الصورة الى العين والعقل .

وهكذا فان تذكرة سريعة بالمناخ والاطار والخلفية التي جرت عليها وقائع تلك الأيام المثيرة من نوفمبر ١٩٧٧ تبدو ضرورية ولازمة .

وليست بنا حاجة الى الذهاب بعيدا للحصول على ما نريد . . . يكفينا ان نتذكر ما أشرنا اليه في حديث سبق عن مجموعات العوامل التاريخية القديمة والجديدة التي أثرت على رؤية الشعب المصري للصراع العربي الاسرائيلي : التصورات القاصرة لعروبة مصر . . . والطرح الخاطىء لجذور الصراع العربي الاسرائيلي وعلاقته بمصر ومصلحتها وأمنها . . . وطول النزاع . . . وفداحة تكاليفه . . . والاحساس بأن الجزء الأكبر من العبء وقع على كاهل الشعب المصري . . . وأخيراً حملة التشكيك المخيفة في كل التجربة المصرية الحديثة .

اذا تذكرنا ذلك كله نستطيع أن نفهم أن الأرض كانت ممهدة ، خصوصا اذا أضفنا اليه تأثيرات حالة التخبط التي سيقت اليها أزمة الشرق الاوسط . . . (جنيف أو لا جنيف . . ؟ ـ من القادر على حل الترياق من العراق ؟ ـ كيسنجر أو نيكسون أو فورد أو كارتر ؟ ـ جولدا مائير تعتزل واسحاق رابين يجيء ـ اسحاق رابين يسقط وشيمون بيريز في الطريق . . . شيمون بيريز لا يصل وبدلا منه وصل مناحم بيجين ـ ما هي رؤيتنا للمخاطر التي تحيط بنا ، اسرائيل اخطر أو الشيوعية الدولية ؟ ـ جهودنا المكثفة وأين هي مطلوبة ؟ في سيناء والضفة الغربية وغزة والقدس أو في زائير والقرن الافريقي وربما تشاد ، ومن يعرف ماذا أيضا ؟)

هكــــذا .

العوامل التاريخية القديمة والجديدة فعلت فعلها .

ثم اضيفت اليها التأثيرات الطارئة ، فلم تصبح الأرض ممهدة فحسب وانما ساد احساس غريب بالرغبة في الخلاص بأي ثمن من كل هذا العناء والاحباط والشعور بالاغتراب والضياع .

□ □ □

وفي هذا الجو المثقل والمشحون انفجر فجأة اقتراح السفر الى القدس المحتلة . وهنا نستعير من فنون السينما أسلوب العرض البطيء لكي تبين وتظهر كل القسمات والتعبيرات والخلجات والومضات .

نمشي بأسلوب العرض البطيء مشهدا بعد مشهد .

● المشهد الأول : كان رد الفعل التلقائي لدى الشعب المصري فور سماعه لاقتراح السفر الى القدس المحتلة ـ هو رد الفعل الغالب في العالم كله ، وهو : عدم التصديق .

هذه مثل سابقات لها مناورة سياسية ، وربما كانت هذه المرة اجرأ ولكن حدة اندفاعها لا تغير من طبيعتها .

وكان المنطق الذي أوحى بعدم التصديق هو القياس على المواقف الثابتة والمعروفة : لقد كان يقال أن المفاوضات المباشرة مستحيلة . . . وتطبيع العلاقات لن يحدث في هذا الجيل ـ فهل تستحيل المفاوضات المباشرة ويستحيل تطبيع العلاقات وفي نفس الوقت تتم زيارة للقدس على مستوى القمة ؟ وأليست هذه أعلى مرحلة من مراحل المفاوضات المباشرة وتطبيع العلاقات ؟

واذن فهي مناورة . . . أو هي حركة علاقات عامة تستهدف التأثير على الرأي العام الامريكي باحراج اسرائيل ، ذلك أن الشروط التي ستوضع لمثل هذه الزيارة سوف ترغم اسرائيل اما على الاستجابة واما على كشف نواياها بطريقة نهائية وقاطعة .

وكان مما ساعد على غلبة مثل هذه التصورات أن الصحف المصرية خرجت فعلا بايماءات مقصودة تقول بأن الزيارة بالطبع لا يمكن أن تتم الا بتعهد اسرائيلي واضح بقبول الانسحاب واقامة الدولة الفلسطينية .

ولم يكن في مقدور أحد وقتها ان يتصور أن مصدر هذه الايماءات كان في واد وسلطة القرار السياسي في واد آخر .

● المشهد الثاني : فجأة بدأ الاقتراح يأخذ قوة الحركة الذاتية وذلك عن طريق الأفعال وردود الأفعال المتبادلة خصوصا على مرأى ومسمع من العالم كله . . . ديبلوماسية التليفزيون .

بدأت الشكوك تذوب . . . ويحل محلها نوع من اليقين الغريب والقلق بأن الزيارة ربما تحدث .

ليست هناك شروط من جانب مصر .

وصحيح أن مناحم بيجين أعلن شروطا أكد فيها عدم استعداده لقبول الانسحاب من كل الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ وعدم استعداده لقبول انشاء دولة فلسطينية ـ الا ان ضجيج المهرجان اغرق كل الكلمات . . . اصوات الأشياء ابتلعت كل همهمات البشر ولم يعد مسموعا الا الصخب العالمي الذي تعلو طبقاته ثانية بعد اخرى .

كانت الأنفاس كلها محتبسة ومتقطعة ، والتساؤلات كالشرر المتطاير من اللهب .

« تتم الزيارة ؟ أو لا تتم ؟

الظاهر أنها ستتم . . . نعم مؤكد أنها ستتم . . . يا له من مشهد لا يصدق . . . حركة تبهر المشاهدين على وشك أن تبدأ ولكن كيف تنتهي ؟

وتعلقت الأنظار والأسماع كلها في الراديو والتليفزيون .

● المشهد الثالث : الطائرة القادمة من الاسماعيلية تهبط في مطار بن جوريون .

الصوت والصورة والظلال والأجواء منقولة من اسرائيل مباشرة ، وقادة اسرائيل واقفون في الانتظار المدنيون والعسكريون . . . مناحم بيجين . . جولدا مائير . . . اسحاق رابين . . . بيجال يادين . . . بيجال آللون . . . شيمون بيريز . . . آبا ايبان . . . أفراييم كاتزير وغيرهم . . . ثم العسكريون موشي ديان . . . آريل شارون . . . موردخاي جور . . . اسرائيل تال وغيرهم . . . .

وحدات من الجيش الاسرائيلي باعلامها في مقدمة طوابير المستقبلين ، وألوف من أفراد الشعب الاسرائيلي وراء طوابير المستقبلين .

هذه اذن اسرائيل . . . وهؤلاء قادتها . . . وهذه وحدات جيشها . . . وفي خلفية المشهد شعبها . . .

. . . .

. . . .

وهنا حدث شيء هام يستحق أن نتأمله بالتدقيق والتعميق .

ان طول صراعنا العنيف والدامي مع اسرائيل خلق في اعماقنا اهتماما ـ وربما فضولا مكبوتاً ـ حول كل ما يتصل بالعدو .

كانت أحواله تشغلنا ، وكان بعض قادته في حياتنا نوعا من الأشباح الغامضة .

ان تلك لم تكن ظاهرة تفردنا بها وحدنا دون بقية الشعوب والأمم ، وانما عرفها غيرنا كما عرفناها .

ان اهتمام الشعب البريطاني بـ « أدولف هتلر » كان ـ وما زال حتى الآن ـ واسعاً وعميقاً .

والكتب ما زالت تظهر في الولايات المتحدة الامريكية عن الاميرال الياباني « ياما موتو » الذي قاد الغارة اليابانية الصاعقة على ميناء « بيرل هاربور » .

بل ان بعضنا ربما يتذكر أن « الفيلد مارشال مونتجمري » حين ولي قيادة الجيش الثامن في العلمين كتب في أول تقرير له الى وزارة الحرب يقول :

« أنني أتلقى منذ توليت قيادتي توصيات من وزارة الحرب تنقلها اليّ هيئة اركان الحرب المشتركة تدعوني الى البدء فورا في القيام بعمليات هجومية ضد الفيلق الافريقي بقصد تصفية الوجود الألماني في شمال افريقيا .

انني أعتقد أن هناك اعمالا تمهيدية للهجوم يجب أن أحققها وبعضها في المجال النفسي .

انني أشعر أن شبح القائد الألماني الفيلد مارشال روميل يجوس في خيال قواتي وهذه مسألة خطيرة ، وأشعر أن عليّ حلها ، فلا يمكن أن أبدأ القتال الا اذا استطعت تخليص الجيش الثامن من شبح روميل .

ومثل هذا الذي دعا الشعب البريطاني الى الاهتمام بـ « هتلر » ، ودعا الامريكيين الى تأليف الكتب عن « ياما موتو » ، ودعا مونتجمري الى البدء بمطاردة شبح روميل ـ كان عندنا .

كان عندنا مثل ما عندهم : اهتمام وفضول مكبوت فيما يتعلق بالعدو وقياداته .

وهكذا فان زيارة اسرائيل التي أصبحت استعراضا لا نظير له في العالم أتاحت لجماهير الشعب المصري ـ عبر تكنولوجيا وسائل الاتصالات الحديثة ـ فرصة اكتشاف المجهول الاسرائيلي والتعرف مباشرة على أشباحه .

وهكذا التصق ملايين المصريين لساعات بعد ساعات الى أجهزة الراديو والتليفزيون وعيونهم مفتوحة على آخرها بالفضول المنبهر والمذهول .

●

● المشهد الرابع : ان عدم التصديق كما رأينا أفسح مكانه لنوع من الدهشة الصاعقة . . والدهشة الصاعقة كما لاحظنا تحولت الى فضول ثم الى اهتمام ثم الى استمتاع من نوع غريب باستعراض لم يسبق له مثيل في حياتنا السياسية سواء بالنسبة للموضوع أو بالنسبة للشكل .

ان ملايين المصريين ثانية بعد ثانية ، ودقيقة بعد دقيقة ، وساعة بعد ساعة ، وطوال أربعين ساعة ـ التصقوا باجهزة الراديو والتليفزيون يسمعون من خلالها ما يدور بآذانهم ويطلون عليه بعيونهم ، وعن طريق هذا الالتصاق الكامل وهذه المعايشة الوثيقة للحدث فقد تولد لديهم نوع من الاحساس بالمشاركة فيه .

انهم لم يعودوا مجرد متفرجين على مشهد غريب مثير ، وانما تحولوا ـ حتى رغم ارادتهم ـ الى مشاركين فيه ، ومن خلال هذا الاحساس بالمشاركة فان اية تحفظات كانت لهم قبل وقوع الحدث تاهت في خضم التأثيرات الجارفة وتبعثرت .

ان مثل ذلك الشعور يحدث لنا اذا شهدنا مسرحية أو فيلما محبوك التمثيل والاخراج . . . نغادر مقاعدنا بعد أن تضاء الأنوار في المسرح او السينما ونحن مأخوذون بالجو الدرامي للقصة ، ونظل لساعات وربما لأيام مأخوذين . . .

ولم يكن ذلك الذي سمعناه ورأيناه من خلال أجهزة الراديو والتليفزيون مجرد مسرحية أو فيلم عادي . . . لقد كان استعراضا حيا . . . بل انه بدا أكبر من الحياة نفسها !

●

● المشهد الخامس : وكانت الحماسة فياضة ومتدفقة أمام عيوننا في اسرائيل ، وكانت الحماسة فياضة ومتدفقة ملء آذاننا من العالم كله .

وهذا النوع من المشاعر الهستيرية شديد العدوى .

اننا حين نجد رجلا يستغرق على نفسه من الضحك ـ مثلا ـ لا نستطيع أن

تملك أنفسنا ، فنجد أننا نجاريه فيما يفعل ـ بالعدوى ـ حتى دون أن نعرف ما الذي اضحكه .

وكانت للحماسة الفياضة المتدفقة في اسرائيل أسبابها ، فقد بدت الزيارة بالنسبة لهم نهاية لسلسلة من المتاعب والمشاكل لم تتوقف منذ قيام الدولة سنة ١٩٤٨ .

اخيرا تحقق لهم اعتراف الآخرين بهم . . . واخيراً جاءهم السلام حتى على الأمر الواقع الذي حاولوا ثلاثين سنة أن يفرضوه ـ هكذا خطر لهم

وكانت للحماسة الفياضة المتدفقة في العالم كله أسبابها ، فقد بدت الزيارة بالنسبة للعالم كله وكأنها تضع حدا للتوتر في منطقة حساسة بالنسبة لهم . . . تهددهم أحداثها باحتمالات حرب عالمية وحظر بترولي . . كما أن أطرافها كانوا يواجهونهم بمشكلة اختيار صعبة بين اليهود والعرب . . أخيراً آن لهم أن يستريحوا من هذا الصراع ـ هكذا خطر لهم !

وانتقلت الينا عدوى الحماسة الفياضة المتدفقة دون فرصة نسائل فيها أنفسنا عما اذا كانت لدينا مثل أسبابهم للحماسة الفياضة المتدفقة .

وربما كان علينا أن نصيخ السمع أكثر لهذا الصخب العالمي الذي أحاط بالحدث وأن نسأل انفسنا :

ـ من هم هؤلاء السعداء به . . ؟

ومن هم هؤلاء الذين يمدحوننا فجأة ؟

وهل هم أصدقاء يتمنون الخير لنا . . . أو أنهم فريق آخر . لا يعنيه ما يعنينا ولا تشغله همومنا . . . وحقوقنا ؟

لم يسأل أحــد .

لأن هذه الأسئلة بالشك سخيفة في يوم الفرح الكبير

ثم من هو ذلك الذي يملك القدرة على التصدي للطوفان !

□

● المشهد السادس : وانتهى الاستعراض الكبير المثير .

الكل تابعوه ، ومن خلال المتابعة تولد لديهم احساس بالمشاركة فيه .

والكل باستثناءات قليلة ـ تحمسوا له ولو بتأثير العدوى من حماسة الآخرين له .

هكذا أصبح الحدث أمرا واقعا مقبولا وبكل الرضا ، واذن فان أحدا لم يعد مستعدا للتفكير مرة أخرى بسرعة في كل ما جرى . . وترتب على ذلك أن المطلوب الأول في هذه المرحلة أصبح اعطاء الحدث فرصة للتجربة .

« لا داعي للتشكيك الآن فكلنا شاركنا . . . وليس هناك مبرر لاستباق الحوادث . . . أعطوا التجربة فرصة » . . . هكذا كان يقال !

وفي بعض الاحيان ، وفي تجارب الشعوب ، كما في تجارب الأفراد ـ يصبح الوهم نعمة ولو حتى كلحظة فرار من واقع مستحيل أو يبدو مستحيلا .

وساد لبعض الوقت نوع غريب من الوهم بل حتى و « الايهام » ، ولم يكن أحد على استعداد لأن يتذكر أو يذكر غيره بأن الصراعات التاريخية الكبرى تظهر نتيجة لتناقضات حقيقية في أمن ومصالح الأطراف المتصارعة .

وربما ساعدت بعض رواسب المواريث العربية القديمة على نزعة التبسيط المخل للصراعات ، فحولت أزمة الشرق الأوسط الى شبه نزاع قبائلي مما يحدث في طلب الثأر أو خصام على ملكية بئر ماء في مراعي الصحراء !

« لقد ذهبنا نحن اليهم وأثبتنا أننا أكبر منهم وسوف يخجلون من أنفسهم ثم

يجيئون الينا بطلب الصفح والغفران » .

□

● المشهد السابع : كانت نزعات « الوهم » قادرة على تغليف معظم الحقائق ، ولكن الشعوب الحية قادرة على أن تحس بوعيها المركز في اعماقها خلال تجارب القرون أن الأمور لا يمكن أن تكون في بساطة ما يبدو على سطحها في لحظة من اللحظات .

وهكذا فان الضمير المصري راح يسائل نفسه ويحاورها لعله يصل فيما يرى ويسمع الى يقين . وفي هذه العملية من البحث في اعماق الحوادث فان الضمير المصري وصل الى استنتاج كان له الحق في الوصول اليه والاطمئنان ـ ولو الى حد ما ـ بعد الوصول اليه .

هذا الاستنتاج تترابط حلقاته المنطقية على النحو التالي :

« لا بد أن يكون هناك شيء وراء هذا كله . . . شيء لا نعرفه . . . شيء جرى ترتيبه والاعداد له سلفاً . ان مشاكل صراعنا مع اسرائيل عويصة ومعقدة ، ولم يكن ممكنا ان يكون هناك قفز فوقها كما رأينا الا على اساس حساب جرى تقدير نتائجه مقدما .

ان هناك خطوطا عريضة بالتأكيد لاتفاق أو مشروع اتفاق جرى التوصل اليه بمساعدة الولايات المتحدة . . . لا بد ان هناك اتفاقا من هذا النوع أو مشروع اتفاق » .

ان هذا الاستنتاج ـ وله مبرراته ـ تمكن من أن يستقر كاعتقاد راسخ طوال الفترة التي انقضت منذ زيارة القدس المحتلة الى اجتماع الاسماعيلية الفاشل .

في تلك الفترة كان موضوع الخلاف بين حدود الاستنتاجات نقطة واحدة وهي :

هل أن الاتفاق الذي جرى ترتيبه والاعداد له سلفا اتفاق ثنائي بين مصر واسرائيل تتحرر بمقتضاه سيناء كلها ؟

أو هل الاتفاق شامل يتعدى سيناء ويمتد الى كل الأرض العربية المحتلة ؟

لم يكن هناك خلاف تقريباً على أن هناك اتفاقا من نوع ما . . . ذلك منطق الأشياء وغيره لا يمكن أن يكون منطقياً .

وانما كان الخلاف على حدود الاتفاق المتصور .

ولقد ساعدت أقوال كثيرة أطلقت في تلك الفترة على الايحاء ـ بل التأكيد صراحة ـ بأنه ليست هناك مشكلة في سيناء ، وكان ذلك كله مما قوى الاستنتاج العام بوجود اتفاق .

□

● المشهد الثامن : في ذلك الوقت الحافل بالتأثيرات الدرامية والآمال الواسعة والأوهام الوردية والاستنتاجات المتفائلة ولها عذرها ـ بدأ رد الفعل العربي . ولأسباب متعددة فان رد الفعل العربي بدا وكأنه انطلق فجأة من ماسورة مدفع رشاش تتدافع طلقاته بسرعة وفي كل اتجاه . وكان من السهل في حالة المزاج السائدة في مصر أن يبدو رد الفعل العربي ـ على هذا النحو ـ وكأنه هجوم شامل ، واستثيرت حوافز المقاومة المصرية وهي عادة أقوى ما تكون عندما تتعرض للهجوم .

ومن ناحية أخرى فقد كان هناك الحرص على ما لاح وكأنه حلم قريب التحقيق ، والخوف من أن يؤدي التشدد والتشنج الى تبديده واضاعته ، وبدأت التساؤلات تتصاعد وترتفع حرارتها درجة بعد درجة .

لماذا لا ينتظرون حتى تظهر النتائج ؟

من الذي أعطى الآخرين حق الوصاية على تصرفاتنا ؟

ان تضحياتنا أكثر من تضحيات غيرنا ، ومن ثم فنحن نسأل ولا نساءل ، لقد أعطينا الدم وهم جادوا بالكلمات . . . وأحيانا بالمال ، وليست هناك ثروة من المال تساوي قطرة الدم .

اذا لم يكن يعجبهم ما نفعل ، فليفعلوا ما يعجبهم ، لهم طريقهم ولنا طريق غيره .

وهكذا درجة بعد درجة تحولت حوافز المقاومة الى دوافع للتحدي .

□

● المشهد التاسع : وكان هناك من انتظروا هذه الفرصة السانحة وسكبوا الزيت على النار ، واستثيرت في مصر ـ بقصد وعن عمد ـ رواسب الغرائز الانفصالية ، وشنت بغير مبرر حملات كراهية ضد انتماء مصر العربي ، وكان ذلك شيئاً مخيفاً .

حتى لو كان القصد هو الحصول على نصر تكتيكي يحتفظ بتأييد الشعب المصري لما حدث ، فلقد كان هذا النصر التكتيكي يتحقق على حساب مواقع وموارد استراتيجية هائلة .

وهكذا نسبت مشاكل مصر ببساطة الى انتمائها العربي ، ونسب دور مصر في الصراع العربي الاسرائيلي الى هؤلاء الفلسطينيين الذين لا يرحمون ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل . . . بل ان معارك مصر العظيمة ودورها في حركة التحرر العربي عموما نسب الى حماقة السياسة المصرية في زمن سابق والى تهورها .

وصل الأمر الى حد أننا اعترفنا على أنفسنا بغير حق وأصل ودليل بأننا اطلقنا شعار القاء اليهود في البحر ، وهو شعار لم يقل به أحد في مصر ولا أحد في العالم العربي كله ، وكان هذا الشعار من اختراع الدعاية الاسرائيلية وظلت تردده حتى تصور بعضنا أننا أصحابه فعلا ، وفي الحقيقة فاننا كنا أبرياء منه .

(ولعلي أستطرد هنا الى رواية القصة الحقيقية لهذا الشعار الذي ألصق افتراءً بالحركة القومية العربية . . . . ففي ذات يوم من سنة ١٩٦٦ كان الرئيس جوزيب بروز تيتو يتحدث مع جمال عبد الناصر عن المشكلة الفلسطينية ، وقال الرئيس تيتو في اخلاص صديق : ان قضيتكم لا يساعد عليها أن تطلقوا شعارا كشعار القاء اليهود في البحر .

وقال جمال عبد الناصر : انني لم استعمل هذا الشعار في حياتي ، وأنا لست متحمساً له .

وقال تيتو في دهشة : الغريب أنني كنت أظنك صاحب هذا الشعار .

وأتذكر أنني حضرت هذا الحوار بين الاثنين ، وأتذكر أن جمال عبد الناصر بعد لقائه بالرئيس تيتو طلب اجراء تحقيق في أصل هذا الشعار ومصدره .

وجرى تحقيق واسع النطاق شاركت فيه في ذلك الوقت كل أجهزة رئاسة الجمهورية ووزارة الارشاد القومي في مصر ووزارة الخارجية ، وأسفر التحقيق عن أن مصرياً مسئولا أو غير مسئول لم يطلق هذا الشعار . . . بل ان أحدا من المسئولين العرب لم يطلقه كذلك ، وكان أقرب شيء اليه وان اختلف معناه عنه هو جواب اعطاه السيد عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية سنة ١٩٤٧ وفي جو صدور قرار التقسيم .

فقد توجه اليه صحفي بريطاني بسؤال عن السبب الذي يدعوه الى معارضة قرار تقسيم فلسطين ، وعما يمكن ان يفعله المهاجرون اليهود القادمون بالبواخر من أوروبا الى فلسطين . . . وكان رد عبد الرحمن عزام هو قوله :

ـ لقد جاءوا بالبحر . . ويستطيعون أن يعودوا منه الى حيث جاءوا .

وهو معنى يختلف كثيراً عن معنى القاء اليهود في البحر .

وأتذكر أن نتيجة التحقيق أرسلت الى الرئيس تيتو في يوجوسلافيا .

وأتذكر أيضاً أنني رويت القصة فيما بعد لعدد من الأصدقاء البريطانيين ، وبينهم الوزير العمالي السابق «كريستوفر مايهيو» ، وسألني كريستوفر مايهيو عما اذا كنت متأكدا مما أقوله ، وهكذا كتب كريستوفر مايهيو مقالا أعلن فيه عن استعداده لتقديم خمسة آلاف جنيه استرليني لأي شخص يستطيع نسبة شعار القاء اليهود في البحر الى مسئول مصري أو عربي ، وبادر أحد الصحفيين الاسرائيليين العاملين في لندن الى رفع قضية على « كريستوفر مايهيو » يطالبه بالخمسة آلاف جنيه ، وطالبه كريستوفر مايهيو أمام المحكمة بأن يقدم أدلة على نسبة التصريح الى أحد من العرب المسئولين ، وعجز الصحفي الاسرائيلي ، وحكمت محكمة بريطانية برفض الدعوى) .

برغم ذلك كله ـ وفي وسط جو الهيستيريا ـ فقد وجدنا مقالات في صحف مصرية تعود الى اتهام مصر بشعار لم تنجح اسرائيل في الصاقه باحد فيها !!

□

● ثم يجيء المشهد العاشر : وفيه تحولت الهيستيريا الى الغواية .

بدأنا نقول أن « السلام القادم » ـ ولا اعرف من أين ـ سوف ينهي معاناة الشعب المصري ويتكفل بحل كل مشاكله .

سوف ترتفع الأجور وتنخفض الأسعار ، ويبيض وجه الرغيف ، وتحل أزمة الاسكان ، وتختفي مشاكل المواصلات ، وتعود الحرارة الى أجهزة التليفونات التي انكتمت أنفاسها .

ان صناعة بيع الوهم لم تكتف بسحابات الاحلام الغامضة والمبهمة ، بل حاولت أن تنزل حتى بالوهم لتحوله الى جرعات تخدير يذهب بالوعي وبالعقل .

●

لكن الشعب المصري كان كعادته اقوى من أي مؤ ثرات عارضة في لحظة عابرة من الزمان .

لقد أثبت في كل تاريخه أنه القادر على الامساك بالأحلام العظيمة وتحقيقها ، وهي عالم آخر غير أحلام اليقظة وضبابها .

وكانت تلك هي المقدمات والمداخل !

صباح ليلة الفرح !

العرب بين القبول...
والرفض.. والصمت!

كانت الصورة مشوشة غداة نزول الستار على الاستعراض الكبير في القدس المحتلة .

كان المشهد والمشاعر أشبه بما يكون عادة صباح ليلة الفرح :

بقايا زينات وورود انحنت رؤوسها وتساقطت اوراقها ، ومقاعد ارتبكت صفوفها ، وأطباق فارغة وزجاجات واقداح ـ هذا عن المشهد .

وأما عن المشاعر فقد كانت مختلطة ـ المتمني يتوه في التمني ، والتساؤلات تتراوح بين الشك واليقين ، وفي الرؤوس نشوة ولكن فيها أيضا دوار وصداع سببهما طول السهر ، وفي البطون شبع ولكن فيها أيضا قلق سببته كثرة الطعام والشراب !

□

لم يكن هناك شك في أن الجماهير المصرية كانت ما زالت بعد مأخوذة بمثيرات التجربة التي عاشتها ، واحست بفضل قوة تكنولوجيا الاتصالات الحديثة انها لم تعش التجربة مجرد متفرجة ، وانما تولد لديها ـ حتى بالرغم منها ـ احساس غريب بأنها شاركت في كل ما حدث .

ان ذلك الوضع خلق « حقيقة سياسية » لم يعد في مقدور أحد اغفالها مهما كان رأيه وحيثما كان موقفه .

ان « الحقيقة السياسية » لا تصدر عن صواب قناعة ما أو خطئها ، ولكن من

مجرد وجود هذه القناعة بصرف النظر عن الصواب والخطأ . . . . ان مجرد وجود قناعة ما في حد ذاته على مستوى شعب أو أمة هو الذي يخلق « الحقيقة السياسية » ويصرف النظر عن العوامل والمؤثرات التي ساعدت على خلقها . وهنا فان « الحقيقة السياسية » تختلف عن الحقيقة العلمية . فالحقيقة العلمية نتيجة تدل عليها قوانين موضوعية وليس قناعات ذاتية مهما اتسعت درجة شيوعها . ثم ان « الحقيقة السياسية » شيء يختلف عن الحقيقة المطلقة اذا جاز أن تكون هناك حقيقة مطلقة في أي شيء !

ان تقبل الجماهير المصرية لما سمي بمبادرة السلام اصبح ـ كما قلت ـ « حقيقة سياسية » ليس في مقدور أحد اغفالها مهما كان رأيه وحيثما كان موقفه . . .

ولم يكن معنى ذلك أن يغير المعارضون لها رأيهم في تقييم ما حدث ، ولكن كان معناه أن المقتضيات السياسية تفرض عليهم تكييف أسلوب معارضتهم مع « الحقيقة السياسية » الراهنة اذا كانوا حريصين على الشعب المصري ودوره في العمل القومي .

ان المعارضة بأسلوب الصدام ـ والاتهام ـ كان مؤكدا عقمها ، لأن هذا الأسلوب ـ ازاء « الحقيقة السياسية » المتمثلة في اقناع الشعب المصري بما حدث ـ كان كفيلا بجعل الصدام ـ والاتهام ـ في واقع الأمر موجها ضد الشعب المصري ، وهذا خطأ وخطر .

وانما كان الأسلوب الأمثل في رأيي للمعارضة هو المناقشة والحوار والمساعدة بكل الوسائل حتى تظهر الحقائق العلمية الثابتة والدائمة في الصراع العربي الاسرائيلي ، وتنزاح « الحقيقة السياسية» وهي وليدة ظرف بعينه وبالتالي فهي عارضة وطارئة .

وكان هذا هو أكبر الأخطاء التي وقعت فيها « مجموعة الصمود والتصدي » التي تنادت بالرفض الى الاجتماع في طرابلس صباح ليلة الفرح !

انها لم تفهم الحالة النفسية للجماهير المصرية ، وعجزت عن تحليلها ،

وكانت لذلك آثاره ونتائجه على الصورة العربية العامة المشوشة والمتناقضة !

□

وبعض دواعي الخطأ في موقف هذه الدول يمكن تصوره ، فهي جميعا قد تأخرت في ابداء رأيها ورد فعلها مبكرا على زيارة القدس المحتلة ، وفي الحقيقة فانه مضى أكثر من أسبوع على اعلان نية الزيارة دون أن يظهر من هذه الدول رأي أو رد .

كانت دواعي ذلك التأخير مما يمكن رده الى أسباب أبرزها ما يلي :

١ ـ ان معظم هذه الدول ـ شأنها شأن غيرها في العالم ـ لم تأخذ اقتراح الزيارة جدا ، وارجعتها الى « مناورة تجاوزت حدودها هذه المرة » ـ ولكن أحدا في هذه الدول لم يكن يريد أن يتهم بافساد مناورة قد تؤدي الى احراج الخصم أمام الدنيا بأسرها .

٢ ـ ان البعض تصور أن هناك نتائج مسبقة جرى الاتفاق عليها قبل اعلان الاقتراح ، ومع صدمة الاعلان فان كثيرين آثروا الانتظار ليعرفوا اذا كانت النتائج على مستوى الصدمة او هي دونها ، وكانت هذه النقطة بالتحديد مثار اهتمام الرئيس السوري حافظ الأسد عندما اجتمع بالرئيس أنور السادات قبل يومين من رحلة القدس ، فقد سأله عما اذا كانت لديه ضمانات بالحد الأدنى من المطالب العربية ، ولم يكن هناك مثل هذا الضمان . . .

٣ ـ ان هناك نوعا مما يشبه « ضباب الحرب » ساد وغطى الجو العربي كله مع اعلان الاقتراح ، فقد كان السيد ياسر عرفات من حضور جلسة اعلان الاقتراح في مجلس الشعب المصري ، وكذلك فقد كانت هناك اتصالات لتحسين الجو بين مصر وليبيا ، ثم انه كان هناك موعد مضروب للقاء بين الرئيس الأسد والرئيس السادات في دمشق ، وأخيراً فقد كان الجميع ينتظرون لقاء عربياً عالياً على مستوى وزراء الخارجية العرب في تونس .

٤ ـ ان موقف الوفد المصري الى اجتماعات تونس ـ برئاسة السيد اسماعيل فهمي وزير الخارجية وقتها ـ عمل على كبح ردود الفعل ، فقد راح الوفد المصري في الأروقة وفي الاجتماعات المغلقة يؤكد أن الزيارة لن تتم وأنها حركة سياسية بارعة لتطويق وحصار التعنت الاسرائيلي وتعريته ، خصوصا أمام الرئيس الامريكي « جيمي كارتر » وحكومته والرأي العام في الولايات المتحدة .

ولم يكن الوفد المصري الى تونس بهذا الموقف يخدع غيره من الوفود ، أو يغرر بها ، وانما كانت تلك تصوراته الفعلية .

كان الاقتراح ـ عندما صعد الوفد الى سلم الطائرة المسافرة الى تونس ـ معلقا ، وكانت هناك محاولة لربط الزيارة بتعهدات مؤكدة تقطعها الحكومة الاسرائيلية على نفسها استجابة عملية للمبادرة وتقديرا عمليا لأهميتها . وكان الوفد المصري الى تونس يعرف من خبرة تجارب طويلة أن اسرائيل لن تربط نفسها مسبقا ، وبالتالي فهي لن تستجيب ، واذن فان الزيارة لن تتم .

ان التطورات ـ كما نعرف الآن ـ سارت في اتجاه آخر ، ولكن تصورات الوفد المصري الى تونس ساعدت ـ بغير قصد ـ على تعطيل رد الفعل العربي .

□

هكذا فانه عندما أفاق الجميع من الصدمة وخرجوا من منطقة « ضباب الحرب » ـ فانهم كانوا يحسون بتأخرهم في ابداء رد فعلهم ـ وربما خشي بعضهم أن يتهم بالتواطؤ أو بالعلم المسبق ـ وهكذا اندفعت خطواتهم الى المعارضة بسرعة مفاجئة ، ثم جاءت معارضتهم مشوبة بانفعالات عصبية .

وكان هذا خطأ تداعت منه أخطاء .

● بين هذه الأخطاء ـ ما أشرت اليه قبل قليل ـ من عجز عن دراسة وفهم الحالة النفسية للشعب المصري .

وهكذا فان ما اندفع بسرعة مفاجئة الى الانفعال العصبي لم يعد صداما مع مبادرة قام بها سياسي يجوز الصدام معه ، وانما تحول ـ ولو مؤقتاً ـ الى صدام مع شعب لا يجوز الصدام معه .

ولم يكن ممكنا لأية عبارات موجهة بالتحية لهذا الشعب ان تخفف من وقع الصدام ، خصوصا اذا كانت هذه التحية لن تصل اليه بسبب التعتيم الاعلامي ، وانما الذي سيصل اليه هو الادانة مصحوبة بالمبالغات الطبيعية التي تستهدف استثارة الاقليمية والوطنية ، وهي دائما ذخيرة حية قابلة للفرقعة في اي جو ساخن ومشحون .

● وبين هذه الاخطاء انهم في طرابلس تصوروا أن « نقص العروبة » يمكن أن يكون قضية يحاسب على أساسها أي نظام حاكم في مصر . وذلك ـ ببساطة ـ ليس صحيحاً .

ان عروبة مصر حقيقة علمية ، ومصلحة مصر العربية حقيقة علمية ثانية ، وأمن مصر العربي حقيقة علمية ثالثة ، ولكننا اتفقنا على ان الحقائق السياسية تكون احيانا نقيضاً مع الحقائق العلمية . ومن الحقائق السياسية في مصر ـ وهذه مسألة لا بد من الاعتراف بها ـ أن انتماء مصر العربي لم يعمق بعد بالقدر الكافي بين الجماهير المصرية لأسباب متعددة سبق لي في سلسلة سابقة من هذه الاحاديث أن اشرت اليها .

قلت ان مصر أقدم دولة في التاريخ وذلك يخلق خلطا بين مفهوم الدولة ومفهوم الأمة فيها ، وقلت ان الفكر والفعل السياسي المصري أخذا قضية انتماء مصر العربي أمرا مفروغا منه وبالتالي فان احدا لم يبذل جهدا كافيا لتأصيله ، وقلت ان وحدة الأمن العربي ليست واضحة في اليقين المصري بالدرجة الواجبة وكذلك وحدة المصلحة العربية . ومن محصلة ذلك كله ان الفكرة العربية في مصر تكون معرضة ومكشوفة لدعاوى من نوع « مصر وحدها » . . . أو « مصر أولا » أوما شابه ذلك ، وكلها دعاوى يسهل ترويجها والارتكاز عليها بنجاح ـ في بعض الأحيان ـ بقصد تعطيل التفاعلات الضرورية بين الشعب على ضفتي النهر وبين الأمة من المحيط الى الخليج .

● ان تهمة « الخيانة » ما لبثت ان اطلقت بغير حساب وبدون تحرز . والمشكلة أن تهمة « الخيانـة » في العالم العربي أصبحت مرفوضة ومردودة من كثرة الاستعمال وكأنها عملة امحت نقوشها من تعاقب تداول الأيدي لها فلم يعد في مقدور أحد أن يعرف قيمتها ، ولا أن يعرف مكان سكها ، ولا في أي عهد من عهود السلاطين جرى ضربها !

واظهار الخطأ في أي تصرف ممكن ، تحميل كل طرف مسئوليته من واقع سياسته ممكن ، والتنبيه والتحذير وابراء الذمة كلها امور ممكنة ، ولكن الوصول الى اطلاق تهمة « الخيانة » ليس ممكنا بسهولة او ببساطة !

ولقد كانت هناك شوائب اخرى في موقف الدول التي تنادت بالرفض الى الاجتماع في طرابلس صباح ليلة الفرح :

● كان بعض الاطراف مشغولين باظهار انهم كانوا طول الوقت على صواب ، وأنهم لم ينخدعوا ، في حين فاتت الخديعة على زملاء لهم ـ ومثل هذه مشاعر لا يعرفها العمل السياسي عند المستوى القومي .

● لم تستطع الدول التي تنادت بالرفض أن تؤمن موقفا موحدا في ظرف اعترفت جميعا بخطورته ، وكان المظهر العملي والعلني لذلك هو انسحاب العراق ، مهما اختلفت الآراء في أسباب هذا الانسحاب ودوافعه .

● ثم جاءت قرارات المؤتمر ، وقد برزت فيها محاذير ثلاثة واضحة :

١ ـ ان القرارات حملت ما يمكن أن يبدو وكأنه عقوبات موجهة الى الشعب المصري ، ونموذج ذلك القرار بالمطالبة بنقل مقر أمانة الجامعة العربية من القاهرة ، وهو أمر مستحيل من الناحية الواقعية اذا طبقت نصوص ميثاق الجامعة . ثم أن نقل مقر الجامعة من القاهرة ـ على فرض أنه ممكن قانونا ـ لا يخدم هدف التمسك بعروبة مصر ، وربما كان الأجدر هو التمسك بالقاهرة كمقر للجامعة ولو لمجرد الرمز ، بل وكان ممكنا ان تظل الجامعة منبرا يمكن فيه الاحتكام الى الشعب المصري بمقدار ما تسمح به الظروف .

ولعل أحداً لا يتهمنى فيما أقول الآن بتعصب اقليمي . وفي الحقيقة فانني لا أصدر فيه عن مشاعر المواطنة المصرية ، وانما اصدر فيه عن ايمان قومي بأهمية الدور المركزي لمصر في العمل العربي ، على الأقل للسنوات العشر القادمة ، وهي السنوات الحاسمة .

٢ ـ ان بعض القرارات بدت وكأنها موجهة « ضد شخص » باكثر مما بدت وكأنها موجهة « مع هدف » ، وذلك فتح الباب لمظان المصالح الضيقة ، والمنافسات العقيمة ، وتسوية الحسابات القديمة ، وربما لم يكن ذلك موجودا ، ولكن ظواهر الجو العام خلقت انطباعا بوجوده ، ولم يكن ذلك الانطباع نافعا .

٣ ـ يتصل بذلك ان القرارات شجبت سياسة ولم تطرح بديلا لها .

لقد كان هناك مأزق لا شك فيه ، وليس يكفي أحداً عند قمة المسئولية القومية العليا ان يشخص المأزق ، وانما كان عليه أن يشير الى باب خروج ، بل أظن أنه كان عليه أن يحاول ابقاء مثل هذا الباب مفتوحا للخروج .

ان المآزق السياسية تختلف عن المآسي الاغريقية ، ففي حين ان هذه المآسي الاغريقية تصبح أقدارا نهائية لا ترد ـ فان المآزق السياسية لا بد من تخطيها والخروج من قيودها الى حيث الحركة الحرة ممكنة وضرورية .

هكذا فانه في الوقت الذي كان متاحا فيه لمؤتمر طرابلس أن يمثل وجهة النظر الأخرى في العالم العربي ـ فان هذا المؤتمر اكتفى بان يكون مجرد تعليق بالادانة على ما صدر عن القاهرة ، ولم يكن ذلك كافيا فيما أظن .

وهكذا ذهب هذا المؤتمر صرخة في واد ، وساعد على ذلك أن الرأي العام العالمي كان ملتفتا بكليته الى المهرجان الكبير ، ثم إن الرأي العام العربي ذاته تنازعته الحيرة فيما يجرى ، فبعضه غير مقبول وبعضه الآخر غير مقنع ، وبين عدم القبول وعدم الاقناع سادت الحيرة واستحكم الارتباك !

□

ان الحيرة والارتباك خلقا موقفاً عربياً ثالثاً هو موقف الصمت الذي التزمته مجموعة دول المساندة ، وهي في الواقع مجموعة الدول المنتجة للبترول التي يقع عليها عبء تمويل الموقفين السابقين على موقف الصمت ، وهما موقف القبول وموقف الرفض .

ان موقف هذه المجموعة من الدول أصبح دقيقاً ومعقداً الى درجة مزعجة :

● فمن ناحية تعرف هذه الدول أن شرعية النظم فيها تقوم على أساس تقليدي ، وهذا الأساس التقليدي يفرض عليها التمسك بأكثر المواقف تشدداً خصوصاً فيما يتعلق بعروبة الأماكن المقدسة في الأرض المقدسة ، ولم يكن ذلك شيئاً جديداً ، ذلك أن محضر اللقاء بين الملك عبد العزيز آل سعود والرئيس الامريكي فرانكلين روزفلت في نهاية سنة ١٩٤٤ وعلى مياه بحيرة التمساح ما زال وثيقة قاطعة بالنسبة للولاء التقليدي في هذه الدول .

كان الملك عبد العزيز قاطعا مع الرئيس الامريكي في كل المشروعات المتعلقة بتقسيم فلسطين ، وفتح أبوابها للهجرة اليهودية ، وفي الخطر المحدق بالقدس ، وكان لهذا القطع أثره على « روزفلت » الذي تنقل عنه وثائق وزارة الخارجية الامريكية قوله بعد لقائه مع الملك « عبد العزيز » :

ـ انني في هذه الساعة على بحيرة التمساح عرفت عن الوضع في الشرق الاوسط أكثر مما عرفت عنه خلال الاثني عشر عاما الماضية التي قضيتها في البيت الأبيض في واشنطن !

● ومن ناحية أخرى فان هذه الدول ـ ولأسباب اجتماعية بالدرجة الأولى ـ تخشى عواقب أكثر المواقف تشدداً .

ان أكثر المواقف تشدداً كفيل بتفجير عوامل الثورة الكامنة في الواقع العربي ، واذا ما تذكرنا أن الخطوط متداخلة بين الثورة القومية والثورة الاجتماعية ـ لوجدنا أسباب الخشية ظاهرة وواضحة لكل عين .

وأتذكر أنني سئلت بعد جولـة دامت عشرة أيام في منطقة الخليج :

ـ كيف تقييمك لموقفهم هناك ؟

وقلت وقتها ـ وما زال ذلك رأيي الى هذه اللحظة :

ـ انهم في الموقف الصعب .

قلوبهم تمنعهم عن مسايرة القاهرة فيما ذهبت اليه .

وعقولهم تصدهم عن السير مع غيرها الى حيث يذهبون .

هذا هو موقفهم بين القلب والعقل .

وأتذكر تعليقات متباينة تدلل على صحة هذا التقييم ، وأستأذن في الامساك عن نسبة هذه التعليقات الى أصحابها ، ويكفيني أن اقول انها جميعـا صدرت من أهل « حل وعقد » ، وبينها ما يلي :

● قول أحدهم لي مثلا :

ـ أريدك أن تعرف أن هناك نوعين من الـرفض : رفض بالصوت ورفض بالصمت . . . . هذه حقيقة موقفنا لأننا لا نرى جدوى الآن من رفـع الأصـوات عالية وصاخبة .

● ثم قول احدهم لي مثلا :

ـ ليت هذه المبادرة تنجح . . . هل لديها فرصة للنجاح . . ؟ سوف نكون أسعد الناس اذا استطاعت تحقيق الانسحاب الكامل من كل الأراضي العربية بمـا فيها القدس ، وتحقيق قيام الدولة الفلسطينية . . . سوف نكون اسعد النـاس اذا نجحت واذا ثبت أننا جميعا كنا على خطأ .

هل تعرف أن هذا ليس موقفنا وحدنا . . . انه أيضاً موقف غيرنا ممن يقفون

اليوم موقف الرفض الصريح . . . انه على سبيل المثال موقف الرئيس الجزائري هواري بومدين . . . انه كان هنا عندنا .

ان الرئيس بومدين قال لنا بالحرف أنه اذا نجحت هذه المبادرة في تحقيق المطالب العربية فسوف يذهب الى القاهرة ـ حتى بدون اخطار مسبق ـ ومن هناك يعلن أنه كان على خطأ ، واذا فشلت هذه المبادرة وكان هناك رجوع عنها فانه أيضا لن يتردد في الذهاب الى القاهرة ليضع امكانياته وامكانيات الجزائر في خدمة المرحلة القادمة من العمل العربي الموحد » !

● واخيرا قول احدهم لي مثلا ، وكان ذلك في نفس اليوم الذي اعلن فيه أن الرئيس السادات قرر توجيه خطاب الى مجلس الشعب بعد قرار سحب اللجنة السياسية من القدس في الثامن عشر من شهر يناير الماضي :

ـ هل تظن أنه سوف يعلن فشل المبادرة ؟

ليته يفعل . . . اذن لأصبحت الأمور ميسرة بالنسبة لنا ، ساعتها نستطيع التحرك ، ونستطيع توجيه الدعوة فورا الى مؤتمر عربي على مستوى القمة لنبحث في الخطوة التالية من عملنا المشترك وتمشي » !

وهكذا تمزقت المواقف العربية اكثر واكثر :

لم يعد هناك قبول واحد ، وانما أصبح هناك قبول غير مشروط وقبول مشروط .

ولم يعد هناك رفض واحد ، وانما أصبح هناك رفض رباعي يمثله مؤتمر الصمود والتصدي ، ورفض منفرد يمثله موقف العراق .

ولم يعد هناك صمت واحد ، وانما أصبح هناك صمت يتمنى النجاح للمبادرة اذا كان ذلك ممكنا ، وصمت يتمنى فشلها لأن ذلك الفشل حتمي !

لكن القبول بغير حد لا يمكن ان يكون موقفاً دائماً ، ثم أن الرفض بغير مخرج بديل لا يمكن ان يكون موقفا دائماً ، واخيراً فان الحيرة والارتباك والتردد لا يمكن أن تكون جميعاً موقفاً دائماً .

وكان ذلك جانبا من الصورة المشوشة غداة نزول الستار على الاستعراض الكبير في القدس المحتلة !

صباح ليلة الفرح ٢

التحليل الاسرائيلي للمبادرة !

بين كل الذين شاركوا في الاستعراض السياسي الكبير الذي شهدته القدس المحتلة أيام ١٩ و ٢٠ و ٢١ نوفمبر من سنة ١٩٧٧ ـ فان اسرائيل كانت الطرف الذي حاول أن يحتفظ برأسه سليمة لكي يستطيع أن يفكر وأن يقدر بعد انتهاء الاحتفالات وانفضاض سامر الفرح المثير .

كانت مشاعرهم هناك حبورا ونشوة لم يسبق لهما مثيل ، ولكنهم في نفس الوقت احسوا بضرورة الحذر حتى لا يجدوا أنفسهم على غير رغبة منهم ـ وبدون ارادة ـ يتحملون وحدهم تكاليف ذلك المهرجان الذي عاشه الكل واستمتع به الكل .

وليس هذا التشبيه من عندي ، ولكنه لوزير اسرائيلي قاله في مطار اللد لسفير دولة أوروبية كبرى ، وكانا قد التقيا معا بعد وداع الطائرة العائدة من القدس الى القاهرة عصر يوم ٢١ نوفمبر .

قال السفير الأوروبي للوزير الاسرائيلي :

ـ لقد كانت أياما لا تنسى . . . »

ثم استطرد السفير :

ـ أظنكم يا سيدي الوزير سوف تكونون مطالبين بأن تعطوا شيئاً مقابل كل ما أخذتموه هذه الأيام .

ورد الوزير الاسرائيلي على الفور :

ـ لا اعرف لماذا يتحتم علينا أن نقدم مقابلا لكل ما حدث . . . ان ما حدث كان عظيما بلا شك ، ولكن المسائل لا بد أن تكون محددة . ان الآخرين والعالم كله دعوا أنفسهم الى مهرجان حافل على ارضنا ، وقد رحبنا بهم ، لقد كان ذلك المهرجان نوعاً من حفلات المفاجآت يجيء فيه الذين دعوا أنفسهم اليه بطعامهم وشرابهم وموسيقاهم أيضاً ، ثم يذهبون بعد تقديم شكرهم للذين فتحوا لهم بيتهم ليكون مسرحاً للمهرجان .

ان صحفياً أمريكيا كبيراً كان واقفاً بين الاثنين عندما دار هذا الحوار ، وعندما روى لي تفاصيله في القاهرة بعد مجيئه اليها من القدس المحتلة ، كان تعليقه على الفور :

ـ انني بعد أن سمعت هذا الحوار تنبهت الى أن المشاكل الحقيقية على وشك أن تبدأ .

□

وطبقاً لرواية هذا الصحفي الامريكي الكبير ـ وهو مصدر معظم المعلومات الواردة في هذا الحديث ـ فان القيادة الاسرائيلية بدأت في عقد سلسلة من الاجتماعات المكثفة لتقييم الزيارة ، ابتداء من صباح اليوم التالي لانتهائها ، أي يوم ٢٢ نوفمبر .

قبل الزيارة ـ طبقاً لرواية هذا المصدر الذي أثق بغير حدود في حسن اطلاعه ـ فان القيادة الاسرائيلية ـ معززة بكل أجهزة الرصد والتحليل ـ لم يكن لديها الوقت الكافي للتقييم الشامل والدقيق . وفي الواقع فان شاغل هؤلاء جميعاً قبل الزيارة ـ ومنذ انفجر الاقتراح بالاستعداد للقيام بها ـ كان سؤالا واحدا :

ـ ما الذي حدث ؟

لقد كانت هناك محاولات في عدد من العواصم للجمع في لقاء مباشر بين السادات وبيجين . . . وكانت هناك اجتماعات تمهيدية قام بها رسل ومبعوثون . . .

وبرغم ذلك كله فقد كان هناك شك اسرائيلي في ان هذا اللقاء المباشر بين السادات وبيجين يمكن اتمامه علنا او سرا لتصادمه الكامل مع منطوق ومضمون المواقف العربية السابقة عليه .

والآن ينفجر اقتراح زيارة القدس على غير انتظار ، فما هي القصة ، وهل تتم هذه الزيارة فعلا . . . أو أن المسألة كلها مجرد مناورة يقصد بها اظهار النوايا الطيبة ، ثم تفرض مصر في آخر لحظة شروطاً معينة للقيام بها ترفضها اسرائيل ، وحينئذ يسهل القاء اللوم عليها وتحميلها تبعات قتل حمامة السلام قبل أن تفرد اجنحتها وتحلق على الطريق من القاهرة إلى القدس ؟ .

وكان هناك انقسام في الرأي حول الاجابة عن هذا السؤال الواحد .

● البعض في القيادة الاسرائيلية وفي اجهزة الرصد والتحليل يؤكد ان الزيارة لن تتم وانها مجرد مناورة .

● والبعض الآخر لا يستبعد اتمامها لأسباب مختلفة ، بينها أنه مع التسليم بأن هدفه هو المناورة فان الهدف لا يتحقق بمجرد الاعلان ، والا فانه من السهل كشف المناورة باظهار انها لم تكن أكثر من اعلان لا يستند الى نية حقيقية !

وفي تلك الساعات فقد كان قرار القيادة الاسرائيلية واجهزة الرصد والتحليل العاملة في خدمتها ان من الخير ـ قطعا لأي طريق على اي مناورة ـ أن تعلن اسرائيل شروطها مسبقاً لاتمام الزيارة ، وهي انها لا تقبل الانسحاب وراء خطوط سنة ١٩٦٧ ، ولا تقبل قيام دولة فلسطينية مستقلة ـ ثم تنتظر تطورات الاحداث .

□

ولقد ظل الشك يغلب اليقين ، واليقين يغلب الشك ، حتى بدا أن الزيارة اصبحت أمرا واقعا او كادت ، وهكذا انتقل البحث على عجل صباح يوم السبت ١٩ نوفمبر ـ أي قبل ساعات من موعد وصول الطائرة ـ الى سؤال آخر وهو :

ـ كيف يمكن لاسرائيل أن تستفيد الى أقصى حد من هذه الزيارة ؟

وكان رأيهم أن هناك نوعين من الفوائد يمكن تحقيقهما ـ وعلى النحو التالي :

نوع من الفوائد يتحقق بمجرد اتمام الزيارة .

● ومن نماذج هذا النوع من الفوائد ان الزيارة في حد ذاتها اعتراف باسرائيل .

● ثم انها في حد ذاتها أيضا تطبيع للعلاقات على أعلى مستوى ، خصوصا اذا أحيطت بكل المظاهر التي تجعل منها زيارة رسمية يقوم بها رئيس دولة الى دولة أخرى .

● والى جانب ذلك فانه حتى اذا كان هدف الزيارة هو التأثير على الولايات المتحدة ، فان القيام بها في حد ذاته شبه اعتراف بأن معظم أوراق الحل ليست ـ كما كان يقال ـ في يد الولايات المتحدة ، وانما في يد اسرائيل .

والنوع الثاني من الفوائد لا يتحقق بمجرد اتمام الزيارة ، وانما هو يقتضي اسرائيل جهدا وعملا .

● ومن نماذج هذا النوع من الفوائد أن تنتهز اسرائيل فرصة اصغاء العالم المبهور بما يجرى في القدس لشرح موقفها من الصراع العربي الاسرائيلي على أوسع نطاق .

(وقد حدث ذلك عندما وقف مناحم بيجين في الكنيست يرد على خطاب الرئيس السادات ، ثم انتهز الفرصة للادعاء بأن العرب بدأوا الحرب ضد اسرائيل أربع مرات بغير استفزاز ، وأن حروب اسرائيل جميعا كانت دفاعية ومشروعة ، وبأن العرب هم الذين نادوا بشعار القاء اليهود في البحر ، في حين ان اسرائيل لم تكن تطلب غير حق العيش في أمان مع العرب ـ وكانت الدنيا كلها تسمع !) .

● ومن نماذجه ايضا أن تحاول اسرائيل بكل الوسائل أن تمنع أي ذكر لمنظمة التحرير الفلسطينية طوال فترة الزيارة ، وكأن هذه المنظمة غير موجودة في حسابات كل الأطراف .

(وقد ادعى الجنرال موشي ديان وزير الخارجية الاسرائيلية فيا بعد ، وعقب

انتهاء الزيارة ، انه لفت نظر الوفد المصري بطريقة واضحة الى خطورة ذكر اسم منظمة التحرير الفلسطينية بأي شكل من الأشكال .

وروى الجنرال ديان أنه قال لبعض المصريين البارزين :

ـ اننا كنا نريد الحصول على نسخة من الخطاب الذي يزمع الرئيس السادات القاءه في الكنيست لكي يستطيع رئيس الوزراء بيجين أن يعد رده عليه ، ولكننا ندرك أنكم تريدون الاحتفاظ به سراً الى لحظة القائه ، وليس لدينا اعتراض على ذلك ـ ومهما يكن فهناك ملاحظة أود أن أقولها كصديق عاش عمره كله مع العرب ، وهي أن محاولة السلام كلها سوف ترتطم بالصخور اذا ورد ذكر لاسم منظمة التحرير الفلسطينية في أي كلام ، لأن ذلك سوف يستتبع رد فعل قاطع من جانب الطرف الاسرائيلي . . . ان ذكر حق الانسحاب من الأراضي مفهوم ، وذكر حقوق الفلسطينيين محتمل ، ولكن اسم منظمة التحرير سوف يكون بمثابة لغم سريع الانفجار) .

● ومن نماذجه أخيراً ـ وفي صميم الموضوع ـ وفي غيبة توقع الحصول على نتائج حاسمة قبل بدء المفاوضات ـ ان تحصل اسرائيل على تعهدات تنزع عنصر التوتر عن الصراع .

(وكان من ذلك ما اعلن عنه قرب نهاية الزيارة ، وهو التعهد باستمرار الاتصال ، وأن يكون كل شيء قابلاً للتفاوض ، ثم التعهد بأن تكون حرب أكتوبر ١٩٧٣ هي آخر الحروب بين مصر واسرائيل ، وأن يكون طريق الاثنين بعد ذلك لحل أية خلافات بينهما هو طريق الدبلوماسية والحوار) .

□

وبدأت القيادة الاسرائيلية ـ ومعها أجهزة الرصد والتحليل ـ اجتماعاتها المغلقة لتقييم الزيارة غداة انتهائها ـ كما قلت ـ أي يوم ٢٢ نوفمبر .

وكانت هناك أمام الذين جلسوا للبحث معلومات وتحليلات ووثائق لا نهاية لها .

من بينها تسجيلات صوتية لكل كلام قيل في اسرائيل ، ودراسات اليكترونية لانفعالات نبرات الصوت بما يكشف النوايا الحقيقية لأصحابها ، وبينها دراسات للصور تحاول أن تستشف مكنونات صدر كل مصري ذهب الى اسرائيل في تلك المناسبة ، ومن بينها معلومات واردة من كل عواصم الدنيا ـ بما فيها القاهرة .

كان ذلك كله قد تجمع لدى الجنرال « شلومو جازيت » رئيس المخابرات العسكرية ، الذي استطاع رجاله ان يحصلوا على كل كلمة وتصرف وحركة قام بها الوفد المصري ومرافقوه خلال الزيارة ، حتى مع خدم الفنادق ومع سائقي السيارات .

وكان أول سؤ ال وجهه مناحم بيجين في هذا الاجتماع :

« انه يريد اجابة محددة وواضحة عن سؤ الين اثنين :

أولا : ما هو الدافع الحقيقي لهذه الزيارة ؟

وثانياً : ما هي النوايا الحقيقية بعد هذه الزيارة ؟ »

واستفاض البحث واستبان منذ اللحظة الأولى ان هناك في الواقع ارتباطاً وثيقاً بين السؤ الين ، لأن الدافع الحقيقي الى الزيارة هو جزء من النوايا الحقيقية بعدها .

□

استناداً الى مصدري الذي اشرت اليه وقد أتيح له ان يتحدث مع معظم صناع القرار الاسرائيلي ـ فان البحث عن الدافع الحقيقي للزيارة تشعب الى استكشاف كل الاحتمالات والتعرض لها ، بالنفي أو التأكيد . . . ومن ثم باستبعاد بعضها واعتماد بعضها الآخر:

ومقدما فان أحداً منهم لم يساوره شك في أن القصد النهائي من المبادرة هو الرغبة في الوصول الى تسوية . ان هذه الرغبة كانت بادية أمامهم منذ وقت طويل ، ولم تعد في تقديرهم موضع شك ، ولكن ما تدور حوله الشكوك هو أن تتوازى الرغبة في التسوية مع الثمن المطلوب لتحقيقها .

أي أن الشكوك لم تكن تدور حول الرغبة ، ولكن حول الاستعداد لدفع ثمنها ـ كما تراه اسرائيل ـ ومن هنا فان التفكير في الدوافع والنوايا كان قاصرا على الأسلوب ، ولم يتعد الأسلوب الى صميم الموضوع .

وعلى هذا الأساس راحوا يستعرضون كل الاحتمالات :

١ ـ استبعدوا مثلا احتمال أن يكون الخوف من صدام عسكري ـ ولو عن طريق الخطأ ـ احتمالا مقبولا ، وكانت وجهة نظر الجنرال « موردخاي جور » رئيس هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي انه لم تكن هناك تحركات على الجبهة من شأنها ان ترفع درجة الخطر عليها .

لقد كانت هناك مناورة الخريف المعتادة للقوات الاسرائيلية في سيناء ، ولكن هذه المناورة جرت وانتهت في الحدود المقررة لها ، واخطر الجنرال « سيلاسفو » كبير مراقبي الامم المتحدة ، كما اخطرت هيئة الرقابة الامريكية ، وتولى الاثنان اخطار الجهات المصرية الرسمية بموعد بدء المناورة وانتهائها ، وبحجم القوات المشتركة فيها ، وفق ما تقضي به اتفاقيات فك الاشتباك .

ولم تكن هناك تحركات عسكرية على الجبهة المصرية ، وصحيح انه كانت هناك تحركات في العمق المصري ، ولكن هذه التحركات كان مردها عودة بعض الفرق المصرية التي كانت محتشدة في الصحراء الغربية على حدود ليبيا الى مواقعها الأصلية ، بعد أن بدأت عملية حوار مصري ليبي بوساطة فلسطينية هدفها حل سوء التفاهم بين البلدين وتصفية اسباب الخلاف .

٢ ـ استبعدوا مثلا احتمال أن يكون هناك تصور مصري بأن الزيارة في حد ذاتها سوف تجعل اسرائيل مضطرة ـ ادبيا ـ الى الاستجابة للمطالب المصرية

بالانسحاب الكامل واقامة دولة فلسطينية ، وكان اكبر الدواعي الى استبعاد هذا الاحتمال :

أن الكل يفهم بالطبع ان الصراعات الدولية لا تحكمها المجاملات او مبادرات العلاقات العامة بين الاطراف .

ثم ان الزيارة بدأت على أساس شروط أعلنتها اسرائيل وسمعت بها القاهرة ، ومؤداها ان اسرائيل لا تنوي الانسحاب الكامل الى خطوطها قبل يونيو ١٩٦٧ مهما كانت الظروف ، وانها في كل الاحوال ليست على استعداد لقبول قيام دولة فلسطينية مستقلة .

ذلك أعلن قبل الزيارة ، وعندما تتم الزيارة بعده فمعنى ذلك انها تتم على أساس قبوله والاعتراف به .

٣ ـ ولم يستبعدوا مثلا احتمال ان يكون الدافع الى الزيارة ما تصوروه في اسرائيل عن سوء الاحوال الاقتصادية في مصر .

وقد كانوا يعرفون حجم المساعدات العربية لمصر ، وكانوا يعرفون أيضا ان معين هذه المساعدات لم ينضب ، ولكنهم قدروا بين ما قدروه أن يكون صبر مصر قد نفذ وتحملها قد استنفذ .

٤ ـ ولم يستبعدوا مثلا احتمال أن يكون نفاد صبر مصر من احراز أي تقدم نحو حل المشكلة عن طريق مؤتمر جنيف بين دوافع الزيارة .

ان الطريق الى جنيف كان يبدو مسدودا ، وهم يعرفون ذلك لأنهم تولوا بانفسهم قطع مسالكه .

ولقد خطر لهم ان مصر في النهاية لم تعد تريد مؤتمر جنيف لأن الأطراف العربية الأخرى سوف تعرقل تقدمه ، ثم ان اشتراك السوفيت فيه ـ مع سوء العلاقات المصرية السوفيتية ـ سوف يكون عنصر تعويق اضافي من وجهة نظرها ،

وكان بين تقديراتهم ان البيان الامريكي السوفيتي الاخير ـ الذي أعاد للدور السوفيتي في حل ازمة الشرق الأوسط فاعليته ونشاطه ـ قد أصاب القاهرة بضيق شديد .

٥ ـ أخيراً رجحوا مثلاً أن يكون احتمال المناورة لكسب تأييد الرأي العام الامريكي لصالح مصر ـ وعزل اسرائيل بالتالي عن أهم قواعد قوتها ـ بين اهم العوامل التي دعت الى الزيارة ، ولقد أحسوا بالأثر الدرامي الذي احدثته مشاهد القدس والذي بدت فيه الرحلة الى المدينة وكأنها الرحلة الى سطح القمر .

(وأشار الجنرال « ديان » في هذا الصدد الى حقيقة أن طائرة الرئيس السادات الى القدس حملت داخلها اكبر ثلاثة من مذيعي التليفزيون الامريكي ، وهم : « والتر كرونكايت » نجم اذاعة سي . بي . اس . ـ و « بربارة والترز » نجمة اذاعة اي . بي . سي . ـ و « جون تشانسلور » نجم اذاعة ان . بي . سي . ـ ولاحظ الجنرال « ديان » أن « بربارة والترز » كانت اصلا في القدس تجري مقابلة مع « مناحم بيجين » ، ولكن طائرة مصرية خاصة حملتها الى الاسماعيلية قبل موعد الزيارة بساعات ، لكي تنزل ـ مع الآخرين ـ وراء الرئيس السادات لحظة نزوله في مطار بن جوريون .

ولا يمكن أن يكون لهذه الترتيبات كلها هدف غير تعبئة الرأي العام الامريكي) .

٦ ـ وكان استنتاجهم بعد ذلك محددا ، وهو أن يكون احتمال الضغط على الادارة الامريكية وعلى رئيسها « جيمي كارتر » أهم دواعي الزيارة اطلاقا ، ويكون هدف هذا الضغط على الرئيس الامريكي هو أن يقوم هو بدوره بالضغط على اسرائيل .

كانت هذه هي الخطوط التي سارت عليها افكارهم وتحليلاتهم وتقديراتهم بالنسبة لحقيقة الدوافع الى رحلة القدس ، وللنوايا الحقيقية وراءها !

□

واستنادا الى مصدري - الـذي أشرت اليه - فانهـم في هذا الاجتماع وفي اجتماعات لاحقة قدروا أنهم لا يستطيعون على الفور رسم سياسة طويلة الأجل ، فهذه تحتاج الى درس أوسع وأعمق ، وحتى يتوصلوا اليها فقد اعتمدوا خطوط سياسة قصيرة الأجل ترتكز على ما يلي :

١ - محاولة كسب الوقت حتى يضيع الأثر الدرامي لرحلة القدس ، ويخبو وهجها في كل خيال تابع وقائعها مستثارا ومنبهرا ، ثم تبدأ المشاكل الحقيقية للصراع في الظهور واحدة بعد الأخرى بعيدا عن الأجواء الاسطورية وضغوطها .

ولقد وضعوا لمحاولة كسب الوقت خططا واساليب ، بينها ان يكون ساسة اسرائيل اول القائلين بأن عليها « الآن ان تقدم تنازلات هائلة لم تكن في حساب أحد » ، وكان الهدف هو امتصاص التوقعات التي راحت تنتظر رد اسرائيل على المبادرة .

٢ - محاولة قصر الاتصالات في المرحلة اللاحقة للزيارة مباشرة على مصر واسرائيل وحدهما ، على أن يظل الآخرون بعيدا ، وكان اقصى دور تريده اسرائيل للولايات المتحدة الامريكية هو دور الشاهد ، وكان اقصى دور تريده اسرائيل للامم المتحدة هو دور المتفرج .

ومن هذا المنطق كان ترحيب اسرائيل باقتراح اجتماع القاهرة .

ولقد احس « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكية بحدود الدور المطلوب من أمريكا ، فبعث بمساعده « آثرتون » الى اجتماع مينا هاوس ليكون مجرد « مسهل للأمور » Facilitator ، وكان هذا دورا جديدا في السياسة الدولية .

كذلك أحس « كورت فالدهايم » السكرتير العام للامم المتحدة بحدود الدور المطلوب من المنظمة الدولية ، فاعتذر عن أن تكون رئاسة جلسات مؤتمر القاهرة للجنرال « سيلاسفو » ، وكانت تعليماته اليه أن يحضر وأن يراقب لا أكثر ولا أقل .

□

وراحت الايام تمر . . . أيام بعد أيام .

وانعقد مؤتمر القاهرة ، وجاء الوفد الاسرائيلي برئاسة « الياهو بن اليسار » مدير مكتب مناحم بيجين وهو رجل مخابرات سابق لا علاقة له بعمليات التفاوض ولا بالقضايا السياسية في الصراع العربي الاسرائيلي !

ومنذ اللحظة الأولى راح هذا الوفد يضيع الوقت في قضايا شكلية ، ولكنه كان الشكل الذي يمس الجوهر مباشرة .

لاحظ رئيس الوفد الاسرائيلي ان هناك مقاعد خالية لوفد فلسطيني ، وبادر الى الاحتجاج ، وتقرر رفع اللوحة التي تشير الى فلسطين من فوق المائدة امام مجموعة المقاعد الخالية للوفد الذي لن يجيء ، واذا جاء فلن يدخل .

ثم جاءت ورقة من خارج قاعة الاجتماع ، فوضعت امام « بن اليسار » ، واعتدل في مقعده وقال بطلاقة غريبة :

ـ لقد لفت نظري الآن الى أن هناك اعلاما معلقة على مدخل الفندق الى قاعة المؤتمر ، وكان بينها علم مجهول لم نستطع تمييز هويته ، ونحن نطلب رفعه .

وكان هذا هو العلم الفلسطيني .

واستجابة له تم رفع العلم بعد الاعتذار بأن تعليقه كان بمبادرة من ادارة الفندق .

□

وانتهت مناورات الشكل القريب من صميم الموضوع ، وبدأت عملية الدخول الى مقدمات الموضوع نفسه .

ولكي يجدد « بن اليسار » موقفه فانه انتهز اول فرصة مواتية ، وفي نفس

جلسة العمل الأولى للمؤتمر ، لكي يعيد تأكيد ما سبق أن أعلنه « مناحم بيجين » قبل اتمام الزيارة ، وهو :

١ ـ ان اسرائيل لن تقبل في أي ظرف من الظروف بمبدأ الانسحاب الى خطوط ما قبل يونيو ١٩٦٧ ـ فذلك خارج حتى عن منطوق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي يشير الى الانسحاب من « اراضي » احتلت سنة ١٩٦٧ ، ولم يشر هذا القرار الى « الأراضي » التي احتلت سنة ١٩٦٧ .

٢ ـ ان اسرائيل لن تقبل بأي حال من الاحوال بقيام دولة فلسطينية مستقلة ، بالقرار رقم ٢٤٢ تحدث عن مشكلة اللاجئين ولم يتطرق الى قضية شعب أو قضية دولة .

وبصرف النظر عن أي تحديد فقد كان واضحا أن « بن اليسار » يريد عمليا أن يناقش مسألة واحدة :

- ترتيبات السلام العمليةعلى الجبهة المصرية وحدها .

ولم يتردد في أن يقول لـ « آثرتون » المندوب الامريكي صراحة :

ـ كيف يمكن ان اناقش قضايا تتعلق بالسوريين والأردنيين وهم ليسوا موجودين في هذا الاجتماع ، وفي نفس الوقت فان الوفد المصري لا يحمل تفويضا منهم يخوله التحدث باسمهم ونيابة عنهم !

ووصل مؤتمر القاهرة الى طريق مسدود .

الوفد المصري يريد أن يبدأ ببحث الانسحاب ، والوفد الاسرائيلي يريد ان يبدأ بترتيبات السلام .

والوفد المصري يريد أن يناقش مشروعا باعلان مبادىء للتسوية العامة تنطبق على كل الجبهات ، والوفد الاسرائيلي لا يرى أمامه غير الوفد المصري وحده ، ثم أن

هذا الوفد لا يحمل تفويضا من أحد !

وجلسات مؤتمر القاهرة لا تكاد تنعقد الا وتنفض ، فلم يزد مجموع الوقت الذي استغرقه العمل الفعلي فيه عن ساعتين واربعين دقيقة على امتداد خمسة عشر يوما تقريبا .

(كانت تكاليف عقد المؤتمر بما في ذلك الضيافة ـ بمعدل مائة الف جنيه مصري كل يوم !) .

□

وبدا أن مؤتمر القاهرة لا يمكن أن يستمر ـ بغير منطق ولا هدف ـ أكثر مما استمر ، وكان لا بد من خطوة اخرى ، واظن ان اسرائيل في تلك الفترة من شهر ديسمبر ١٩٧٧ احست بأن الوقت قد حان لكشف بعض الأوراق .

ان السياسة القصيرة الأجل ادت بعض اغراضها ولم يعد ممكنا لها وحدها ان تتحمل الضغط . . . ان هذه السياسة قصيرة المدى صدت تيار الحوادث وهدأت سرعة تدفقه ، ولكنها الآن في حاجة الى دفع جديد .

وكانت القيادة السياسية الاسرائيلية ـ معززة باجهزة الرصد والتحليل ـ قد توصلت في بحث سياستها على المدى الطويل الى خطوط مشروع شبه متكامل .

ومن تقديراتهم « للدوافع والنوايا » المصرية (اي أن المبادرة مناورة ، وأن هدفها هو الولايات المتحدة) ـ فان بيجين قرر عرض مشروعه على الرئيس الامريكي جيمي كارتر قبل عرضه على مصر ، وهكذا طار رئيس الوزراء الاسرائيلي الى واشنطن يعرض مشروعه في البيت الأبيض ، وعلى قيادات الكونجرس ، وعلى الرأي العام الامريكي ، كأنه يريد أن يحمي ظهره تماما قبل أن يتقدم بمشروعه في الاسماعيلية .

وبينما « بيجين » لا يزال في الطريق من واشنطن الى اسرائيل ـ طار « أيزر

وايزمان » وزير الدفاع الاسرائيلي الى القاهرة يحمل صورة من المشروع الاسرائيلي ، واهم ما فيه ـ بالنسبة لمهمته في القاهرة ـ خريطة لسيناء رصدت عليها الخطوات المقترحة من وجهة النظر الاسرائيلية .

وكانت الخريطة مزعجة سواء في ذلك خطوط مراحل الانسحاب كما تتصورها اسرائيل ، او مواقع المطارات التي تريد التمسك بها ، او عوازل المستعمرات التي اقامتها في شمال سيناء .

ولم يتصور أحد من الذين اطلعوا على الخريطة في القاهرة ان هذه هي كلمة اسرائيل في الرد على المبادرة ، وكان التعليق بسرعة : ان ذلك بالون اختبار مما تلجأ اسرائيل لاطلاقه حتى تستكشف الاجواء قبل مؤتمر الاسماعيلية .

وجاء مؤتمر الاسماعيلية ، وكان صدمة ، فلقد ظهر ان خريطة « وايزمان » لم تكن بالون اختبار ، وهكذا انهار مؤتمر الاسماعيلية ، وكان الشاهد على انهياره وقائع المؤتمر الصحفي الذي شارك « بيجين » فيه عقب انتهاء الجلسات ، ولست اظنني في حاجة الى العودة تفصيلا الى وقائع ذلك المؤتمر الصحفي ، فهي ما زالت ماثلة للأذهان .

□

وانتهى صباح ليلة الفرح .

ذهبت بقايا النشوة في الرؤوس وجاءت لحظة الحقيقة !!

صباح ليلة الفرح ٣

أمريكا بين غير المقبول
وغير المحتمل!

كانت الولايات المتحدة الامريكية هي الطرف الذي قدر منذ البداية ان صباح ليلة الفرح سوف ينتهي بذهاب النشوة وبقاء الصداع . والسبب بالطبع أن الولايات المتحدة ـ ودون كل القوى المتصلة بالأزمة والداخلة في حركتها ـ كانت وحدها تعرف المواقف الحقيقية لاسرائيل ولمصر ، وتدرك مدى المسافة الشاسعة التي تفصل بينهما !

□

وربما استطعنا ان نقول ـ مع ما قد يبدو في القول من تعارض ـ أن الولايات المتحدة فوجئت ولم تفاجأ في الوقت ذاته برحلة القدس :

● لم تفاجأ لأنها كانت الداعية باستمرار الى « ضرورة التخلص من العقد القديمة » التي تحول دون اجراء مفاوضات مباشرة بين العرب واسرائيل ـ ولأنها كانت على صلة بالجهود المبذولة لترتيب لقاء بين السادات وبيجين .

● ولكنها فوجئت باقتراح الزيارة للقدس ، وكان تقديرها ان الوقت ما زال مبكرا للقيام بهذه الزيارة ، لأن هذه الزيارة يمكن أن تجيء في نهاية عملية طويلة وختاما لها ، وليس في بداية هذه العملية وافتتاحا لها .

وكان اوضح تعبير عن هذا المعنى هو ما قاله الأستاذ « مالكولم كير » في مقال نشرته له صحيفة « لوس انجلوس تيمس » بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٧٧ ـ بالنص ما يلي :

« أن كل الأطراف العربية المعنية كانت على استعداد للذهاب الى جنيف لتحصل على انسحاب من الأراضي العربية المحتلة واعلان مبدأ قيام الدولة

الفلسطينية ، في مقابل الورقة الوحيدة التي كان العرب يملكونها ، وهي قبول اسرائيل في المنطقة بعد حروب دامت ثلاثين سنة .

« ان زيارة للقدس ، واكليل زهور على قبر الجندي الاسرائيلي المجهول ، وتبادل النكت مع جولدا مائير ـ كل هذا كان يمكن ان يكون طبيعيا بعد التوقيع النهائي على اتفاقية سلام .

« ان الورقة الوحيدة التي يملكها العرب ألقيت على المائدة قبل أن تبدأ اللعبة » .

وأهمية هذا الكلام لا تجيء فقط من أن « مالكولم كير » واحدٌ من أبرز أساتذة العلوم السياسية في أمريكا ـ ولكن لأنه كان واحدا من واضعي تقرير معهد « بروكينجز » الشهير الذي اعتمده الرئيس الامريكي « جيمي كارتر » أساسا لجهوده من اجل حل ازمة الشرق الاوسط !

مهما يكن فلقد كان التقدير الأمريكي ـ ومصدري هنا أحد مستشاري البيت الأبيض الذين يجلسون أحيانا في اجتماعات مجلس الأمن القومي الأمريكي ـ على النحو التالي :

١ ـ ان الزيارة سوف تخلق توقعات جامحة بامكانية التوصل الى حل مرض وسريع . . . حل درامي يتناسب مع دراما الزيارة نفسها ، وذلك امر يصعب تصوره في الظروف الموضوعية المحيطة بازمة مستعصية كأزمة الشرق الاوسط .

٢ ـ ان الزيارة على هذا النحو دليل على وجود رغبة في القفز فوق الدور الأمريكي ـ وليس فقط الدور السوفيتي ـ في محاولات حل الأزمة .

وكانوا في واشنطن على علم بعبارة نسبت الى « موشي ديان » وزير الخارجية الاسرائيلي ، وورد فيها قوله موجها لبعض الوسطاء بين مصر واسرائيل :

« قولوا للمصريين أننا لسنا سعداء بالولايات المتحدة وراءنا ، كما لم تكونوا

سعداء بالاتحاد السوفيتي وراءكم » .

ثم ان الرغبة في القفز لا تقتصر على مجرد تجاهل دور القوتين الأعظم ، ولكن القفز كان ايضا فوق مؤتمر جنيف وكل اطرافه واطار الأمم المتحدة الذي يحيط به .

٣ ـ ان النجاح الوحيد الممكن بعد هذه الزيارة هو الوصول الى حل ثنائي منفرد بين مصر واسرائيل ، ومثل ذلك الحل قد تكون له تأثيرات غير ملائمة على مجمل العلاقات الامريكية بدول المنطقة العربية كلها .

ان مصر واسرائيل كلتيهما قد تركزان اهتمامها على مجال العلاقات المباشرة بينهما ، ولكن الولايات المتحدة مضطرة الى موازنة علاقاتها باقليم كامل واتتها فيه أخيراً فرصة لم تكن تخطر على البال ، وهي لا تريد لهذه الفرصة أن تضيع . ولقد انتهزت هذه الفرصة فمدت صلاتها الى كل الأطراف ، وهي الآن على غير استعداد لأن يشعر طرف من هذه الأطراف انها تخلت عنه في منتصف الطريق بعد أن خدعته في اوله .

٤ ـ ان بعض ما هو محتمل الحدوث قد يؤثر على سمعة ومكانة الدول التقليدية في المنطقة العربية ، وبخاصة السعودية التي بقيت نقطة الارتكاز الأساسية في سياسة امريكا العربية . وموقف السعودية موقف له حساسيته الخاصة ، فان السعودية تصدرت محاولة تصفية بقايا الثورة الاجتماعية في المنطقة ، ولكنها لا تستطيع ـ ولا تملك ـ لاسباب عديدة أن تقبل بما يمكن ان يبدو تصفية للقضية القومية العربية !

٥ ـ ان النجاح ـ حتى فيما يتعلق بتسوية مصرية اسرائيلية منفردة ـ ما زال بعيدا تعترضه مصاعب وعقبات ، سواء فيما يتعلق بالانسحاب الذي تطلبه مصر او ضمانات السلام التي تطلبها اسرائيل . ان الطرفين كليهما لم يعرف من النوايا الحقيقية للآخر غير ما جرى الاعلان عنه رسمياً . وفي الاتصالات المكتومة عن طريق الولايات المتحدة فان واشنطن رأت في بعض الأحيان ان تحبس عن كل طرف بعض ما قد يصدم تصوراته من مطالب الطرف الآخر ، وذلك حتى تظل العجلة دائرة !

٦ ـ وأخيراً فان جو الزيارة في حد ذاته أعاد الى اذهان كثيرين في البيت الأبيض الامريكي ذكريات « طريقة كيسنجر » ، وهي طريقة لا تعجبهم كثيرا ، فهي في رأيهم تعطي لمتفرجي التليفزيون صورا اكثر إثارة ، ولكنها لا تعطي للمشاكل الحقيقية حلولاً أكثر واقعية .

□

يقول محدثي وهو ـ كما أسلفت ـ أحد مستشاري البيت الأبيض ، الى جانب عمله كأستاذ في واحد من أكبر مراكز العلوم السياسية في الولايات المتحدة :
ـ لقد جلسنا في احدى اللجان نحاول أن نبحث عن الدافع لزيارة القدس ، وطال بحثنا بغير نتيجة ، وأخيرا قال أحدنا :

« لماذا نحاول دائما ان نبحث عن سبب عقلاني محدد وراء أي قرار سياسي ؟ لماذا نفترض أن يتصرف الآخرون على غير ما نتصرف به أحيانا ؟ وهل نحن هنا في الولايات المتحدة نتصرف دائما من وحي سبب عقلاني محدد .

تعالوا نتذكر ما حدث مرة في اجتماع لمجلس الأمن القومي ، وكان يرأسه ريتشارد نيكسون وبجواره هنري كيسنجر مستشاره ـ في ذلك الوقت ـ لشئون الأمن القومي .

كان البحث عن فيتنام والتطورات الاخيرة فيها .

وكنا نحن ـ مجموعة من المستشارين والأساتذة ـ قد وضعنا آراءنا والخيارات التي نقترحها للقرارات امام المجلس ، وانتهى المجلس ، وعرفنا ان قراره هو « تصعيد الغارات الجوية على فيتنام الشمالية » ، وأصبنا جميعا بالذهول ، فلم يكن هناك قط في توصيات احدنا خيار يقترح تصعيد الغارات ، فمن أين جاء هذا الاقتراح ودوافعه ، مع العلم باننا جميعا رأينا منذ اللحظة الأولى مخاطره ؟

وأحاط عدد منا بـ « هنري كيسنجر » يسألونه، وكان رده :

ـ ان الرئيس لم يجد أمامه خيارا يعجبه ، وكان يشعر شعورا طاغيا بانه لا بد

من عمل شيء . . . لا بد من عمل شيء ما .

ومنذ ذلك اليوم اطلق بعضنا على تلك التجربة وصف « نظرية ضرورة عمل شيء ما » !

ونظر اليّ محدثي وسألني :

ـ هل اكون على خطأ كبير اذا قلت أن قرار الزيارة الى القدس نبع من احساس طاغ بـ « ضرورة عمل شيء ما » ؟ !

□

واستطرد محدثـــي :

ـ كان السؤ ال الذي واجهنا بعد ذلك هو : ما العمل ؟

كان الرأي الأول الذي برز وطرح نفسه أمامنا هو :

ـ ليس امامنا غير مراقبة ما يجرى من بعيد . . . هذه مفاوضات مباشرة بين طرفين لم يستشرنا أحدهما مقدما فيما ينوي أن يفعله ، وهم على أي حال لم يطلبوا منا عمل شيء ، وليس في مقدورنا أن نطلب اليهم عمل شيء . . . المسئولية عليهم وحدهم .

ان هذا الرأي ما لبث ان تراجع لسببين أساسيين :

● السبب الأول : احساسنا بأن الرهان في الشرق الأوسط قد ارتفع بطريقة فادحـة على كل الأطـراف ، سواء ارادت او لم ترد . . . سواء استشـيرت أو لم تستشر .

ان الرهان راح يتزايد مع كل لحظة حتى وصل في لحظة من اللحظـات الى الرهان على الرصيد كله : تكسب فتأخذ كل شيء . . . تخسر فتفقد كل شيء .

ولم يخدع أي منا نفسه ، فان رصيد الولايات المتحدة ذاتها دفع ، حتى بالرغم منها ـ الى المائدة ، فهي صاحبة أكبر المصالح في الشرق الأوسط ، ثم هي أقرب الأصدقاء الى الجالسين على مائدة الرهان ، وضمانها لهم قائم بدون انتظار توقيعها .

● والسبب الثاني : ان المأزق قادم في الطريق ، وسوف نواجهه أمامنا بأسرع مما يتصور كثيرون ، ولم تكن لدينا معلومات ، وانما كان لدينا « علم المفاوضات » ذاته كفرع من أهم فروع العلوم السياسية ، و« علم المفاوضات » يقول لنا أنه لا بد من وسيط في القضايا الدولية التي تتصادم فيها مصالح وآراء الأطراف تصادماً كاملاً . ذلك أن المفاوضات بينهم سوف تظهر العقبات الناجمة من اختلاف النظر للأمور ، واذا لم يكن هناك طرف ثالث بين المتفاوضين فان اول خلاف في وجهات النظر سوف يكون أول مأزق تتوقف عنده العملية كلها !!

وهكذا فان مصالحنا كانت كلها هناك على مائدة الرهان الكبير .

ثم انه اذا كانت مائدة المفاوضات سوف تحتاج بسرعة الى طرف ثالث يحول دون المأزق ـ فان الولايات المتحدة وحدها تستطيع أن تكون هذا الطرف الثالث .

وهكذا قلنا لأنفسنا انه مهما كانت تحفظاتنا ـ فان توقعاتنا تدعونا الى الاقتراب مما يحدث ومتابعته عن كثب ! .

□

واستطرد محدثي :

ـ نظرياً كان قرارنا بالاقتراب مما يحدث ومتابعته عن كثب مسألة سهلة ، ولكنه عملياً كان مشكلة في منتهى الصعوبة .

لا بد أن تتذكر هنا نوعية وظروف الرجال الذين كان في يدهم مفتاح القرار الامريكي :

أولهم وهو الرئيس « جيمي كارتر » : بعيد عن السياسة الدولية بتكوينه وبتجربته في الجنوب ، وهو على استعداد لأن يسمع ويفهم ويتعلم ، ولكن ذلك يحتاج الى وقت .

« أيزنهاور » مثلاً كان قبل دخوله البيت الأبيض قائداً لقوات الحلفاء في أوروبا ، وهناك عرف العالم واتصل بمشاكله .

« كنيدي » نفس الشيء ، وكذلك « جونســون » .

أحسنهم جميعاً في معرفة ما يدور في العالم كان « نيكسون » ، ولكن « جيمي كارتر » كان ظاهرة جديدة في الولايات المتحدة . . . من متجر فول سوداني في الجنوب الى المكتب البيضاوي في البيت الأبيض !

● ثانيهم وهو « سيروس فانس » وزير الخارجية : قضى حياته كلها محامي شركات كبرى ، وهناك تعلم أن « الحل الوسط » هو باب كل تسوية .

ولكن أزمة الشرق الأوسط تواجهه بتجربة أخرى .

اسرائيل تطلب الأمن « الكامل » ، ومصر تطلب الانسحاب « الكامل »

وأي شيء « كامل » لا يمكن أن يكون حلاً وسطاً يهضمه عقل « سيروس فانس » او توحي به تجربته !

● ثالثهم وهو « زبجنيو برجينسكي » مستشار « كارتر » للأمن القومي : انه مثل « هنري كيسنجر » خبير في العلاقات بين القوتين الأعظم ، وكل القضايا الدولية تثير اهتمامه بمقدار ما تمس العلاقات مع الاتحاد السوفيتي .

وميزة « كيسنجر » على « برجينسكي » أن « كيسنجر » ممثل من الدرجة الأولى . . . . نجم من المع طراز ، وليس « برجينسكي » كذلك ، وهكذا فان الأضواء تفزعه ، بينما كيسنجر لا يستطيع أن « يبدع » الا اذا كانت كل الأضواء مسلطة عليه .

لاحظ أنني لم أقل أن كيسنجر « يحل » ولكن قلت أنه « يبدع » .

مشكلة برجينسكي أنه يريد أن « يحل » ولا يهمه أن « يبدع » تحت الأضواء ، وربما كان لا يعرف ـ حتى لو أراد ـ كيف « يبدع » تحت الأضواء !

□

واستطرد محدثـي :

ـ كان « برجينسكي » على أي حال هو الذي توصـل الى « صياغـة » عملية للموقف الامريكي ، خصوصا بعد أن وصلت الأمور الى المأزق فعـلا بعـد لقـاء الاسماعيلية ، وعادت الأطراف الى الاتجاه الينا مرة أخرى لنفتح ثغرة في السد الذي توقف أمامه الطرفان :

● عاد « بيجين » يؤكد لنا مرة أخرى طلبه بأن نظل بعيدا ولا نتدخل فنفسد المحاولة المباشرة بينه وبين السادات ، لأننا بذلك نكون كمن يجهض المبادرة ويعود بالأمور بعدها الى ما كانت عليه قبلها .

● وعاد « السـادات » يقـول أن ٩٩ في المائـة من الأوراق ما زالـت في يد الولايات المتحدة ، وأنه يتحتم علينا أن نتدخل بينه وبين بيجين ، والا كنا كمـن يتخلى عن المبادرة وتعود الأمور بعدها الى ما كانت عليه قبلها .

وكان موقفنا في تلك اللحظة كما يلي :

● ● ان المبادرة نفسها كانت شيئاً « غير مقبول » بالنسبة لنا عندما بدأت .

● ● ان فشل المبادرة سوف يصبح شيئاً « غير محتمل » بالنسبة لنا .

لعلك تتذكر أن أي موقف سياسي هو في الحقيقة مفاضلة بين « غير المقبول » و « غير المحتمل » في أي مشكلة . . .

أن المشاكل السياسية المعقدة لا تطرح على أحد مواقف مريحة ، والا ما كانت هناك أزمات ، لكننا نختار « غير المقبول » لأننا لانستطيع مواجهة نتائج « غير المحتمل » !

وأظن أن « برجينسكي » كان يفكر على هذا النسق أو على نحو قريب منه وهو يحاول وضع صياغة عملية للموقف الامريكي .

وتتابعت خطوط تفكيره على النحو التالي :

١ ـ ان الحركة الذاتية للمبادرة لا تعطيها غير طريق واحد للنجاح ، وهذا الطريق هو طريق تسوية ثنائية بين مصر واسرائيل ، فهذا وحده هو الموضوع الذي يملك الطرفان المتحادثان بحثه في حدود اتصالهما المباشر معاً .

٢ ـ ان الوصول الى هذه النتيجة خطر ، فالرئيس السادات لا يريده، ثم ان الوصول اليه يؤدي الى قطيعة كاملة بين مصر والعالم العربي ، وهذا يفقد مصر دورها العربي ، وهذا الدور مطلوب لأنه في الظروف الراهنة يؤثر لصالح الاعتدال في المنطقة عموما ، وفوق ذلك فان الحل المنفرد يصعب تمريره خصوصاً ازاء السعودية وغيرها من دول شبه الجزيرة العربية والخليج .

٣ ـ هكذا فان المفاوضات المصرية الاسرائيلية لا بد من تغطيتها باسرع ما يمكن ، ولا تتحقق مثل هذه التغطية الا بعنصرين :

● العنصر الأول ـ ان يتقدم الملك « حسين » ملك الأردن للمشاركة في هذه المفاوضات فيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة .

● والعنصر الثاني ـ أن تقوم دول المساندة بتشجيع هذه العملية ، ولو من بعيد ، وأن يكون صمتها أقرب الى الموافقة منه الى الرفض .

ولكن المشكلة أن الملك « حسين » رفض أن يتقدم لأنه حتى الآن لم يجد أساساً صالحاً يتقدم عليه للمشاركة في المفاوضات ، كما أن الملك « حسين » يبدو

يائساً من امكانية حدوث « مرونة » مفاجئة مع المطالب الاسرائيلية ، وقد قال لمن سألوه :

ـ انني حاولت بمفردي سبع سنوات مع الاسرائيليين عن طريق الولايات المتحدة وبطرق أخرى ، ولم أجد معروضاً عليّ غير مشروع آللون ، وهو شيء لا أستطيع قبوله . . . منذ انتهت معارك ١٩٦٧ الى صدور قرار الرباط لم يكن أمامي غير مشروع آللون ، وأنا لا أستطيع تحمل مسئوليته .

٤ ـ ان المفاوضات المصرية الاسرائيلية لا تستطيع ـ مهما كان ويكون ـ أن تنتظر انضمام أطراف اخرى ، ولهذا فان التقدم الثنائي ممكن مع استمرار فتح الباب في مرحلة لاحقة لانضمام الطرف الثالث الأردني .

وعلى هذا الأساس فان المفاوضات المصرية الاسرائيلية ينبغي أن تبحث شيئين :

● أولهما : مشروع تسوية مصري ـ اسرائيلي .

● والثاني : مشروع عام باعلان المبادىء التي تجرى على أساسها التسوية الشاملة ، بحيث يعتبر هذا الاعلان مرجعا للحل على الجبهات الأخرى .

ولكن مشروع التسوية المصري الاسرائيلي ما لبث أن ارتطم بالمطالب الاسرائيلية في سيناء ذاتها ، وبالذات مطالب المطارات والمستعمرات وجداول الانسحاب وتوقيتاته .

كذلك اصطدم مشروع الاعلان العام بمبادىء التسوية برغبة مصر ان يكون هذا الاعلان واضحا ومفصلا ، ورغبة اسرائيل ان يكون هذا الاعلان أشد غموضاً من صياغة قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ .

٥ ـ ان السيناريو ـ كما يتصوره « برجينسكي » ـ لا يعطي لسوريا شيئاً في هذه المرحلة ، فأساس صياغة « برجينسكي » يقوم على أنه :

اذا امكن الوصول الى تسوية مصرية اسرائيلية معقولة . . .

واذا امكن تغطيتها باشتراك الأردن وبموافقة الصامتين . . .

واذا أمكن وضع اعلان عام بمبادىء التسوية على كل الجبهات . . .

اذا أمكن تحقيق ذلك كله ، فان سوريا تستطيع أن تختار وقتها كما تشاء .

وكان رأي « برجينسكي » أن سوريا وقتها سوف تشعر بالعزلة ، وأنها وقتها سوف تواجه مشاكل داخلية كثيرة ، ثم أنها سوف تجد نفسها أمام قضية أمن بالغة الخطر خصوصا وأن تورطها في لبنان يجعلها مكشوفة ، وكذلك فان اسرائيل لا تتمنى أكثر من لحظة ترى فيها الضوء الأخضر أمامها ، ومن ثم تنطلق الى احتلال الجنوب اللبناني لاخراج الفلسطينيين منه ولتأمين منابع مياه نهر الأردن فيه !

□

واستطـرد محدثـي :

ـ ان السؤال الحرج الذي يواجه سيناريو « برجينسكي » هو : هل الوقت في صالحه أو أن الوقت ضده ؟ ان هذه العملية ـ حتى مع التفاؤل الشديد ـ لا يمكن ترتيبها في فترة زمنية أقل من سنتين أو ثلاث سنوات .

هذه هي أقل مدة لازمة لكي تستطيع الأطراف تعديل مواقفها والانسجام مع صياغة « برجينسكي » ، بالطبع الا اذا حدثت مفاجآت ، ومع أن المفاجآت لا يمكن استبعادها من سياسات الشرق الأوسط الا أن الولايات المتحدة نفسها لا تستطيع التخطيط والحركة على أساس المفاجآت .

انها تفضل الاعتماد على التطور الطبيعي ـ والبطيء عادة ـ للأمور ، ولكن ماذا عن التفاعلات الاجتماعية والسياسية في قلب المنطقة ذاتها ؟

ان أطرافاً كثيرة تطالبنا بالاسراع ، ويقال لنا دائماً أننا أمة تحب السرعة ، وهذا

صحيح ، ولكن سياراتنا الحديثة لا تستطيع أن تجرى بسرعة الا على طرق معبدة ، والطرق في الشرق الأوسط بحار من الرمال !

واستطـــرد محدثـــي :

ـ ان هنري كيسنجر على وشك ان يفرغ من كتابه ، وهو يبحث عن شاغل آخر لنفسه ، وهو لا يكف عن ارسـال الاشـارات في اتجـاه البيت الأبيض يقـول للرئيس انه جاهز لأي مهمة في الشرق الأوسط ، فهـو يعـرف تفـاصيل الأزمـة ، ويعرف اطرافها ، ويعرف مطالبهم ، ويعرف نقاط ضعفهم وقوتهم ، ثم هو أكثر من ذلك يعرف كيف يجعل الأمور تأخذ شكل الحركة السريعة بينما هي في الواقـع تكون ساكنة وجامدة ، وهذا فن لا يتقنه غيره . لكن الـرئيس لا يريد ، وكذلك « فانس » و « برجينسكي » أيضا .

□

واستطرد محدثي وقد انتقل من السياسة الى الفلسفة :

ـ أوقات مثيرة تلك التي نعيش فيها .

هل تذكر اللعنة الصينية التقليدية ؟

انهم عندما كانوا يغضبون من أحد في الصين القديمة كانوا يقولون له :

« اذهب ولتكتب لك الحياة في أوقات مثيرة » .

كانوا يعرفون أن الأوقات المثيرة مرهقة ومضنية ! .

صباح ليلة الفرح ٤

الاتحاد السوفيتي : أفكاره ومشاعره !

صباح ليلة الفرح كان الاتحاد السوفيتي يشعر بالمرارة في حلقه وعلى طرف لسانه . ولم يكن ذلك لأفراط بدا منه في ساعات النشوة والحبور . فهو لم يأكل ولم يشرب ولم يسهر ولم يرقص . ولم تكن عدساته أو ميكروفوناته من شهود مهرجان الألوان والأصوات الحافل . ولا رأت جماهيره ولا سمعت ، وربما لم تعرف حتى الآن أن شيئاً ما قد حدث في القدس !

واذن ففيم الشعور بالمرارة في الحلق وعلى طرف اللسان ؟

- هل هو ضد فكرة الزيارة المفاجئة ؟
- هل هو ضد الوصول الى تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط ؟
- هل هو خائف من نجاح لا يشترك في صنعه ؟

أو مـــاذا ؟

. . . .

. . . .

من سوء الحظ أنه ليس أمامنا في محاولة تحليل أي موقف للاتحاد السوفيتي غير استقراء الطبائع والتجارب ، ثم الاستنتاج على هدى قرائن وعلامـات تظهـر من بعيد ، وهي تنقل رسائلها بالرموز والايمـاءات ، ثم تختفي بنفس السرعـة التي ظهرت بها .

ومع ذلك فليس أمامنا غير أن نحاول ، آخذين هذه الاسئلة المطروحة عن

سبب الشعور بالمرارة في الحلق وعلى طرف اللسان ـ سؤ الا بعد سؤ ال .

□ □ □

● هل الاتحاد السوفيتي ضد فكرة الزيارة المفاجئة للقدس ، وهل هو ضد التغييرات السريعة في المواقف ، وما قد تعنيه من تنازلات ؟

الرد على هذا السؤ ال كما يلي :

١ ـ ان الاتحاد السوفيتي ليس غريباً على هذه المفاجآت ، ولا حتى على التغييرات السريعة في المواقف ، وما قد تعنيه من تنازلات ، ففي تجربته هو نماذج أكبر ـ من الناحية العالمية وتأثيرها ـ من أي شيء حدث في شهر نوفمبر الماضي في القدس .

ففي أغسطس ١٩٣٩ قام الاتحاد السوفيتي بأكبر انقلاب في السياسة الدولية ، حين عقد فجأة مع « أدولف هتلر » معاهدة صداقة وعدم اعتداء . كانت النازية منذ ظهورها هي العدو الأول والأكبر للاتحاد السوفيتي ، وكانت حربه ضدها عنيفة وشرسة ، وقد حشد وراءه كل الأحزاب الشيوعية في هذه الحرب . وفجأة ، بدون اعلان ، وصل « يواكيم ربنتروب » وزير خارجية المانيا النازية الى موسكو ، واتصلت المفاوضات أياما قليلة ، ثم انفجر اعلان الاتفاق كأنه قنبلة ذرية ، وظل العالم كله أياما شبه مغميا عليه .

ولكن الاتحاد السوفيتي تصدى للدفاع عن الانقلاب في سياسته ، وراح يبرره بانه في صالح السلام ، وجر وراءه الى موقفه الجديد كل الذين كانوا وراء موقفه القديم ، وكان بعضهم ينجر رغماً عنه وكأنه أسير لجام !

وظل الاتحاد السوفيتي يبرر ويبرر حتى صباح ذلك اليوم من صيف سنة ١٩٤١ ، حين اندفعت مدرعات ألمانيا النازية فجأة تجتاح حدوده ، وتنفذ في اهم جمهورياته ـ أوكرانيا ـ كأنها السكين في الزبد .

وعندها فقط عاد الاتحاد السوفيتي يتحدث مرة أخرى عن شرور الفاشية وجنون الهتلرية ، الى آخره .

والنقطة التي تعنيني هنا نقطة واحدة ، وهي أن الاتحاد السوفيتي ليس غريباً ـ بدليل تجاربه هو ـ عن المفاجآت ، ولا عن الأعداء الذين تقلبهم المناورات السياسية أصدقاء في طرفة عين .

٢ ـ وفيما يتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي فان الاتحاد السوفيتي لم يجد فيه في أي وقت من الأوقات ذلك التناقض الحاد الذي كان يراه بين الشيوعية والفاشية . وكثيرا ما أخطأ السوفيت في تحليلاتهم لدواعي هذا الصراع ، فنسبوه مرة الى التعصب الديني ، ومرة أخرى الى العصبية القومية ، ثم استطاعوا بعد عناء أن يصلوا الى قرب الحقيقة في دواعي ذلك الصراع .

ومع ذلك فان هذا الفهم المستجد لم يمنعهم من تقديم اقتراحات لا تختلف كثيراً عن مضمون زيارة القدس . وأتذكر أنه عقب نجاحهم في عقد مؤتمر طشقند سنة ١٩٦٦ لتسوية الخلافات بين الهند وباكستان ـ أن « اليكسي كوسيجين » بعث الى جمال عبد الناصر يسأله رأيه في « طشقند » ثانية بين العرب واسرائيل . وكان تصور « كوسيجين » أن يعقد اجتماع في طشقند بوساطته يحضره جمال عبد الناصر و « ليفي اشكول » ، ثم تجرى فيه تسوية الصراع العربي الاسرائيلي .

ورد جمال عبد الناصر على « كوسيجين » يقول له أن الصراع العربي الاسرائيلي أعمق جذوراً مما يمكن تصفيته على هذا النحو المقترح ، ثم أن الصراع عربي اسرائيلي وليس مصرياً اسرائيلياً .

وسقط الاقتراح من يومها ، ولم يبعث ثانية من قريب أو بعيد ، لأن الاتحاد السوفيتي ما لبث بعد ذلك سنة ١٩٦٧ أن قطع علاقاته باسرائيل ، وبالتالي لم يعد في وسعه أن يسعى بوساطة بين العرب وبينها !

والنقطة التي تعنيني هنا نقطة واحدة ـ أيضاً ـ وهي أن الاتحاد السوفيتي سبق

له أن اقترح على مصر شيئاً مماثلاً لما جرى في القدس ، وكان اقتراحه له في اطار مصري اسرائيلي كذلك !

٣ ـ والاتحاد السوفيتي بمنطقه ليس ضد التنازلات حتى وان وصلت الى حد التنازلات الاقليمية ، فهو يصل الى القول بأن سلامة الأوطان في سلامة نظمها التقدمية ، وأنه حتى اذا اضطر نظام تقدمي الى التسليم في بعض التراب الوطني ، فهذا جائز له ـ ! ـ مؤقتاً ، لأنه يستطيع تعديل موازين القوى في ظروف ملائمة تمكنه من استرداد ما تنازل عنه حين كانت الموازين ضده .

ويتذكر الرئيس « هواري بومدين » ـ مثلا ـ أنه حين قصد الى الاتحاد السوفيتي ومعه الرئيس العراقي السابق « عبد الرحمن عارف » في أعقاب معارك يونيو ١٩٦٧ ـ أن بعض القادة السوفيت كانوا ينصحون بالوصول الى تسوية سريعة لأزمة الشرق الأوسط ، حتى وان اقتضت تنازلات اقليمية عربية لاسرائيل ، وكان منطقهم أن العرب في جو التسوية سوف يتمكنون من اعادة بناء قوتهم ، وتعديل موازين القوى لصالحهم ، واسترداد ما ضاع منهم بالتالي في مستقبل أكثر ملاءمة لهم .

وكان القادة السوفيت يستشهدون في محاولتهم لاقناع الزعماء العرب بتجربة « لينين » عندما تنازل بمقتضى معاهدة « برست ليتوفسك » عن ثلاث لجمهوريات روسية ، ثم عاد الاتحاد السوفيتي واستردها في التسوية العامة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية .

ومرة أخرى ثالثة فان النقطة التي تعنيني هنا هي أن الوصول الى حد التنازلات الاقليمية مقبول بالمنطق السوفيتي .

....

....

واذن فان الجواب على أول الأسئلة المطروحة عن سبب الشعور بالمرارة في حلق الاتحاد السوفيتي وعلى طرف لسانه يصبح هو :

ـ لا أظن أن الاتحاد السوفيتي ضد فكرة الزيارة المفاجئة للقدس ، ولا ضد التغييرات السريعة في المواقف حتى وان كانت تعنى تنازلات اقليمية !!

□

● نصل الى السؤ ال الثاني ، وهـو :

هل الاتحاد السوفيتي ضد تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط ؟

والرد على هذا السؤ ال بدوره كما يلي :

١ ـ هناك حقيقة من الحقائق الكبرى في عالمنا المعاصر ، وعلينا أن نعيها ونستوعبها تماما في كل ما نتصرف به دوليا ، وهذه الحقيقة هي أن الشاغل الأكبر للولايات المتحدة هو الاتحاد السوفيتي ، كما أن الشاغل الأكبر للاتحاد السوفيتي هو الولايات المتحدة . ان كل خطوات السياسة الدولية لكل منهما ـ تقريباً ـ يجرى تخطيطها وتنفيذها وحساب نتائجها وفي الاعتبار بالدرجة الأولى تأثيرها على الآخر . أي أن واشنطن عنصر ثابت في أي قرار تتخذه موسكو بمقدار ما أن موسكو عنصر ثابت في أي قرار تتخذه واشنطن .

ومـن هذا المفهـوم فان الاتحـاد السوفيتـي يتصرف في الشرق الأوسط ـ كما يتصرف في غيره من المناطق في العالم ـ وعينه على الولايات المتحـدة اولا ، ونفس الشيء بالنسبة للولايات المتحدة .

وبمقتضى هذا المفهوم فاننا نجد أن الاتحاد السوفيتي يحاذر في منطقـة الشرق الأوسط بأكثر مما يحاذر في أي منطقة غيرها من العالـم ، والسبـب أنـه يعرف أن الولايات المتحدة تملك مصالح حيوية لا تستطيع الاستغناء عنها في الشرق الأوسط ، وأي تهديد حقيقي لها يعني حر با نووية لا شك فيها .

ان الاتحاد السوفيتي يعترف للولايات المتحدة في المنطقة بمورد طاقة ليس في

مقدورها أن تعيش بدونه ، واذن فهي سوف تقاتل دفاعاً عنـه ، وهـكذا يتصرف الاتحاد السوفيتي في المنطقة واضعاً لنفسه حداً لا يتخطاه ، وهو أن لا يصل في تحركاته الى درجة تشعر معها الولايات المتحدة أن هناك خطراً حقيقياً على منابع البترول .

ثم أن الاتحاد السوفيتي ـ الى جانب ذلك ـ يعرف أهمية الارتباط الامريكي باسرائيل .

ويعرف كذلك خطورة منطقة الشرق الأوسط كعقدة مواصلات جوية وبحرية وبرية .

وهكذا فان حذره في الشرق الأوسط أكثر مما يتصور أحد .

والاتحاد السوفيتي يدرك أن الصراع العربي الاسرائيلي يحتوي على شحنـات قابلة للانفجار الواسع .

ومن هنا فانه لا يكتفي بالحذر يفرضه على نفسه ، ولكنه يدعو اليه كل من يستطيع دعوتهم من العرب .

واظن ان كثيرين من الزعماء العرب سمعوا من القادة السوفيت مرات كثيرة مناشدة حارة لضبط النفس . . . وأعتقد أنهم ـ وبنفس الألفاظ تقريباً ـ قالوها لأكثر من مسئول عربي :

ـ لا بد أن تحاذروا . . . أنتم في منطقة يملك الأمريكان فيها مصالح حيوية لا يترددون في الحرب دفاعاً عنها ، ونحن نسلم أنها مصالح استعمارية ، ولكن الأمر يقتضي أسلوباً آخر غير الصدام المباشر الذي يمكن أن يؤدي الى انفجار عالمي . . . هل تريدون حرباً عالمية ؟ في الحرب العالمية الماضية فقد الاتحاد السوفيتي عشرين مليون قتيل . . . ولم تكن تلك حرباً نووية !

٢ ـ ان الاتحـاد السوفيتي يعتقـد أن الصراع العربـي الاسرائيلي كان فادح التكاليف بالنسبة له .

والـذين يعرفـون « أليكسي كوسيجـين » رئيس وزراء الاتحـاد السوفيتـي ـ وأظنني واحداً منهم ـ يعرفون غرامه بالأرقام ومقدرته الفائقة على حفظها . وهو لا

يتردد ـ بين وقت وآخر ـ في أن يلقي بنظرة آسفة ومتجهمة الى بعض زواره من العرب ثم يقول :

ـ ان العرب مدينون للاتحاد السوفيتي بخمسة عشر مليون روبل ، أي أكثر من خمسة عشر بليون دولار ، نصفها تقريباً ديون سلاح ،

ثم يستطرد « كوسيجيـن » :

ـ ومن يعلم اذا كنا سنستطيع تحصيل ديوننا ؟

ثم يكتسب صوت « كوسيجين » نبرة الفيلسوف الحائر ويقـول :

ـ ومع ذلك ما فائدة تكاليف هذا السلاح كله بالنسبة لكم وبالنسبة لنا . . . ان التنمية هي التي تبني القوة الحقيقية وليس السلاح !

ان السلاح يجيء بعد التنمية وليس قبلها .

قبل التنمية فان السلاح اهدار موارد ، وبعد التنمية فانه ـ في حدود معقولة ـ يصبح استثمارا مفيدا للأمن الوطني .

وأتذكر أن جمال عبد الناصر رد مرة على ملاحظة من هذا النوع لكوسيجين :

ـ ان ما أسعى اليه هو التوازن بين التنمية والسلاح ، فنحـن أمـام عدوان توسعي ، واذا لم تكن التنمية محمية فان ثمارها قد تقع بالكامل في يد العدو .

سنة ١٩٥٥ كان رأيي مثـل رأيك . . . كنـت أريد التنمية ولـم أكن أريد السلاح ، ولكن التوسع الاسرائيلي فرض عليّ أن أعيد النظر في موقفي وأن أحصل على سلاح أحمي به عملية التنمية كما أحمي به حدود الوطن .

ولست أظن أن « كوسيجين » اقتنـع تماماً . . . فان تساؤلات الفيلسـوف الحائر ترددت بعد ذلك في أقواله في أكثر من مناسبة .

هكذا رأيهم . . !

٣ ـ ان الاتحاد السوفيتي يعتقد ـ أو على الأقل يعتقد كثيرون فيه ـ أن الوصول الى تسوية لأزمة الشرق الاوسط سوف يفتح الباب للتفاعلات الاجتماعية الواسعة والعميقة على طول المنطقة وعرضها. وهذه التفاعلات مع التفاوتات الطبقية المخيفة في الشرق الاوسط سوف تدفع الى آفاق المنطقة بأفكارهم أو أفكار قريبة منها . وفي رأيهم أن التفاعلات التي تعقب التسوية قد تؤدي الى اسقاط سيطرة البورجوازية التقليدية القديمة في العالم العربي الى جانب البورجوازية الطفيلية الجديدة !

أي أن الشرق الأوسط سوف يجد نفسه بعد التسوية في « حالة ثورية » فوارة تعجل بتغييرات اجتماعية تعطلت بسبب الطابع الوطني والقومي للصراع مع اسرائيل !

. . . .

. . . .

واذن فان الجواب على ثاني الاسئلة المطروحة عن سبب الشعور بالمرارة في حلق الاتحاد السوفيتي وعلى طرف لسانه يصبح هو :

ـ لا أظن أن الاتحاد السوفيتي ـ لأسباب متعددة لديه ـ يعترض على تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط . . .

□

● يبقى السؤال الثالث ، وهو :

هل الاتحاد السوفيتي خائف من نجاح لا يشترك في صنعه ؟
والرد على هذا السؤال كما يلي :

١ ـ ان الاتحاد السوفيتي يرى ما يراه غيره ـ حتى الولايات المتحدة ـ من ان التسوية المقبولة ما زالت بعيدة ، لأن موازين القوة الحقيقية بين اطراف الصراع العربي الاسرائيلي ليست في الوقت الراهن في وضع يسمح بالتوصل الى تسوية مقبولة .

وما هو ممكن في الوقت الحاضر هو صلح منفرد بين مصر واسرائيل ، وهو أمر له مشاكله الضخمة ، وفضلاً عن ذلك فهو لا يستطيع أن يتيح سلاما .

والممكن الثاني في الوقت الحاضر هو تسوية أوسع من مصر واسرائيل ، ولكنها تستبعد أطرافا اساسيين في الصراع كالفلسطينيين ، ومثل هذه التسوية سوف تكون بالضرورة سلاما اسرائيليا ، وهو شيء يختلف عن السلام الحقيقي .

واذن فالتسوية بعيدة ، والقريب فقط هو المشاكل الناجمة عن التعثر على طريقها ، لأن موازين القوى لا تسمح باكثر من ذلك ؟

٢ ـ ان الاتحاد السوفيتي يدرك أنه لا يمكن أن تتم تسوية دائمة في الشرق الأوسط بدونه ، وحتى اذا أمكن استبعاده في بعض المراحل ، فان المرحلة الحاسمة ـ وهي مرحلة ضمان التسوية ـ سوف تكون مستحيلة بغير اشتراكه فيها .

بل انه اذا أراد بعض العرب استبعاد الاتحاد السوفيتي من ضمان التسوية فان الولايات المتحدة الامريكية نفسها سوف تصر على اشتراكه . . . بل أكثر من ذلك سوف تصر اسرائيل نفسها على اشتراك الاتحاد السوفيتي في الضمان .

٣ ـ ان الاتحاد السوفيتي يثق أنه ليس في مقدور احد ان يخرجه من الشرق الأوسط فضلا عن غيره من مناطق العالم التي يريد ويهمه التواجد فيها .

فالاتحاد السوفيتي واحدة من القوتين الأعظم ، وهي موجودة في الفضاء العالي لكل القارات ، وموجودة على سطح المحيطات والبحار وفي اعماقها .

ثم ان جوارها الجغرافي مع الشرق الأوسط يرقى الى مرتبة حقائق الطبيعة .

ثم ان عشرين سنة من العلاقات الوثيقة بين الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط لا يمكن ان تنتهي بالسكتة القلبية ، فهناك رموز لهذه العلاقات باقية : صلات سياسية وانسانية ، ومنجزات مشتركة تشير الى سدود ومصانع تدور فيها الحركة ليل نهار .

واخيراً فان الاتحاد السوفيتي ـ الى جانب كونه احدى القوتين الأعظم ـ عقيدة عالمية لها قوة جذبها في كل أرجاء الأرض ، خصوصاً تلك الأرجاء الفوارة بالتفاعلات الاجتماعية .

. . . .

. . . .

واذن فان الجواب على ثالث الأسئلة المطروحة عن سبب الشعور بالمرارة في حلق الاتحاد السوفيتي وعلى طرف لسانه يصبح هو :

ـ لا أظن أن الاتحاد السوفيتي خائف من نجاح في الشرق الأوسط لا يشترك في صنعه !

●

واذن لماذا المرارة في الحلق وعلى طرف اللسان صباح ليلة الفرح « في القدس ؟ !

بعض المرارة يمكن رده بالطبع الى حقيقة ان الاتحاد السوفيتي واجه نكسة سياسية محققة في الشرق الأوسط .

ولكن أي واحدة من القوتين الأعظم تستطيع ان تخسر جولة في منطقة من المناطق دون أن تشعر أن الأقدار تخلت عنها ، فخسارة جولة في أي صراع ليست نهاية التاريخ ، ثم ان ما يضيع في منطقة من العالم يمكن تعويضه بسرعة في منطقة

أخرى لأن الكرة الأرضية كلها هى ساحة مطامح ومخططات القوتين الاعظم .

واذن ـ مرة اخرى ـ لماذا المرارة ؟

اكاد أقول ان السبب ـ او معظمه ـ يتصل بالسياسة في جانبها المعنوي أكثر مما يتصل بالسياسة في جانبها العملي الذي تصنعه حقائق القوة وحدها .

وفي هذا الجانب المعنوي فان مرارة الاتحاد السوفيتي ـ هذه اللحظات ـ تعود الى شعوره القوي ـ وهو شعور لا جدوى من انكاره ـ بأن هيبته العالمية اهتزت من جراء ما حدث له في الشرق الأوسط :

● كاد أن يصل الى صدام مع الولايات المتحدة بسبب العرب ـ سنة ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ـ ثم هجره بعض أصدقائه العرب واندفعوا الى ود بغير ثمن مع الولايات المتحدة !

● وقطع علاقته باسرائيل ودعا الدول الشيوعية الأخرى الى قطع علاقاتها مع اسرائيل سنة ١٩٦٧ احتجاجا على احتلالها لأراض عربية ، وقبلت كل هذه الدول فيما عدا رومانيا التي احتفظت بعلاقاتها مع العرب ، وكانت هي وسيطهم مع اسرائيل وطرفا نشيطا في الترتيب لمهرجان القدس !

● دافع عن وجهة النظر العربية بأنه لا مفاوضات مباشرة مع اسرائيل طالما هي تحتل ارضا عربية ، فاذا الأمور تنعطف الى عكس الاتجاه الذي كان يشير اليه .

● حاول أن يجمع اليسار الدولي كله على موقف معاد لاسرائيل ، فاذا التطورات تمزق موقف اليسار العالمي كله ، فاليسار الأوروبي لأسباب متنوعة مع زيارة القدس ، وبعض اليسار في أوروبا الشرقية ذاتها يتخذ نفس الموقف ، بل ان بعض عناصر اليسار العربي تفقد بوصلة الاتجاه المرسوم .

● حارب العرب في أكتوبر من أول لحظة الى آخر لحظة بسلاحه ، ولكنهم فور انتهاء المعارك حاولوا استبعاد دوره من العمل السياسي الذي تلا العمل

العسكري ، وكانت الولايات المتحدة تعتذر لنفسها بانها تريد دوره ولكن اصدقاءه العرب هم الذين لا يريدون . بل انه حينما اعترفت الولايات المتحدة له بهذا الدور في البيان الامريكي السوفيتي الذي صدر في اكتوبر الماضي فان بعض العرب غضبوا لأن امريكا حاولت ادخاله من النافذة بعد ان اخرجوه هم من الباب .

● خرج بعض العرب لمطاردته خارج حدود الاقليم العربي وكأنهم موكلون بمطاردته حيث يكون ، وكأنها حرب صليبية ضده ليس فيها ـ من وجهة نظره ـ اي صالح للعرب .

● حاولوا مداراة فشلهم العربي بالبحث عن بداية حوار احيانا وبالصمت احيانا أخرى ، ولكن الحوار لم يجدِ ولا نفع الصمت ، وأصبحوا مثل المقامر يواصل رهانه على أمل تعويض خسائره أو جزءاً منها ، ولكن كل لعبة تجيء لترفع خسائره الى حد باهظ لا يحتمل . . . الى حد ضياع الهيبة فضلا عن ضياع الرصيد !

● لحق بذلك كله ان الاتحاد السوفيتي فوجيء بالتطورات الأخيرة ، ولم يكن يملك غير متابعتها بشعور بالبلاهة لا يستطيع مداراة تعبيره على وجهه .

والقوى الأعظم لا تحب ان تفاجأ بشيء وهي الفخورة دائما بقدرتها على الاستشعار عن بعد .

ثم ان ملامح البلاهة على وجهها تثير شماتة الآخرين ولا تثير عطفهم ، والقوى الأعظم تطلب الاحترام لنفسها قبل طلب شيء غيره .

لعلي اقول ـ وقد قلت هذا كله حتى الآن ـ أن الاتحاد السوفيتي كان يشعر في قرارة نفسه أنه مسئول عما حدث بمثل مسئولية الآخرين ، فقد كانت له اخطاؤه القاتلة وكان له أسلوبه الغليظ بالكلمات والتصرفات .

لكن ذلك الاعتراف بالمشاركة في مسئولية الخطأ لا ينفي الاحساس بضياع الهيبة ، ولا يعوض عن ضياعها .

وباختصار فان الاتحاد السوفيتي يشعر أنه غرر به في الشرق الأوسط ، وأكثر من ذلك أنه أهين .

وكانت الاهانة علنية رأتها القوة الأعظم الثانية ورآها العالم الثالث النامي ، ورأتها الدنيا كلها .

وليس أصعب على القوة الأعظم من اهتزاز مهابتها .

ان هيبة أي واحدة من القوتين الأعظم لا تقل في أهميتها بالنسبة لها عن سلاحها النووي .

السلاح النووي في ترسانتها هو رمز قوتها المادية . . . والمهابة من حولها هي رمز قوتها السياسية .

●

ومن هنا جاءت المرارة في الحلق وعلى طرف اللسان صباح « ليلة الفرح » في القدس !!

صباح ليلة الفرح ٥

الرأى العام العالمى وحسابات التكاليف!

نصل الآن الى أضخم شهود المهرجان ، وأكبر المتحمسين له ، وهم الذين اعطوه في الواقع رونقه البهيج ، وجعلوه فرحة للدنيا بأسرها . وبالطبع فان الذي أقصده هنا هو ما نسميه اصطلاحاً : الرأي العام العالمي !

والرأي العام العالمي قوة غير محددة (فهو موزع على كل قارات الأرض) .

ثم أن الرأي العام العالمي قوة غير ملتزمة (فهو اليوم باهتمامه في مكان ، ولكنه غداً ـ باهتمامه أيضاً ـ في مكان آخر) .

وهنا مشكلة الرأي العام العالمي بعد ميزته .

ميزته أنه يستطيع أن يلقى حدثاً من الأحداث بمزاج معين يفيض على الكون كله للحظة من اللحظات .

ولكن مشكلته ـ بعد ذلك ـ أنه يعيش لحظته ويكتفي بها . . . أي أنه كالمدعوين في أي فرح ، لهم متعته وليست عليهم مسئوليته . . . حياتهم الليلة فيه ، وغداً تلك الليلة ذكرى ، وبعد غد قصة أخرى !

□

وربما كان موقف أوروبا الغربية من المبادرة ـ على مستوى الحكومات وعلى مستوى الشعوب ـ هو خير نموذج يمكن عن طريقه دراسة موقف ما نسميه « الرأي العام العالمي » من ليلة الفرح وصباح ليلة الفرح .

وفي الحقيقة فان أوروبا الغربية ـ شأنها شأن آخرين في العالم ـ لم يكن لها غير دور المدعوين ، فمنذ زمن طويل لم يعد لها أكثر من هذا الدور بحكم العديد من الظروف .

ولكي لا يكون هناك لبس ، فلا بد أن نسلم بأن أوروبا الغربية كانت مهتمة بازمة الشرق الأوسط ، ولكن الاهتمام ـ بغير قدرة ـ لا يعطي أصحابه الحق في أي دور فعال . وقد فقدت أوروبا الغربية قدرتها العالمية بحكم موازين القوى المتغيرة ، وهي موازين ركزت هذه القدرة العالمية في القوتين الأعظم ، وتركت لغيرهما في أحسن الفروض دور القوى الاقليمية في نطاق محدد ، أو دور القوى المساعدة خارج هذا النطاق .

وقد كانت آخر مرة حاولت فيها أوروبا الغربية أن تقوم بدور فعال في أزمة الشرق الأوسط هي محاولة الجنرال « شارل ديجول » خلال أزمة يونيو سنة ١٩٦٧ أن يدعو الى مؤتمر قمة رباعي ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا ـ لبحث الموقف المتوتر في الشرق الأوسط .

وكانت هذه المحاولة تعبر عن الطموح الشخصي للجنرال « ديجول » ، ولكن لأنها لم تكن تعبر عن موازين القوى الحقيقية في العالم وقتها ـ والى اليوم ـ فان الدعوة لم تلق استجابة ، واستعيض عنها باجتماعات عقدتها الدول الأربعة في نيويورك ـ على مستوى المندوبين الدائمين في الأمم المتحدة ـ لبحث تطورات أزمة الشرق الأوسط ، ثم ما لبثت هذه الاجتماعات الرباعية ان توارت وأفسحت الطريق لاتصالات ثنائية بين القوتين الأعظم لبحث تطورات أزمة الشرق الأوسط ، وهي اتصالات ما زالت تجرى حتى هذه اللحظة .

وبصرف النظر عن التفوق المطلق للقوتين الأعظم على غيرهما في مجال السلاح النووي ، وفي الطاقة الانتاجية ، وفي السيادة على البحار ـ وهي العوامل التي تعطي للقوة الأعظم مكانتها التي لا تنازع ـ فان أوروبا الغربية لم تكن تستطيع ـ حتى بالمعايير التقليدية ـ أن تعطي لنفسها قدرة خاصة تمكنها من أي دور فعال في أزمة الشرق الأوسط ـ فمثل هذه القدرة كانت تتطلب ما يلي على الأقل :

١ ـ ان تكون أوروبا الغربية في وضع يسمح لها بأن تقدم لأطراف النزاع ما يحتاجون اليه من سلاح في صراعهم ، والسلاح ليس صفقات متقطعة ، ولكنه امداد مستمر بنظم حربية متسقة ، وذلك خارج طاقة أوروبا الغربية ، ويكفي أن نتذكر أن ما جرى استهلاكه في معارك أكتوبر سنة ١٩٧٣ ـ التي استمرت أسبوعين ـ يوازي انتاج أوروبا الغربية من الدبابات كله على طول سنتين !!

٢ ـ أن تكون أوروبا الغربية في وضع يسمح لها بتقديم مساعدات اقتصادية سخية يعتمد عليها أطراف النزاع . والمساعدات الاقتصادية ليست اتفاقيات بعشرات ملايين الدولارات بين وقت وآخر ، ولكن المساعدات الاقتصادية المؤثرة تعهدات دائمة تصل حدودها الى البلايين ، وذلك أيضا خارج طاقة أوروبا الغربية (بل لعل أوروبا الغربية تريد البلايين من سيولة الشرق الأوسط ، قبل الملايين تقدمها مساعدة لبعض من فيه) .

٣ ـ أن تكون أوروبا الغربية في وضع يسمح لها بالضغط السياسي على اطراف النزاع أو على أيهم ، بحيث يكون من أثر ذلك تقريب المواقف المتعارضة لهم ، ولكن ذلك ـ أخيراً ـ خارج طاقة أوروبا الغربية .

□

هكذا لم يعد لأوروبا الغربية القدرة ، وان بقي لديها الاهتمام ، ومبعث الاهتمام واضح بطبيعة الحال ، فالشرق الأوسط هو الشاطيء الآخر للبحر الأبيض ، ثم هو مورد البترول ، وفوق ذلك فهو مالك أكبر ثروة نقدية سائلة عرفها التاريخ ، فضلاً عن علاقات خاصة ربطتها به حقبات التاريخ منذ فجر الحضارة الى عصر الاستعمار .

ومن نتيجة الاهتمام الباقي مع القدرة الزائلة ـ أن النشاط الاقتصادي الأوروبي في الشرق الأوسط أخذ مجاله في التجارة ، ثم ان النشاط السياسي الأوروبي في الشرق الأوسط لم يجد غير مجال العلاقات العامة .

والعلاقات العامة هي فن خلق انطباعات ملائمة ، وهذا بالتدقيق ما تفعله

اوروبا الغربية حيال ازمة الشرق الأوسط واطرافها .

أي أن السياسة الأوروبية ـ في ادراكها لعجزها عن التأثير العملي في أزمة الشرق الأوسط ـ تركز على الايحاء للأطراف بأنها تتعاطف معهم وتتفهم وجهات نظرهم . ولأن القدرة محدودة ـ كما يسلم الجميع ـ فان النوايا الطيبة لا تتعرض لامتحان عسير !

وهكذا كان موقف حكومات أوروبا الغربية تجاه أزمة الشرق الأوسط :

● بيانات سياسية « مقبولة » بين وقت وآخر .

● مجاملات ظاهرة، وهي على أي حال تخدم أصحابها في نفس الوقت ، فقصة الصراع في الشرق الأوسط على الصفحات الأولى وفي مقدمة كل نشرة اخبارية ، وأن يظهر سياسي أوروبي في الصورة الواسعة لأزمة الشرق الأوسط ـ فذلك شيء لا بأس به في السياسة المحلية لبلاده ، وربما أوسع .

● ثم منافسة بين فرنسا وبريطانيا : ايهما تكون الوسيط المعتمد من العرب الى مجموعة السوق الأوروبية ، لأن ذلك يعطيها مركزاً ممتازاً بين دول المجموعة المهتمة بمشكلات الطاقة والنقد ، الى آخره .

وكانت فرنسا ـ على سبيل المثال ـ هي الطرف السباق الى الوساطة قبل المبادرة ، وبعد المبادرة ـ وقد تخلفت فرنسا عن تأييدها في البداية ـ فان « كالاهان » رئيس وزراء بريطانيا انتهز الفرصة واندفع الى الساحة ليسبق فرنسا .

(كانت فرنسا في مأزق ، فقد كان رأيها ـ وما يزال ـ أن فرص النجاح أمام تلك المبادرة ضئيلة ، ولكنها لم تستطع البقاء بعيداً ، فاقتربت تقول للقاهرة : انها تخلفت لأن الاقتراح الأول الذي عرض على دول السوق بتأييد المبادرة كان مصدره واشنطن ، وباريس لا تحب الاستجابة المطيعة لطلبات واشنطن ـ وفي نفس الوقت كانت فرنسا في دمشق تنصح بالتروي والحذر لأن المبادرة في مطلق الأحوال لن تصل الى نتيجة) .

والحقيقة ان الحكومات في أوروبا الغربية كانت ـ بلا استثناء تقريباً ـ عاجزة بالفعل عن رؤية المدى الذي يمكن أن تصل اليه المحاولات الاخيرة في أزمة الشرق الأوسط ، ولكن دقات الطبول شدتها الى ساحة المهرجان ، ولم يكن لديها ما تخسره من الدخول ، خصوصاً وأن الجو العام في أوروبا الغربية كلهـا ـ وفي غيرهـا من القارات ـ تحول الى جو فرح يريد أن يسهر ليلته المثيرة الى الفجر ، ويحرص على أن لا يفوته من وقائعها ومشاهدها شيء . . . ولا حركة ولا خلجة !

□

نصل الآن الى نقطة هامة ، وهي : ما الذي صنع جو الفرح العام الذي غمر أوروبا كلها ليلة الفرح ، وقاد الناس فيها جميعا الى ساحة المهرجان ؟

واذا حاولنا البحث في هذه النقطة ، فسوف نجد أن العوامل التي صنعت جو الفرح كانت كلها عوامل بعيدة عن طبيعة مشاكل أزمـة الشرق الأوسـط ، وعـن مخاطرها ، وعن حلولها .

وبصفة عامة ، فان هذه العوامل كانت على النحو التالي :

١ ـ ان أزمـة الشرق الأوسـط ظلـت وحدهـا ـ دون المشـكلات الكبـيرة في الأربعينات والخمسينات والستينات وأكثر السبعينات ـ بدون حل .

ان روح العصر أملت حلولا وسطا لكل العقد الا ازمة الشرق الأوسط .

ان « الوفاق » ساد علاقات القوتين الأعظم ، و « المساومة التاريخية » ـ على حد تعبير « برلينجوير » زعيم الحزب الشيوعـي الايطـالي ـ تحـكم العلاقـات بـين الشيوعيين والرأسماليين في أوروبا الغربية ، ومشاكل جنوب شرق آسيا جرى حلها على نحو أو آخر ، فحرب فيتنام انتهت ، وعزلة الصين انكسرت بدخولها الى الأمم المتحدة والعضوية الدائمة لمجلس الأمن .

لكن الصراع العربي الاسرائيلي وحده يزداد توتراً مع كل يوم ، على خلاف

طبيعة العصر ـ كما يتصورون .

والآن هل جاءت اللحظة الموعودة لكي ينزاح هذا الصراع بدوره ، ويذهب ضمن ما ذهب من الصراعات ـ ! ـ الى الماضي ؟

٢ ـ ان ازمة الشرق الأوسط كانت دائما تجر الى مواجهة بين العملاقين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ـ ولقد كادت هذه المواجهة أن تحدث فعلا سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ ـ وأي مواجهة بين العملاقين سوف تبدأ بغير شك في أوروبا الغربية ، وفي ظل التفوق السوفيتي الضخم في الأسلحة التقليدية فان اجزاء كبيرة من القارة العريقة قد تكون معرضة للاجتياح في الأيام الأولى من المواجهة ، وهذا كابوس يزعج اوروبا الغربية كلها .

والآن هل هذه هي الفرصة التي طال انتظارها ليتبدد الكابوس الى الأبد ؟ !

٣ ـ ان أزمة الشرق الأوسط في آخر انفجار لها سنة ١٩٧٣ أصابت أوروبا الغربية بما لا تزال تعاني منه حتى الآن ، وأوله مضاعفة أسعار البترول عدة مرات في ضربة واحدة ، ولقد أدى ذلك الى مشكلات طاحنة . . . عجز في موازين المدفوعات . . . خلل في التنمية . . . زيادة البطالة . . . تضخم نقدي وارتفاع في الأسعار . . الى آخره !

والآن هل هذه هي نهاية كل هذه القائمة من المشاكل التي ينسب اليها كل ما هو آخذ بخناق الناس في أوروبا الغربية كلها ؟

٤ ـ ان أزمة الشرق الأوسط ـ كما يقال لهم ـ تهددهم في أي انفجار قادم بحظر بترولي جديد ، وربما برفع الأسعار مرة أخرى ، أي أنها كالسيف المعلق فوق رقابهم ، وهو سيف يمكن ان يشعروا بنصله في أي وقت بدون استعداد وبدون ذنب منهم أو حتى خطأ .

والآن فهل آن للسيف المشهر أن يعود الى غمده نهائياً ويرتاح الجميع ؟

٥ ـ ان أزمة الشرق الأوسط ـ وهذه نقطة بالغة الأهمية ـ تذكرهم دائماً بشيء

حاولوا نسيانه وما زالوا يحاولون ، وهذا الشيء هو المشكلة اليهودية .

ان المشكلة اليهودية في حقيقتها مشكلة أوروبية ، ولقد أراحوا أنفسهم منها بتصديرها الى الشرق الأوسط ، أو هكذا تصوروا ، ولكن التجربة ظلت قلقة ، ذلك أن معاداة السامية ـ وهي الوجه الآخر للمشكلة اليهودية ـ نشأت في اوروبا ، وفرضها على الشرق الأوسط ـ بدون أي أساس تاريخي ـ طرح مشكلة جديدة دون أن يحل المشكلة القديمة .

وهكذا فان الصراع العربي الاسرائيلي ظل دائما تذكرة للضمير الأوروبي ، بأن المشكلة التي حاول ان يهرب منها ما زالت تطارده ، ولو معنوياً على الأقل .

والآن فهل أوشك الضمير الأوروبي على أن يرتاح ؟ !

٦ ـ ان أزمة الشرق الاوسط ـ وهذه نقطة تتصل بسابقتها مباشرة ـ أبرزت مأساة الشعب الفلسطيني الذي حرم من أرضه ، لأن أوروبا الغربية أرادت أن تحل مشكلة ضميرها على حسابه !

ولقد بدأت المأساة الفلسطينية تطرح نفسها بعنف ـ خصوصا في السنوات الأخيرة ـ على الضمير الأوروبي .

وفي السنوات الأخيرة فلقد كانت هناك لحظات من عذاب الضمير الأوروبي بين مشكلة شعب فلسطين والمشكلة اليهودية ، وكان الضمير الأوروبي يحاول بكل وسيلة أن يهرب من الاختيار .

والآن فهل اعفي الضمير الأوروبي من الاختيار الصعب . . . وجاءت معجزة تنهي كل العذاب في ليلة فرح واحدة ؟ !

٧ ـ ثم نتذكر في نهاية هذه المجموعة من العوامل التي صنعت جو الفرح ، أن أرض الأساطير كانت مهيأة لأسطورة جديدة ، فلقد كان المسرح الذي اختير لليلة المشهودة هو ساحة القدس . والقدس ليست مجرد مدينة ، وانما القدس رمز أكبر من

أي مدينة . وهو رمز يلفه جو مشحون بعطر الأديان ، وعبق التاريخ ، ودخان البارود ، وروائح الدم . . . دم القديسين والشهداء والمغامرين .

كانت القدس ملتقى كل الرسالات ، ومطلب كل الامبراطوريات ، وزينة كل العصور .

وكان نداء القدس دائماً غلاباً ، ينفذ من الآذان الى أعماق الوجدان مختلطاً بأصداء الأناشيد والترانيم والصلوات والدعوات .

هكذا فان المسرح أضفى على الحدث مسحة شبه دينية ، وشبه تاريخية ، وشبه أسطورية .

وكان هذا في حد ذاته شيئاً مثيراً لكل وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة ، وهكذا هرعت جميعها الى القصة النموذجية في اثارتها .

ويقال أحياناً أن فنون الاعلان لا تقدم السلع فحسب ، وانما تخلق الحاجة الملحة اليها .

وبنفس المقياس فانه يمكن أن يقال أن فنون الاعلام لا تغطي الأخبار فحسب ، وانما تخلق الاهتمام الأوسع بها .

ومثل ذلك حدث بالفعل .

□

هكذا كان موقف أوروبا الغربية ـ على مستوى الحكومات وعلى مستوى الشعوب ـ كنموذج يمكن عن طريقه دراسة موقف « الرأي العام العالمي » من ليلة الفرح وصباح ليلة الفرح . . .

وبقية المواقف ـ على اتساع الدنيا كلها ـ نفس الشيء أو قريب منه :

● في بعض دول أوروبا التي كانت تربطها علاقات خاصة بالعرب تفرض عليها اتخاذ جانب الحذر في علاقاتها باسرائيل ـ فقد كان الاحساس بأنهم تخلصوا من التزام أدبي تجاه العرب فرض عليهم التحفظ تجاه اسرائيل ، وضايقهم مع قوى تساندها ـ كالولايات المتحدة مثلا .

من هذه الدول مثلا كانت البرتغال التي سارعت الى تبادل السفارات بينها وبين اسرائيل .

ومن هذه الدول مثلا كانت أسبانيا التي أقدمت ، ثم تراجعت في اللحظة الأخيرة ، وآثرت الانتظار .

● في بعض دول افريقيا ارتفع الحرج عن دول قطعت علاقاتها باسرائيل تحت الضغط العربي ، وراحت تتحين فرصة لاستئناف العلاقات معها ، ولو لم يكن تواطؤ اسرائيل مع نظام جنوب افريقيا العنصري ـ وهو تواطؤ تتضح ابعاده يوما بعد يوم ـ لأقدمت دول افريقية عديدة على اعادة علاقاتها مع اسرائيل .

● وليس هناك شك أن بعض الدول الصديقة والقريبة من العرب أحست بحرج ، ومن هذه الدول مثلا يوجوسلافيا والهند ، ولقد كان ليوجوسلافيا بالتحديد موقف مبدئي في الصراع العربي الاسرائيلي ، ومع أن المواقف المبدئية لا تتقلب مع الأجواء ـ خصوصا بالنسبة لعملاق من حجم الرئيس « جوزيب بروز تيتو » ـ الا أن أحداً في النهاية لا يستطيع أن يكون ملكياً أكثر من الملك ذاته !

وهكذا ـ على نحو أو آخر ـ بقية المواقف .

□

وسئلت أخيـــراً :

ـ أليس كسباً لنا أن تعيش الدنيا معنا مهرجان سلام ، وأليس مؤكداً أن هذا المهرجان ـ حتى وان تحول الى ذكرى ، وحتى وان تجاوزته الظروف الى قصة أو

قصص أخرى ـ سوف يترك أثراً طيباً . . . وألا يساوي هذا الأثر ؟ وأليست تلك من ايجابيات ما حدث . . . انه لا يمكن أن يكون سلبياً كله ؟

وكان ردي :

ـ لقد كان كسباً ، وسوف يكون أثره طيباً وان تحول الى ذكرى ، ولكن السياسة ـ شأنها شأن غيرها ـ هي في النهاية « حسابات تكاليف » . ان اقامة أي « فرح » عملية لا تتحكم فيها سعادة المدعوين اليه فحسب ، ولكن يتحكم فيها أولا « حساب التكاليف » .

ولنضرب مثالاً سياسيا مبسطاً :

ـ ان المملكة العربية السعودية مثلاً تستطيع أن تملأ الكون كله سعادة لو أنها أعلنت صباح ذات يوم عن استعدادها لبيع بترولها بسعر دولار واحد للبرميل بدلاً من أحد عشر دولاراً للبرميل .

ان الدنيا كلها لن تهتف للسعودية فحسب ، ولكنها سوف تركع أمامها وتصلي لها قبل النوم في كل ليلة .

لكن السعودية بالطبع لا تفعل ، لأن « حساب التكاليف » يتحكم ويحكم في النهاية .

هذه هي الاجابة على جزء من السؤال ، وما زال أمامنا باقيه ، وهو عن الايجابيات فيما حدث وعن السلبيات فيه .

وأقرر على الفور أن هناك ايجابية أساسية واحدة في كل ما حدث ، تلك هي أنه كفيل بأن يعطي الآخرين ويعطينا « يقيناً » لا مجال بعده لشك أو لتردد .

● كان الآخرون يظنون أن العرب لم يعطوا السلام فرصة ، ولو أنهم فعلوا كذا أو فعلوا كذا لتغير وجه الشرق الأوسط ، ولانزاحت عنه غيوم الخطر وسطعت في آفاقه شمس السلام .

وها قد حدث ما لم يكن يخطر على بال أحد ان يقترحه علينا ـ فلا انزاحت الغيوم ولا سطعت الشمس .

● وكان البعض منا تداخلهم الوساوس بتأثير ما يسمعون من الآخرين ، وكانت هواجسهم تخيل لهم اننا لو فعلنا كذا أو فعلنا كذا لأسقط في يد الخصم ـ مهما كانت مطامعه ـ ولاضطر أن يجنح للسلم كما جنحنا لـه

وها قد حدث ـ مرة أخرى ـ ما لم تكن هواجسنا تجسر على الاقتراب منه ، ولو حتى خيالا . . . ومع ذلك لم يجنحوا .

واذن فان الأمر أكبر من النوايا الطيبة ، واعقد مما تهفو اليه الظنون والوساوس .

ولقد آن أن يدرك الآخرون ـ وأن ندرك نحن أيضاً ـ ان تلك هي طبيعة الأشياء في الصراعات التاريخية الكبرى .

ليست قضية نوايا ، ولكنها قضية ارادات !

نظرة جديدة على الناحية الاخرى ! ١

الخلط بين الفلسفة والسياسة !

لا أظنه بقي أمامنا ـ أو أمام سوانا ـ مفر من الاعتراف بأن زيارة القدس المحتلة ، التي اصطلح على وصفها باسم « مبادرة السلام » ، قد استنفدت نفسها . كأنها « نيزك » تساقط من نجم بعيد ، وشق أفق الليل مندفعا متوهجاً وسط الظلام ، حتى أمسكت به قوانين الجاذبية فهوى ما تبقى منه مرتطما بالأرض محدثاً دوياً عالياً . ثم ما لبث بعدها أن استحال الى كتلة خامدة من معادن مختلطة !

وربما حاول بعض المتشائمين منا أن يسحبوا هذا التشبيه الى الآخر ، بقولهم ان كتلة المعادن المختلطة لم تقع في الربع الخالي ، وانما انقضت على نافوخ أزمة الشرق الأوسط ـ ولكني لست متشائماً الى هذا الحد !

. . . .

. . . .

والحقيقة أن هذه النتيجة للمبادرة ليست شيئاً غريباً ، وانما كان الغريب أن تكون هناك نتيجة أخرى ، ذلك لأن الصراعات السياسية ـ شأنها شأن ظواهر الطبيعة ـ لها قوانين تحكم حركتها وتضبط مسارها . وليس من شك أن الارادة الانسانية تملك في شأن الصراعات السياسية ما لا تملكه في شأن ظواهر الطبيعة ، ولكن ذلك لا يكون عن طريق تجاهل القوانين والضوابط ، وانما يكون عن طريق حسن استخدامها ، والمقدرة على الاستفادة من حركتها ، والكفاءة في ادارة التفاعلات الناجمة عن هذه الحركة . وبغير ذلك فان النظام يختلط بالفوضى ، والاجتهاد يختلط بالارتجال ، وتضيع الحدود بين القرار الاستراتيجي وبين « الخاطر العابر » في لحظة بعينها !

. . . .

. . . .

وليست هناك مشكلة أبدية حتى في « خاطر عابر » حاول ولم يصل ، ولكن المشكلة تتعقد وتستعصي حين يكون هنـاك الاصرار على أن النيزك ما زال نجما ، وعلى أن الوهج لم ينطفىء ، وعلى أن كتلة المعادن المختلطة لم تعد خامدة بلا حرارة أو اشعاع !

ومن هنا فانه ليس مفيداً ـ على سبيل المثال ـ أن يقال ـ كما يقول بعض كتاب الصحف ـ أن المبادرة نجحت لأنها أصبحت ملكا للانسانية وللتاريخ ، ذلك لأن العمل السياسي يختلف عن الفكرة الفلسفية . فالعمل السياسي استجابة لموقف ، والفكرة الفلسفية استجابة لأمل .

وهكذا فان « النجاح ازاء تحد » هو وحده معيار الحكم على أي عمل سياسي ـ في حين أن « القيمة في حد ذاتها » هي معيار الحكم على أي فكرة فلسفية .

ان « نيفل تشمبرلين » رئيس وزراء بريطانيا كان يقصـد الى انقـاذ السـلام العالمي حينما ذهب للقاء « أدولف هتلر » في « ميونيخ » سنة ١٩٣٨ . وبرغـم أن الدنيا كلها أيدت مسعى « تشمبرلين » من أجل « السلام في زماننا » ـ كما سماه هو وقتها ـ فان الحكم النهائي على تصرفه لم يكن على أساس نواياه ، ولكن على أساس أن مسعاه لم ينجح . فالعمل السياسي ملك ظروفه ، وليس ملك الأبدية بدعوى الانسانية أو بدعوى التاريخ .

وعكس ذلك تماما مجال الفلسفة . فحلم افلاطـون بـ « المدينة الفاضلـة » يبقى أملا ملهما ، حتى وان لم يتحقق في قرن واحد أو في عشرات القرون . ذلك لأن قيمته باقية للانسانية عبر كل عصور التاريخ . و « قيمته في حد ذاتها » هي معيار الحكم عليه ، بصرف النظر عن الوصول أو عدم الوصول .

هـكذا . لأن السياسي يبـدأ من « الواقـع » ولا شيء غـيره ، في حـين أن الفيلسوف يبدأ من « المجرد » ولا شيء قبله . . . هذا من ناحية المنطق .

وأما من الناحية العملية ، فليس هناك أدل على أن المبادرة لم تحقق هدفها ـ أكثر من أن الموقف عاد بعدها ـ وفي ظرف أسابيع ـ الى ما كان عليه قبلها ، وهـو

انتظار الضغط الامريكي على اسرائيل يقنعها بالانسحاب وبحقوق الشعب الفلسطيني .

وكان مبرر المبادرة الوحيد لدى المتحمسين لها أن مجرد القيام بها سوف يقلب الموقف رأسا على عقب ، وسوف يسقط كل الحجج القديمة ، ويهدم كل الاسوار الباقية ـ عملية كانت أو نفسية .

وكان القول وقتها لكل المترددين ازاءها :

ـ تكلموا منذ الآن في أي شيء آخر غير أزمة الشرق الأوسط ، فهذه جرى حلها ، وأصبحت قضاياها فعلا ماضيا ، لا مضارع له ولا مستقبل !

وحين انجلى مزيج السحاب والدخان والبخور الذي انعقد في أجواء المبادرة ـ فلقد استبان أن الأزمة ما زالت على حالها وأسوأ :

كان الطرف الاسرائيلي قبلها يفصح عن مطامعه بالاشارة ، فأصبحت فصاحته الآن بالقول والفعل . . .

وكان الطرف العربي في مواجهة اسرائيل قبلها موقفاً ـ أو شبه موقف ـ فأصبح الآن شظايا ـ أو بقايا ـ موقف . . .

وكانت خشيتنا من مأزق البطء اذا نحن أخذنا الطريق الطويل الى جنيف ـ فاذا نحن أمام مأزق الجمود بعد أن أخذنا الطريق المختصر الى القدس المحتلة .

هكذا لم يعد باقياً غير انتظار الضغط الامريكي ، وهو ما كان عليه الحال قبل المبادرة ، مع العلم بأن الدوافع الامريكية الى ممارسة مثل هذا الضغط لا تتصل بالمبادرة ، وانما تتصل بالمصالح الامريكية في البترول العربي وفوائض أمواله ، خصوصاً في السعودية وما حولها من دول الخليج العربي ، وهي جميعاً من دول الصمت ازاء المبادرة !

□

لا فائدة اذن من الاصرار على خلط السياسة بالفلسفة ، ومن ناحية اخرى فليست هناك فيما أظن جدوى من الالحاح على أن « خاطرا عابرا » حاول ولم يصل ـ وضعنا أمام مشكلة أبدية بغير نهاية وبغير حل .

واذن ما العمل ؟

أتصور أننا مطالبون الآن ، وقبل أي شيء آخر ، بأن نلقي نظرة جديدة على الناحية الأخرى ، وأن نعيد دراسة الموقف الاسرائيلي ، مستمدين ضوءاً كاشفاً مما حدث . واذا كانت المبادرة قد عجزت عن تحقيق أية فائدة عملية فلقد تكون لها ـ رغم كل شيء ـ فائدة علمية .

والواقع أنه من حقنا ـ ومن حق الدنيا كلها ـ أن نتساءل في دهشة وذهول :

ـ كيف تسمح اسرائيل لهذه الفرصة التي أتيحت لها من السماء أن تضيع وأن تتسرب من قبضة يدها كحفنة من رمال . . لقد جاءها ما لم تكن تحلم به . . . ووضعت أمامها على طبق من ذهب كافة مطالبها وزيادة . ومع ذلك ترددت وأحجمت ؟ !

كيف ؟ ولماذا ؟ وهل يدخل ذلك في عقل أي عاقل ؟

والرد ـ فيما أظن ـ يبدأ من هنا تماماً ، ذلك أن « عقل أي عاقل » ليس هو المفتاح الصحيح لفهم اسرائيل ، لأن اسرائيل كيان خاص وغريب لا يدركه العقل وحده ، وانما لا بد بجانب العقل من وسائل أخرى تصطدم مع العقل أحياناً !

ولست أظن المجال مناسباً هنا لدراسة مستفيضة عن التركيب الخاص والغريب لاسرائيل ، خصوصاً من الناحية العقلية ، ولهذا فاني أكتفي بالاشارة الى لمحات معينة نستطيع أن نلحظها بسرعة في هذا التركيب الاسرائيلي الخاص والغريب .

سوف نلحظ على الفور ما يلي :

● نحن هناك أمام أخلاط نصف أوروبية ، لم تكون بعد شعبا واحداً الا على سبيل المجاز ، ثم انه ليست لهذه الاخلاط في المنطقة جذور ، وبالتالي فهي لا تفهم البيئة المحيطة بها ، وليس يكفيها أن تكون لديها الأرقام الدقيقة عما حولها ، لأن القصة الانسانية لا ترويها الأرقام وحدها !

● ان الاسطورة هي التي تبقي هذه الاخلاط المتعددة في اطار شعب ، والقوة وحدها هي التي تحميه ، ومزيج الاسطورة والقوة مزيج بالغ الخطورة ، يكاد يصل أحياناً الى الغاء التاريخ ، وأحياناً الى الغاء الواقع !

● ان هذا الشعب محكوم بقلق عميق أورثته اياه تجربة تاريخية طويلة ومريرة ، وقد سحبها معه الى الشرق الأوسط دون أن تكون لأرضه أو لتاريخه علاقة بها . وكان من أثر التجربة التاريخية الطويلة والمريرة عقدة اضطهاد يشعر بها هذا الشعب ولا يخفيها . وكان من أثر براءة الشرق الأوسط من وزر هذه التجربة ـ رغم سحبها الى أرضه وتاريخه ـ عقد ذنب يشعر بها هذا الشعب ولكنه يخفيها !

● ان هناك ازدواجية مخيفة تمزق وجدان هذا الشعب ، فهو يعيش في منطقة لا يريد أن ينتمي اليها ، وينتمي الى مناطق لم يستطع أن يعيش فيها. وسئل « مناحم بيجين » يوما عن الدعاوي الاسرائيلية التي تواجه أوروبا فتزعم أن وطن اليهود في فلسطين ، وفي نفس الوقت تواجه شعوب الشرق الاوسط فتزعم أن سكان اسرائيل شيء آخر غير شعوب المنطقة لأن منشأهم اوروبي ـ وكان رد « بيجين » الغريب على السؤال المنطقي :

ـ لقد ولدت « طبيعيا » في بولندا . . . ولكنني « تاريخيا » من مواليد القدس » !!

● ان ذلك الشعب في اسرائيل يعيش في حالة حصار مزعجة ، وهو حصار لم يفرضه عليه العرب وحدهم ، وانما يشارك هو نفسه في فرضه على نفسه ، فهو لا يملك يقينا يطمئنه حتى على أساس وجوده ، واذا كان الشك ينخر عند الأساس ، فمن المؤكد أن هذا الشك ينعكس بعد ذلك على كل شيء ، ومن هنا فانهم في

اسرائيل ليسوا على استعداد لقبول أي تصرف تجاههم على ظاهر ما يوحي به . ومرة أخرى فقد كان تعبير « بيجين » عن ذلك كاشفاً حين قال :

ـ ان الفارق بين المعتدلين العرب والمتشددين العرب كما يلي :

المعتدلون العرب يريدون اغراق شعب اسرائيل في بحر الوجود العربي الواسع .

والمتشددون العرب يريدون اغراق شعب اسرائيل في البحر الحقيقي .

هذا هو الفـــارق !

● ان هذا الشعب في اسرائيل يستشعر ـ حتى بالغريزة ـ موازين القوى في المنطقة وتطوراتها المحتملة ـ وربما الحتمية ـ ولهذا فهو يدرك عقلانياً انه لا يستطيع ضمان استمرار بقائه في هذه المنطقة بغير الاعتماد على علاقة خاصة مع قوة عظمى تواصل امداده باحتياجات حياته وأمنه طول الوقت ، وتستطيع نجدته بسرعة اذا طرأت ظروف . ولكنه في نفس الوقت ـ غريزياً ـ يشعر بالحاجة الى التمرد على هذه الحماية ، وقصارى ما يريده : أن يعطيه الآخرون مساعداتهم وأن يكفوا عنه نصائحهم ـ لأن أمنه النهائي لا يستطيع أن يضمنه غيره ، ولو حتى بالقوة النووية تدمر الكل ـ وهو فيهم ـ اذا لم يكن هناك مفر !

□

ان هذه الخصائص الغريبة في التركيب الاسرائيلي كانت هي المسئولة بالدرجة الأولى عن حالة النشوة الفوارة التي استقبلت ما وصف بأنه « مبادرة السلام المصرية » ، والتي ظهرت في الطريقة التي انفعل بها « الرجال والنساء والاطفال » في اسرائيل وهم يستقبلون زائرهم في القدس .

لأول وهلة بدا وكأن كل ما طلبوه جاء اليهم : الاعتراف والقبول ، الطمأنينة واليقين ، وأكثر من ذلك جاءهم الاعتراف بأنهم ـ بعد كل ما حدث ! ـ في حاجة الى

نوع خاص من الأمن ، وكانت تلك عجيبة العجائب : « ان تعترف دولة غير نووية بضرورة نوع خاص من الأمن لدولة نووية ! »

وربما كانت هناك أشياء أخرى عقلانية في النشوة الفوارة التي استقبلت « مبادرة السلام » :

ـ لعلها اخيرا أن تكون نهاية للدماء اليهودية التي سفحت بغزارة منذ بدأت حرب الاستنزاف العظيمة سنة ١٩٦٨ حتى جاءت حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣ .

لكن هذه النشوة الفوارة لم تعش طويلا .

لم تعش طويلا لسببين :

● السبب الأول : أن الوساوس الدفينة ـ من الخصائص الغريبة في التركيب الاسرائيلي ـ كانت أقوى وأعمق من أي حدث طارىء ، مهما كانت درجة الدّراما والمسرحة فيه .

● والسبب الثاني : وهو سبب عقلاني ـ أن الشعوب المتحضرة ـ ولا جدال أنهم في اسرائيل على درجة من الحضارة ـ تتحرك بعواطفها بطريقة تلقائية وعفوية ، ولكنها عندما تريد أن تتحرك بارادتها فانها تفعل ذلك بطريقة ليست تلقائية ولا عفوية . . . أي بطريقة منظمة .

هكذا فان الدوافع الى حالة الفوران كانت هي نفسها المسئولة ـ الى حد كبير ـ عن تراجع حالة الفوران .

ثم أضيف اليها السبب العقلاني عن التحرك بالارادة المنظمة !

□

ان جماهير « الرجال والنساء والأطفال » التي مزقت أكفها وحناجرها حماسة في شوارع القدس المحتلة ، وأتعبت أيديها من كثرة ما لوحت بالاعلام ، وأرهقت شفاهها من كثرة الابتسام ـ هذه الجماهير عبرت عن عواطفها بطريقة تلقائية وعفوية . ولكنها عندما أرادت في اليوم التالي أن تعبر عن ارادتها السياسية استدارت من الشوارع والشرفات عائدة الى مؤسسات الانتماء والتعبير ، والى قنواتها الطبيعية . . . أي أنها عادت الى أحزابها وجماعاتها والى برامجها وسياساتها الرسمية .

لقد صفقوا وهتفوا ولوحوا وابتسموا بعواطفهم تلقائياً وعفوياً .

ولكنهم عندما أرادوا أن يفكروا ويقرروا لم يعد هناك مجال للتلقائية والعفوية .

وهكذا وضعوا أنفسهم مرة أخرى حيث كانت ولاءاتهم السياسية المحددة والثابتة .

عادوا الى مجموعة ليكود ـ حيروت والاحرار والمركز المستقل ـ وبرامجها وسياساتها ، أو عادوا الى مجموعة المعراخ ـ الماباي والمابام ورافي ـ وبرامجها وسياساتها ، أو عادوا الى غير ذلك من الأحزاب الدينية أو الشيوعية وبرامجها وسياساتها . . .

وكان مستحيلاً أن يكون غير ذلك في مجتمع متحضر .

وهكذا نجد أنفسنا ـ في هذا الحديث الذي نحاول فيه القاء نظرة جديدة على الناحية الاخرى ودراسة الموقف الاسرائيلي ـ أمام سؤال جاء وقته ، وهو :

ـ ما هي النقطة أو النقط التي يلتقى عليها اجماع كل الاحزاب في اسرائيل ؟

واذا طرحنا هذا السؤال ، فان الاجابة عليه سوف تكون كما يلي :

ـ ان جميع الاحزاب الاسرائيلية ـ باستثناء الحزب الشيوعي ، وتأثيره محدود

الى أقصى درجة ـ تتفق كلها على ثلاث نقط واضحة وقاطعة :

- رفض الانسحاب الى خطوط ما قبل يونيو ١٩٦٧ .
- رفض قيام دولة فلسطينية على أي بقعة من التراب الفلسطيني .
- رفض التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية تحت أي ظرف .

وكانت هذه هي المواقف التي عادت اليها جماهير الرجال والنساء والاطفال » الذين ضاقت بحشودهم شوارع القدس وامتلأت أجواؤها بأصواتهم .

كان العاطفة لحظتها تلقائية وعفوية ، وأما ما بعد هذه اللحظة فقصة أخرى .

□

نتقدم في البحث واعادة الدرس بعد ذلك خطوة .

ان أية برامج أو سياسات يضعها حزب ـ أو أحزاب ـ في مواجهة صراع معين لا يمكن أن تعبر الا عن رؤية معينة لهذا الصراع .

واذا كانت الاحزاب السياسية كلها في اسرائيل قد التقت عند ثلاث نقط محددة في مواجهة الصراع مع العرب ـ اذن فمعنى ذلك أنهم جميعاً يلتقون عند رؤية مشتركة لمخاطر هذا الصراع .

وهكذا نجد أمامنا سؤالا حيويا آخر في سياق هذا الحديث :

ـ ما هي الرؤية الاسرائيلية المشتركة للخطر العربي . . . ما هي في تقديرهم مصادر ومكامن هذا الخطر ؟ !

. . . .

. . . .

انني لا أقدم اجابة من عندي على هذا السؤال ، ولا أحاول . ذلك، لأن الاجابة أو محاولتها من جانب أي طرف عربي سوف تظل نوعا من الاجتهاد المعلق بالظنون ، في حين أن المطلوب الضروري هو اجابة راسخة في علمها بالعقل الاسرائيلي .

وهكذا أستشهد بواحد من أبرز الخبراء الاسرائيليين ـ الامريكيين (جنسية مزدوجة) ، وهو « آموس برلموتر » ، وهو أستاذ علوم سياسية يكتب ويحاضر في اسرائيل وفي الولايات المتحدة ، ثم هو الى جانب ذلك مستشار لعدد من الشخصيات السياسية في اسرائيل ، وكان آخرها « مناحم بيجين » نفسه الذي كلفه ـ بعد نجاح حزبه في انتخابات الكنيست ـ بأن يذهب الى الولايات المتحدة ويستطلع باسمه ـ اسم « بيجين » ـ آراء « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكية ، و« زبجنيو برجينسكي » مستشار « كارتر » للامن القومي .

هو اذن رجل يعرف . . . لا معرفة اجتهاد أو ظن ، وانما معرفته من النوع المباشر ومن عند المنبع نفسه .

ان الاستاذ « آموس برلموتر » أجاب عن هذا السؤال بالذات ـ رؤية صانع القرار الاسرائيلي للخطر العربي ومصادره ومكامنه ـ ضمن دراسة نشرها عن السياسة الخارجية لاسرائيل في شهر نوفمبر الماضي ، وكان تقديره على النحو التالي :

« ان الخطر العربي بالنسبة لاسرائيل له ثلاثة مصادر أساسية ، وهي :

١ ـ تيار القومية العربية .
٢ ـ دول عربية مجاورة لاسرائيل ـ مصر وسوريا .
٣ ـ الفلسطينيون منظمين سياسياً ومسلحين . .

هذا هو تقدير « برلموتر » ، وأعتقد أنه أشار بأصبعه الى قلب الحقيقة !

□

ان المصدر الأول من مصادر الخطر العربي بالنسبة لاسرائيل يستحق منا وقفة طويلة . . . ان هذا المصدر كما رأينا ـ في تحديد « برلموتر » ـ هو تيار القومية العربية . . . أي الفكرة العربية والحركة التاريخية لهذه الفكرة . . . هذا هو الخطر قبل أي دولة عربية بالذات ، مهما كان تعداد سكانها ومصانعها وحقولها وجيوشها وترسانات سلاحها .

ان اسرائيل تعرف أنه ليس هناك أقوى من فكرة جاء وقتها ، ومن تيار بدأت حركته .

ان التعامل مع دولة بالذات له حساباته المعروفة التي يمكن تقديرها . . . وأما التعامل مع تيار تاريخي فان الحسابات مجهولة والمفاجآت قائمة في أي وقت وفي أي مكان .

ان « آبا ايبان » وزير خارجية اسرائيل الأسبق يقول في مذكراته التي نشرها اخيرا أن « دافيد بن جوريون » ـ وهو مؤسس اسرائيل الفعلي ـ لم يكن يشعر بالانقباض الا في تلك الفترة من نهاية الخمسينات الى منتصف الستينات حين كان تيار القومية العربية يندفع كالاعصار يغير خريطة الشرق الاوسط .

. . . حينما حدثت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ . . . . حينما وقعت ثورة العراق سنة ١٩٥٨ . . . حينما بدأت محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق في ابريل سنة ١٩٦٣ ـ بل ان « آبا ايبان » يذكر أنه حينما بدأت هذه المحادثات للوحدة الثلاثية ، وصلت حالة الاكتئاب بـ « دافيد بن جوريون » الى حد أنه كتب رسائل الى عدد من رؤساء الدول الكبرى ـ وبينهم « كنيدي » و « ديجول » ـ يبدي لهم قلقه على مستقبل وجود اسرائيل .

في مثل هذه الظروف أحس « دافيد بن جوريون » أن اسرائيل لا تواجه قوة دولة عربية أو مجموعة دول ، وانما تواجه قوة حركة تاريخية ، وكان هذا يؤرقه ويفزعه !

ان التاريخ يقدم لنا نماذج حية لهذا النوع الفريد من القوة ، وأشهر نموذج له

دولة الفاتيكان . ولقد أصبح « جوزيف ستالين » مثار سخرية الدنيا كلها حينما حذروه من قوة الفاتيكان فتساءل :

ـ كم فرقة عسكرية يملكها البابا في الفاتيكان ؟ !

وذهل الذين سمعوه ، وأجابوه بأن البابا لا يملك فرقاً عسكرية . . . بل ان دولة الفاتيكان كلها ليس فيها دبابة أو مدفع أو حتى مسدس واحد . . . ومع ذلك فان القوة التي يملكها بابا الفاتيكان واصلة الى كل أطراف الأرض ومؤثرة !

ولقد كان هذا النوع من القوة ـ مع اختلاف الظروف بالطبع ـ هو مصدر قيمة مصر الحقيقية في الخمسينات والستينات . . . كانت قيمتها أن الفكرة . . . التيار . . . الحركة التاريخية تجسدت فيها .

لم تعد مصر مجرد دولة تحكم على ضفاف النيل . . وانما أصبحت مصر قوة ـ غير محددة وغير محدودة ـ تؤثر في منطقة شاسعة بين المحيط والخليج .

□

وربما قلت إن « هنري كيسنجر » ـ وزير الخارجية الامريكية السابق ـ كان واحداً من الذين رأوا هذه القضية بوضوح وعمق ، وساعدته الظروف على النفاذ الى تحقيق هدف عجز غيره عن تحقيقه .

قبل « هنري كيسنجر » كان هناك غيره ممن رأوا خطورة الفكرة . . التيار . . . الحركة التاريخية ، وكذلك رأوا تجسيدها في مصر .

وبينما حاول من سبقوه الى رؤية الخطر أن يعزلوا الفكرة . . . التيار . . . الحركة التاريخية عن مصر ـ فان أسلوبه هو كان يختلف . . . كان أسلوبه هو أن يعزل مصر عن الفكرة . . . التيار . . . الحركة التاريخية .

وأتذكر أنني كنت أحاوره مرة وأقول له :

ـ أنت هنا تتعامل مع قوة أوسع من حدود دولة . . . أنت تتعامل مع فكرة . . وتيار . . وحركة تاريخية .

وقال كيسنجـر :

ـ ذلك منطـق لا أوافـق عليه ... . اننـي أريد أن اتعامـل مع القـوى الظاهرة . . . وليس مع القوى الكامنة . . . انني أريد أن أتعامل مع دول استطيع حساب مواقفهـا التفـاوضية بوضـوح . . . قل لي كيف أسـتطيع ان اتفـاوض مع فكرة . . . أو تيار . . . أو حركة تاريخية !

ولم يكن « كيسنجر » يجهل ، وانما كان يعرف ، وكتاباته كلها تؤكد . بل انه كان واحداً من الذين استشهدوا بالقصة الذائعة عن سؤال « ستالين » عن عدد الفرق التي يملكها بابا الفاتيكان .

ولكن ذكاء « كيسنجر » وكفاءته جعلاه يختار أسلوبه في تناول أزمـة الشرق الاوسط .

أول مهمـة تواجهـه ـ طبقـاً لتقـديره ـ أن يتخلص من ضغـط الفـكرة . . التيار . . . الحركة التاريخية ، وأن يحول مصر من تجسيد لهذا كله الى دولة لها حدود وامكانيات يمكن حسابهـا : تعـداد سكان ـ درجـة تعليم ـ طاقـة انتـاج زراعـي وصناعي ـ متوسط دخل ـ حجم قوات مسلحة ـ درجة تسليح .

ان « كيسنجر » أدرك أنه اذا ظلت مصر فكرة وتياراً وحركة تاريخية ـ فانه هو سيكون في حاجة اليها لحل أزمة الشرق الاوسط .

واذا استطاع أن يحول مصر الى حدود ، وتعـداد سكان ، ودرجـة تعليم ، وطاقة انتاج زراعي وصناعي ، ، ومتوسط دخل ، وحجم قوات مسلحة ، ودرجة تسليح ـ فان مصر هي التي ستكون في حاجة اليه لحل أزمة الشرق الاوسط .

وكان « كيسنجر » يقدر أنـه اذا استطـاع أن ينـزع عن مصر تجسيدهـا لتيار

القومية العربية ، فانه سيجد نفسه أمام الدولة المصرية بما لها وما عليها ـ وفي نفس الوقت ، فان التيار نفسه ـ وهو مصدر الخطر ـ سوف يتعثر في حالة من الضياع بحثاً عن بديل يجسده ، وليس ذلك سهلاً ، فمن ناحية تركز هذا التيار سنوات طويلة في القاهرة الى حد أن حركته اقترنت باسمها ، ومن ناحية أخرى فليست هناك دولة أو قوة في العالم العربي الآن جاهزة لتجسيد التيار .

وهنا نصل الى نقطة يحسن بالبعض منا هنا في القاهرة أن يحسن فهمها .

ان البعض منا يتحدثون عن القاهرة باعتبارها مفتاح السلم أو الحرب في الشرق الأوسط .

وهذا صحيح ، ولكن أي قاهرة ؟

القاهرة التي تملك مفتاح السلم والحرب هي القاهرة التي تجسد الفكرة والتيار والحركة التاريخية .

وأما القاهرة بوصفها عاصمة الدولة المصرية فان سلطتها باتساع حدودها ، وما تملكه في هذه الحالة لا يصبح مفتاح السلم او الحرب في المنطقة ، وانما يصبح مفتاح القبول ـ أو الرفض ـ لصلح بينها وبين اسرائيل .

□

ولقد كان هذا هو الخيار المطروح على القيادات الاسرائيلية بعد المبادرة ، وحوله تدور الآن كل المناقشات وتحتدم كل الخلافات في اسرائيل .

الكل يسلم ان الفكرة . . . التيار . . . الحركة التاريخية جميعها في حالة غياب .

والكل يرى أن الطرف الذي يواجههم عبر مائدة المفاوضات هو : الدولة المصرية بحدودها وامكانياتها وحساباتها .

والكل ـ مع ذلك ـ يرى أن مصر بحدودها وامكانياتها وحساباتها ما زالت أكبر دولة عربية ، واخراجها منفردة من حلبة صراع الشرق الاوسط يغير موازينه ، واهم من تغيير الموازين ضمان أن لا تؤدي تعقيدات الصراع مع بقاء مصر في الحلبة الى ظروف يمكن معها للفكرة . . . التيار . . . الحركة التاريخية أن تعود وتتجسد فيها .

ولو أننا اصخنا السمع جيداً الى الحوار الدائر في اسرائيل اليوم ، ودققنا بعض الشيء في معانيه واشاراته ، لاستطعنا ان نفهم اكثر مما يبدو علينا اننا نفهم .

الحوار الدائر في اسرائيل اليوم يكاد يجرى ـ تقريبا ـ على النحو التالي :

● يقول « بيجين » :

ـ ان الحكومة المصرية لا تملك تفويضاً من غيرها ، وهي تملك كل الصلاحية لتتفاوض في مشاكلها معنا ، وقد عرضت عليها ما أتصور أنه عرض سخي .

ويرد معارضوه :

ـ كان يجب ان تكون أكثر سخاءً . ان اخراج مصر من دائرة الصراع بصلح منفرد يساوي اكثر مما عرضته عليها . . . صحيح أن الفكرة والتيار والحركة التاريخية في حالة ضياع ، ولكن مصر ما زالت أكبر بلد عربي ، ثم إن خطر التعطيل يمكن أن يخلق ظروفاً لا نستطيع تقديرها .

● ويقول « بيجين » :

ـ اننا نحاول أن نبقي الباب مفتوحاً . . وليس يهم أن يضيع بعض الوقت . . . لماذا لا نتصور أن الوقت الضائع هو وقت مكسوب يعمق عزلة مصر عن العالم العربي ، ويستبقي الفكرة . . . التيار . . . الحركة التاريخية ـ في حالة ضياع الى اطول فسحة ممكنة ، وربما تحول الضياع المؤقت الى يأس كامل ، خصوصا في غيبة قوى تستطيع تجسيد الفكرة . . . التيار . . الحركة التاريخية . كان

الفلسطينيون في وقت من الاوقات يستطيعون التجسيد ـ ولو بالرمز ـ ونحن الآن نركز عليهم من كل ناحية ، وهكذا فان كل شيء محكوم ، وليس هناك ما يدعو الى القلق .

ومع ذلك فلست اعرف كيف اكون اكثر سخاءً مع مصر . . هل نفك مستعمرات سيناء؟

ويرد معارضوه :

ـ لم يطالبك احد هنا بفك مستعمرات سيناء . . . وتذكر أن الذين يعارضونك الآن هم الذين قاموا بانشائها ، ومع ذلك فلا بد أن يوجد حل . . . هذه فرصة نادرة ، واذا ضاعت فلن تعود ، ولسنا نحن الذين نرى ذلك وحدنا ، ولكن يراه معنا الامريكيون . . . هل تستطيع ان تقف الى النهاية امام الولايات المتحدة التي تحاول الامساك بالفرصة النادرة ؟

● ويقول « بيجين » :

ـ ان الامريكيين لا يفهمون المنطقة . . . ان الفرصة النادرة لم تكن من صنعهم ، وانما نحن الذين صنعناها بمواصلة الضغط . انهم قلقون من اجل البترول العربي وهذه مسألة تخصهم . . . في صراع الشرق الأوسط هناك ورقة واحدة رابحة ، وهذه الورقة هي الأرض المحتلة ، وهذه الورقة في يدنا ولن نتركها لغيرنا الا على شروطنا .

□

والحوار ما زال مستمراً ـ وهذا اطاره ـ ولكننا لا نسمع ، وحتى عندما نسمع فاننا لا نفهم ، لأننا ما زلنا نخلط بين السياسة والفلسفة !!

نظرة جديدة على الناحية الاخرى ٢

هذا هو الردّ : مناحم بيجين شخصيا

في هذه المحاولة لالقاء نظرة جديدة على الناحية الأخرى ، ولاعادة دراسة الموقف في اسرائيل ـ أتصور أنه قد يكون من الضروري الآن توجيه بعض الاهتمام الى « مناحم بيجين » ، الذي أصبح منذ توليه رئاسة الوزارة في اسرائيل أبرز شخصية على مسرحها السياسي ، وأول مسئول فيها عن ادارة الجانب الاسرائيلي من صراع الشرق الأوسط الطويل والمرير والدامي .

وأعترف أنني لا أتمالك نفسي من الدهشة في كل مرة أسمع فيها البعض منا يقولون :

ـ ان اسرائيل لم تقم حتى الآن بالرد على المبادرة المصرية ، وما زالت التطورات المقبلة في أزمة الشرق الأوسط تنتظر هذا الرد . . .

ومبعث دهشتي أن الرد جاهز أمامنا منذ اللحظة الأولى ، وربما من قبل تلك اللحظة الأولى : « الرد هو مناحم بيجين شخصياً » .

هكذا فان توجيه بعض الاهتمام الى « مناحم بيجين » قد يكون بمثابة قراءة ثانية لفحوى الرد الاسرائيلي على المبادرة . . . ذلك الرد الذي وصل ونحن لا ندرك بعد أنه وصل !

□

انني لا أنوي ـ بالطبع ـ عرض قصة حياة « مناحم بيجين » ، فهذه القصة لها رواة غيري أعرف بتفاصيلها وأقدر على روايتها ، ولهذا فاني أكتفي بالتركيز على بعض المقاطع ، كما يفعل أحدنا حين يقرأ شيئاً فيختار فقرات منه يضع تحتها خطوطا

تذكره بالعلامات البارزة في سياق ما يقرأه .

واذا فعلنا ذلك ، فسوف يلفت نظرنا أن « مناحم بيجين » بولندي يهودي ، وبهاتين الصفتين فانه عاش تجربة الحرب العالمية الثانية في أوروبا وتشكل في الظروف التي رافقت هذه التجربة ـ أي أنه عاش المحنة البولندية التي مزقت الأرض والشعب بين الامبراطوريات التي تنازعت السيادة بين شرق أوروبا وغربها ، ثم انه عاش المحنة اليهودية التي بدأت بمعاداة السامية في أوروبا وانتهت باحراق اليهود تحت أعلام النازية الألمانية .

لقد كانت هذه هي الظروف التي ظهر فيها عدد من الشبان اليهود قدر لهم فيما بعد أن يتولوا زمام القيادة في اسرائيل . وكانت مأساتهم ـ و « بيجين » أبرزهم ـ أنهم وهم وسط محنة الاضطهاد تعلموا من جلادهم أكثر مما تعلموا من مخلصهم . هكذا فان « بيجين » اتجه الى الصهيونية عقيدة ، والى الارهاب سلاحاً لهذه العقيدة . وحين اختار موقعه في العمل من أجل تحقيق « أسطورة العودة » ـ فانه اختار أكثر المواقف معاداة للتاريخ ، فوقف وراء « جابوتنسكي » في خلافه الشهير مع « وايزمان » و « بن جوريون » ، وأولهما مؤسس الدولة الصهيونية روحياً ، والثاني مؤسسها عمليا . لكن دور « بيجين » لم يأخذ مكانه على الساحة الا بعد وصوله الى فلسطين سنة ١٩٤٣ .

والغريب أن « مناحم بيجين » وصل الى فلسطين محامياً بالمهنة . وعن طريق المحاماة اكتسب اهتماما بالصياغات والاجراءات وفنون المرافعات بما فيها الرغبة في التأثير المواتي على الآخرين ـ لكنه في فلسطين هجرَ الصياغات والاجراءات والمرافعات الى المسدس والقنبلة والمدفع الرشاش ، وقرر أن يكون تأثيره على الآخرين عن طريق سفك دمائهم .

وفي السنوات الحاسمة من الاربعينات وقبل تأسيس الدولة احتدم الخلاف .

كان « بن جوريون » ـ مؤيداً بنفوذ « وايزمان » ـ يقبل بتقسيم فلسطين على أساس أن عودة « شعب اسرائيل » الى جزء من « وطنه » هي الممكن الواقعي في تلك الظروف ، ولهذا ينبغي القبول بقرار التقسيم .

وكان رأي « بيجين » ـ مؤ يداً بالخيالات المحمومة لـ « جابوتنسكي » ـ ان « اسرائيل وأرض اسرائيل هما شيء واحد » ، ولهذا فانه يجب رفض التقسيم ، واستمرار الكفاح المسلح حتى يحصل اليهود على كامل « أرض اسرائيل » !

وانتصر رأي « بن جوريون » وقامت اسرائيل وفق قرار التقسيم كنقطة بداية ، ولكن « بيجين » ظل وحده ممثلا لمطلب « كامل ارض اسرائيل » ، وثبت في المعارضة وحده طوال ثلاثين سنة من قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ الى الفوز في انتخابات الكنيست سنة ١٩٧٧ .

وكانت فترة المعارضة الطويلة على رأس حزبه « حيروت » ـ اختباراً لعناد « بيجين » . فقد تساقط من حوله الأعوان والأنصار ، لأنه من الصعب على أي حزب سياسي أن يعيش عمره في المعارضة ، وكانت النتيجة أن ما تبقى من الحزب أصبح حفنة من غلاة المتشددين ، فوقهم جميعاً رجل واحد هو بالنسبة لهم « الفيلسوف » و « المحارب » في ذات الوقت . ومع اختفاء الحرس القديم ـ بالموت كما في حالة « بن جوريون » ـ أو بالتقاعد كما في حالة « جولدا مائير » ـ فان « مناحم بيجين » أصبح الوحيد الباقي من جيل « الرواد » الذين ولدوا في التيه وقادوا أسطورة « العودة » !

ومع موجة التشدد التي سادت اسرائيل بعد حرب سنة ١٩٧٣ ـ فان حزب « بيجين » الأصلي « حيروت » ، والتنظيمات التي تحالفت معه ، أصبح مركز جذب لكل جماعات الصقور . وهكذا تكونت جبهة « ليكود » التي قادها « مناحم بيجين » في انتخابات الكنيست سنة ١٩٧٧ .

□

وحين خرجت جبهة « ليكود » من انتخابات سنة ١٩٧٧ كأكبر تجمع حزبي في اسرائيل من حيث عدد المقاعد في الكنيست ، لم يكن من حق أحد ـ سواء هؤلاء الذين تحمسوا للمبادرة أو أولئك الذين تحفظوا عليها ـ أي سبب يدعوه الى الخطأ أو يغفر له الوقوع فيه .

كان « مناحم بيجين » أمام الكل كتابا مفتوحاً ، وكانت هناك ثلاثة وثائق رسمية تفصح عن آرائه وخططه كاملة ، وأهم من ذلك كله تحدد ارتباطه أمام الذين انتخبوه وحتى الذين لم ينتخبوه .

كان هناك برنامج حزبه الدائم ، وكان هناك البرنامج الموحد لجبهة « ليكود » الذي دخل به انتخابات الكنيست سنة ١٩٧٧ ، ثم كان هناك خطابه الرسمي في جلسة الحصول على ثقة الكنيست عندما ذهب اليه ليقدم وزارته الجديدة ويطلب الثقة .

● كان برنامج حزبه يتحدث عن ثلاث نقط أساسية بالنسبة للصراع العربي الاسرائيلي :

١ ـ حق الشعب اليهودي في أرض اسرائيل غير قابل للطعن . ولا بد من رفض كل مشروع يسفر عن تقسيم أرض اسرائيل المحررة بصورة قانونية .

٢ ـ السلام معناه توقيع معاهدات سلام يمكن الوصول اليها فقط عن طريق مفاوضات مباشرة بين الأطراف . وشروط أمن اسرائيل جزء لا يتجزأ من معاهدات السلام مع الدول العربية ، وهذه الشروط مرتبطة ـ من خلال التجربة والحق ـ بممارسة السيطرة الاسرائيلية على مناطق استخدمها العدو ويمكن أن يستخدمها في المستقبل قواعد للعدوان .

٣ ـ ان الاستيطان الواسع النطاق في يهودا والسامرة وغزة والجولان وسيناء قضية لها اهمية حيوية .

● واستعدادا للانتخابات سنة ١٩٧٧ اتفقت جبهة « ليكود » على برنامج موحد تخوض الانتخابات على أساسه ، وكانت نقط البرنامج الموحد نقلاً حرفياً عن برنامج « بيجين » التقليدي ، غير أنه أضاف لها بعض التفاصيل :

١ ـ السيادة الاسرائيلية بين البحر ونهر الأردن لا تناقش . أرض اسرائيل للشعب اليهودي وليست لغيره .

٢ ـ ان العرب سيبدأون في التفكير بجدية في اقامة سلام حقيقي معنا عندما يتوصلون الى استنتاج قاطع بأنه ليس بامكانهم تدمير اسرائيل لا دفعة واحدة ولا على مراحل .

٣ ـ لا بد من دعوة العرب الى مفاوضات حول سلام تعاقدي في اجتماعات تعقد وجهاً لوجه ، وتجرى في عواصمنا بالتناوب ، ويتناوب الطرفان رئاسة جلساته دون وصاية طرف ثالث .

٤ ـ ان الرئيس الامريكي « جيمي كارتر » يعرف من قراءته للتوراة من هم أصحاب فلسطين ، ثم ان اسرائيل هي مصلحة قومية أمريكية في المنطقة ، سواء من ناحية عسكرية أو من ناحية صد الشيوعية .

● ثم يجيء أخيراً بيان طلب الثقة من الكنيست ، وهو أحدث هذه الوثائق جميعاً وأقربها الى الذاكرة ، فتاريخه هو الحادي والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٧٧ ، والملفت للنظر أن « مناحم بيجين » حدد فيه وجهة نظره في أمور سببت فيما بعد ذلك بشهور دهشة للذين سمعوها منه مباشرة ، وكأنه لم يقلها من قبل على مسمع من الدنيا كلها .

وكان بين ما قاله « بيجين » في هذه الجلسة ـ ٢١ يونيو ١٩٧٧ ـ وما كان يجب أن نسمعه جيداً ونعي معانيه :

١ ـ اني أعلن أن حكومة اسرائيل لن تطلب من أي أمة قريبة أو بعيدة ، صغيرة أو كبيرة ، أن تعترف بحقنا في الوجود . الحق في الوجود ؟ هل يخطر على بال أي بريطاني أو فرنسي ، بلجيكي أو هولندي ، روسي أو أمريكي ، أن يطلب الاعتراف بحق شعبه في الوجود ؟ ان وجودهم هو حقهم ، وينطبق نفس الشيء على اسرائيل . اننا لا ننتظر من أحد أن يطلب من أجلنا الاعتراف بحق وجودنا ، وانما المطلوب اعتراف آخر : اعتراف بسيادتنا على أرض اسرائيل .

٢ ـ ان أرض اسرائيل غير قابلة للمناقشة ، وأريد أن أذكر الكنيست بما قاله « جابوتنسكي » : « قبل قدومنا الى أرض اسرائيل لم نكن شعباً ولم نكن

موجـودين . على تراب أرض أسرائيل نشـأ الشعـب العبـري . على تراب أرض اسرائيل ترعرعنا ، وعليها أصبحنا مواطنين ، وحصنا عقيدة الرب ، وتنشقنا أريج البلاد في أعماقنا ، وفي نضالنا من أجل الاستقلال والحكم أحاط بنا جوها ، وغذت أجسادنـا الحيوية التي نمـت على أرضهـا . . . في أرض اسرائيل تطـورت أفـكار أمنياتنا ، وفيها نردد أول مرة نشيد الإنشاد . ان كل ما هو عبري فينا منحتنـا إياه أرض اسرائيل ، وكل ما عدا ذلك لدينا فهـو غـير عبـري ، وان اسرائيل وأرض اسرائيل هما شيء واحد » !

٣ ـ « اننا سنسعى الى تعميق الصداقة بيننا وبين الولايات المتحـدة . ان ما يوحد بين اسرائيل والولايات المتحدة ليس فقـط المشاعـر العميقـة والايمـان بالقيم الاخلاقية والديمقراطية المشتركة ، بل أيضـاً بحسـب ادراكنـا المصالـح المشتركة الحقيقية والعميقة . ان المشاعر والمصالح المشتركة أبقى من أي نظام وأقوى من أي ظروف سياسية مؤقتة . وأنا واثق من أن الشعب والادارة في أمريكا لن يقبلوا لنا الا ما نقبله لأنفسنا ، ففي علاقات المشاعر والمصالح ليس هناك ضغط يمارسه طرف ازاء طرف ، وان هذا النوع من العلاقات يقوم أساساً على الاحترام المتبادل » .

كانت هذه الوثائق كلها أمامنا من وقت مبكر ، ولكننا فيما يبدو لم نقرأ ، واذا كنا قرأنا فنحن بالتأكيد لم نفهم ، أو أننا تصورنا الأمور بمقياس ما نفعله أحيانـاً وليس ما يفعله الآخرون الذين يعتبرون مواثيقهم خططاً وبرامج وارتباطات يكون على أساسها ـ وعلى أساسها وحده ـ حساب التنفيذ والأداء والوفاء !

□

ان كثيرين خارج اسرائيل ـ في العالم العربي وبعيداً عنـه ـ فوجئـوا بفـوز « مناحم بيجين » في الانتخابات ودعوتـه الى تشـكيل الـوزارة . ولـكن « مناحـم بيجين » نفسه لم يفاجأ . وأظنه وضع فوزه في اطاره الصـحيح ، فلـم يبالـغ فيه بحيث يجد نفسه في النهاية معزولاً عن الرأي العام الاسرائيلي .

كان تقديره أن نجاحه يعود الى الأسباب التالية :

أولاً : أن الناس في اسرائيل قد صدموا بصور الفساد التي تكشفت بعد ثلاثين سنة من حكم تحالف أحزاب العمل .

ثانياً ـ ان هناك تطلعاً عاماً الى ضرورة التغيير .

ثالثاً ـ وهذه نقطة مهمة : ان الرأي العام الاسرائيلي لم يصل الى قرار بشأن موضوع الأراضي المحتلة ، وهل يكون هناك انسحاب منها أو لا يكون اطلاقاً ؟ واذا جاز أن يكون هناك انسحاب ، فالى أية خطوط ؟

ان الرأي العام الاسرائيلي يدرك أن « الأراضي » هي مفتاح كل شيء في أزمة الشرق الأوسط ، وهذا المفتاح لا ينبغي اللعب به أو تضييعه .

وعلى أساس هذه الحيرة لدى الرأي العام الاسرائيلي ، فانه اختار أن يضع في الحكم هؤلاء الذين يثق في أنهم سوف يحتفظون في أيديهم بمفتاح الأراضي مهما كانت الظروف . . . والى حين يستقر الرأي العام في اسرائيل على قناعة ثابتة دائمة .

وكان تقدير بيجين « أنه يستطيع في الحكم تشكيل قناعة الشعب الاسرائيلي الثابتة والدائمة في اتجاه الاحتفاظ بالأراضي » .

رابعاً ـ وهذه أيضاً نقطة مهمة : فان الرأي العام الاسرائيلي كان يحس أن القوة الوحيدة القادرة على الضغط للتخلي عن جزء من الأراضي هي الولايات المتحدة ، وبانتخابه لـ « مناحم بيجين » فانه اختار أكثر الأحزاب السياسية استعداداً لمقاومة احتمال الضغط الامريكي على اسرائيل .

(ولعلي أحدد أنني اعتمدت في شرح رؤية « مناحم بيجين » لمعنى فوزه في انتخابات الكنيست على وقائع جلسة مغلقة حضرها أخيراً في واشنطن مع مجموعة منتقاة من أعضاء « مجلس الرؤساء اليهود » في الولايات المتحدة . وكانت الجلسة جلسة عمل داخلي دعت اليها لجنة أمريكا / اسرائيل للشئون العامة ، وهي اللجنة التي تشرف على توجيه وتنسيق النشاط الاسرائيلي اليهودي في القارة الأمريكية ، والتي يدير أعمالها « موريس اميتاي » الذي يعتبرونه السفير الخفي ـ وربما الحقيقي ـ

لاسرائيل في واشنطن . وكانت بعض التفاصيل من وقائع هذه الجلسة قد وصلتني في القاهرة عن طريق مصدر اوروبي وثيق الاطلاع .

ولقد قصدت الى هذا التحديد لأني سوف أستشهد ببعض ما جرى في هذه الجلسة في بعض المواقع من بقية هذا الحديث) .

□

ان « مناحم بيجين » اعتبر أن زيارته الأولى للولايات المتحدة الأمريكية هي أول اختبار لا بد له أن يجتازه بنجاح ، وفي هذه الجلسة المغلقة التي حضرها مع بعض اعضاء مجلس الرؤساء اليهود في أمريكا ، فقد شرح « بيجين » أهمية تلك الزيارة بالنسبة له قائلاً :

ـ « انني عندما جئت الى هنا في المرة الأولى بعد أن توليت مسئولية رئاسة الوزارة في اسرائيل ، كنت اعرف أهمية الولايات المتحدة الحيوية بالنسبة لاسرائيل . والمسألة ليست التعرف على الرئيس كارتر وكبار مساعديه فقط ، ولكن الالتقاء معكم أنتم بما تمثلونه لاسرائيل هنا وبما تمثلونه للولايات المتحدة هناك .

انني جئت الى الولايات المتحدة قبل ذلك مرات عندما كنت في المعارضة ، وبعضكم كانت له تحفظات ازائي . كان هؤلاء البعض متأثرين بما سمعوه عني من اصدقائنا في حزب العمل . لثلاثين سنة كان زعماء حزب العمل الذين تحملوا مسئولية الحكم في البلاد هم بالنسبة لكم اسرائيل . وكنتم تسمعون منهم احياناً عني . ولم يكن كلامهم طيباً باستمرار . لقد صوروا لكم أننا نرفض السلام تحت أي شروط ، وأننا نطالب بحرب الى النهاية . وكان ذلك يثير قلقكم .

عندما جئت في المرة الأولى كان هدفي أن أقدم لكم نفسي ، وأشرح لكم هموم اسرائيل ، وأضع أمامكم برنامجي ، لأني أعلم أننا قد نواجه ظروفاً صعبة سيكون عليكم فيها أن تتحملوا مسئولية تاريخية ازاء شعب اسرائيل وأرض اسرائيل .

انني أريد سلاماً ، ولكن سلاماً بالقطارة على طريقة الخطوة خطوة لا يصل بنا

الى سلام حقيقي ، وانما يؤدي بنا الى سلسلة من التنازلات تبدو جزئية في كل مرة ، ولكنها في النهاية تتراكم على بعضها ، ويمكن أن تشكل كارثة على الأمن القومي لاسرائيل .

ان سير الأمور في الولايات المتحدة سوف يؤثر تأثيراً كبيراً على موقف اسرائيل .

كان العرب في البداية يتصورون أن لديهم القدرة على مواجهة اسرائيل ، والآن فقد اقتنعوا أنهم لا يستطيعون ذلك .

وفي مرحلة من المراحل كان العرب يتصورون امكانية الاستعانة بالاتحاد السوفيتي لمواجهة اسرائيل ، ولكن حالة العلاقات بين العرب والاتحاد السوفيتي أزاحت هذه الامكانية ـ على الأقل في الوقت الحاضر .

والآن يتصور العرب أنهم يستطيعون استعمال الولايات المتحدة في الضغط على اسرائيل ، وينبغي أن تفشل هذه المحاولة .

اننا جعلنا العرب ييأسون من أنفسهم . . . ثم جعلناهم ييأسون من الاتحاد السوفيتي . . . . والآن لا بد أن نجعلهم ييأسون من الضغط علينا بواسطة الولايات المتحدة ، وعندما يتم ذلك فسوف يدركون أنه ليست أمامهم وسيلة غير التوجه الى اسرائيل مباشرة وقبول ما تعرضه عليهم » .

□

بهذا النوع من الأفكار في ذهنه أخذ « بيجين » مبادرة السادات ـ عندما وقعت ـ بالمنطق الوحيد الذي يستطيع استساغته . وقد روى « شيمون بيريز » ـ رئيس حزب العمل الاسرائيلي وزعيم المعارضة في اسرائيل ـ لبعض أعضاء الوفد الفرنسي في اجتماعات الاشتراكية الدولية الثانية التي عقدت اخيرا في فيينا أن « مناحيم بيجين أصابه نوع مخيف من الغرور والاستعلاء بعد زيارة الرئيس السادات للقدس » .

وكان بين ما قاله « شيمون بيريز » :

ـ من سوء الحظ أن هذه المبادرة تأخرت جداً ، فلم تحدث الا و « بيجين » في الحكم . ولقد أخذها « بيجين » باقتناع كامل أن شخصيته وسياسته هما اللتان جعلتا العرب في النهاية يذهبون الى اسرائيل ، لأنهم أدركوا أخيراً أنه ليس أمامهم غير ذلك سبيل .

لم يكن مستعِداً لأن يسمع نصيحة أحد . فقد كان أول رئيس وزراء اسرائيلي يستقبل زعيماً عربياً في عاصمة اسرائيل .

وأعود الى حديث « بيجين » في جلسة العمل المغلقة مع مجموعة « الرؤساء اليهود في الولايات المتحدة » .

كان بين ما قاله « بيجين » في تلك الجلسة الخطيرة :

ـ ان الرئيس السادات جاء الى القدس وكان بغير شك على اطلاع كامل بالنسبة لسياسة الحكومة ، ولقد اعدت تأكيد خطوط هذه السياسة في نفس الوقت الذي وجهت فيه الدعوة اليه ، لأني لم أشأ أن أترك شيئاً للمصادفات .

وكان معنى مجيئه بالنسبة لي أنه نظر في شروطنا فأعجبته ، ومن ناحيتي فقد أعجبني أن شروطنا أعجبته .

ولقد اندهشت أن الرئيس السادات قال انه لا يريد حلا منفرداً مع اسرائيل ، وكان رأيي أنه ليس أمامنا شيء آخر ، فهو لم يكن يحمل ـ حين جاءنا ـ تفويضاً من الآخرين ، بل ان الآخرين كانوا يهاجمون زيارته لنا .

وكان رأيي أن الرئيس السادات سوف يرى الحقيقة الموضوعية في الموقف بعد فترة من التجربة ، ولهذا فان تعلياتي الى وفدنا الذي ذهب الى محادثات القاهرة كانت محددة بقصر المناقشة على العلاقات المصرية الاسرائيلية ، ولم تكن هناك امكانية حقيقية ليحث أي شيء غير ذلك .

وفي اجتماعات القاهرة ظهرت فكرة اعلان المبادىء ، وكان الوفد الأمريكي هو الذي تحمس لها على أساس أنها تطمئن السعودية وتعطي تغطية كافية لاشتراك وفد من الأردن في هذه المحادثات ، حتى لا تظل بيننا وبين مصر وحدنا . ونحن كنا راغبين في حضور الملك حسين . ولكن أي اعلان للمبادىء نشترك فيه لا يمكن أن يتعدى سياساتنا المرسومة ، ولذا واجهنا كثيراً من المشاكل لم نستطع بعد ذلك حلها في الاسماعيلية .

انكم تذكرون أنني ـ قبل الاسماعيلية ـ جئت الى هنا ومعي مشروع كامل للسلام ، وقد عرضته على الرئيس « كارتر » وكبار مستشاريه ، وكان رأيهم أنه ايجابي ، وأنه خطوة كبيرة على طريق السلام . ولكن ذلك لم يكن كافياً ليحل العقد في الاسماعيلية .

انني ـ قبل الاسماعيلية ـ أرسلت وزير الدفاع « وايزمان » الى مصر ومعه خريطة لسيناء تحمل مواقع المستعمرات التي ننوي الاحتفاظ بها هناك في حماية جيش الدفاع الاسرائيلي لضرورات أمن اسرائيل ، ولم نسمع اعتراضا عليها .

وفي الاسماعيلية فان بعض موظفي وزارة الخارجية المصرية لدغهم ثعبان عندما رأوا هذه الخريطة وعندما سمعوا بمقترحاتنا لاعلان المبادىء . كانوا يفكرون بعقلية الماضي ، ولم يتطوروا الى درجة فهم الواقع والمستقبل » .

□

ثم وصل « بيجين » قرب نهاية حديثه في تلك الجلسة الخطيرة مع « الرؤساء اليهود في الولايات المتحدة » الى الجزء الحيوي والحساس في حديثه على النحو التالي :

ـ انني اعتقد أن مصر سوف تصل في النهاية الى التأكد من أن الطريق الوحيد للتقدم هو عقد اتفاق سلام منفرد مع اسرائيل . وبعض الناس في الادارة الامريكية يختلفون معي في ذلك ، ولكني قلت لهم : انني واثق مما اقول . وحين اعترضوا

عليّ بأن ما يعرفونه عن موقف المصريين يختلف مع ما أقول ، كان ردي عليهم : « انني لا أختلف معهم في شأن ما يسمعونه من المصريين . ولكن اذا درسوا المسألة جيداً فسوف يعرفون أن القيام بزيارة القدس كان في وقت من الأوقات يبدو أكثر استحالة من قبول اتفاق سلام منفرد . هذه عبرة الحوادث نفسها ، ولا شأن لها بما يقوله أحد او ما يسمعه أحد .

ولكن الامريكيين يستطيعون ـ بعدم فهمهم لعبرة الحوادث ـ أن يعطلوا الأمور بدلا من أن يدفعوها .

انني غيرت سياسة الحكومة الاسرائيلية عما كانت عليه وقت من سبقوني من حزب العمل . كانوا يصرون على التنسيق المسبق مع الولايات المتحدة لنتقدم نحن وهم الى العرب بموقف واحد ، ولكني رأيت أن هذا الحال يضع الولايات المتحدة في مشاكل مع العرب ، ويضعنا نحن في مشاكل مع الولايات المتحدة ، ولهذا فانني اقترحت ـ وقبلوا ـ أن تكون مواقف كل منا هي مواقفه ، نتفق حين تتوافق آراؤ نا ، وحين تختلف آراؤ نا فاننا نستطيع أن نتفق على أن لا نتفق .

اننا ندرك ونهتم بمصالح الولايات المتحدة لدى العرب ، ولكننا لا نريد ولا نستطيع ان نجعل من هذه المصالح وسيلة للضغط علينا . ان اصدقاءنا الأمريكيين يقولون لنا أنهم يمارسون الضغط على الطرفين لكي يصلوا الى مواقف معقولة ، ولكن المشكلة أنهم حين يضغطون على العرب فقصارى ما سوف يحصلون عليه هو تعهدات كلامية من حكومات تعرفون جميعاً ظروفها ، وأما حين يضغطون على اسرائيل فان ما سوف يحصلون عليه ـ لو قدر الله ونجح الضغط ـ ليس مجرد تعهدات كلامية وانما ميزات حقيقية : اراضي .

ان العرب يحاولون الآن أن يأخذوا بالدبلوماسية ما عجزوا عن اخذه بالحرب ، وذلك ببساطة غير ممكن .

ان أحد مستشاري الرئيس « كارتر » ، عندما سمعني أتحدث عن أمن اسرائيل ، قال لي :

« انك تتحدث وكأن هناك في الدنيا شيء اسمه « الأمن المطلق » لطرف من الأطراف .

ان ما يجب أن تسعى لتحقيقه هو الأمن النسبي ، وأما الأمن المطلق فانه صعب التحقيق ، واذا تحقق فانه سوف يكون بالضرورة على حساب امن الآخرين » .

وكان ردي عليه أن طلبت منه أن ينظر الى الخريطة ليرى مساحة العالم العربي وليرى مساحة اسرائيل . . . ثم يتذكر عدد سكان العالم العربي وعدد سكان اسرائيل .

ان لديهم عشرين دولة مستقلة ، واسرائيل دولة واحدة .

وهم مائة وخمسون مليونا ، ونحن ثلاثة ملايين فقط .

انهم بعد ذلك سألوني :

ـ هل يطمئنني الى أمن اسرائيل ان تعقد الولايات المتحدة معها معاهدة دفاع مشترك ؟ .

وكان ردي :

ـ انني أفضل أن تعتمد اسرائيل على نفسها في ضمان أمنها ، ومع ذلك فاني أقبل معاهدة الدفاع المشترك اذا كان الرئيس كارتر على استعداد لعقدها للفترة التي أريدها .

وسئلت عن الفترة التي أريدها ، فقلت :

ـ ألفي سنة !.

ودهشوا وتساءلوا :

ـ لماذا ألفي سنة ؟ »

وكان ردي أن هذا هو عدد السنين ـ أو عدد القرون ـ عشرون قرناً عاشها الشعب اليهودي في التيه قبل أن يعود الى أرض اسرائيل .

□

ماذا بقي ليقال الآن بعد ذلك كله ؟

وهل ما زلنا في انتظار الرد الاسرائيلي على المبادرة ؟

كان رأيي ـ وما زال ذلك رأيي ـ أن الرد أمامنا : الرد هو « مناحم بيجين » شخصياً !

نظرة جديدة على الناحية الأخرى ٣

سوء الحظ أو هو شيء آخر؟!

على منتصف الطريق الممتد بحذاء ساحل البحر الأبيض بين الاسكندرية ومرسى مطروح ، والى الغرب قليلاً من قرية العلمين التي شهدت واحدة من أعظم معارك الحرب العالمية الثانية - تبرز من الأرض على أحد جانبي الطريق لوحة من رخام أبيض تحدد أقصى نقطة تقدمت اليها الجيوش الايطالية والألمانية - جيوش المحور - في محاولتها الفاشلة لغزو مصر سنة ١٩٤٢ .

كانت لوحة الرخام الأبيض شاهدا أقيم بأمر من الماريشال « جرازياني » - القائد العام الايطالي لقوات المحور - الذي أمر أيضاً بأن تحفر على وجهها جملة مأثورة تحمل توقيعه تحتها - تقول ما ترجمته بالنص عن الايطالية : « لم تكن تنقصنا الشجاعة . . . ولكن الحظ » !

ويبدو أن الماريشال الايطالي أراد أن يترك وسط الصحراء تسجيلاً باقياً أمام الدنيا وأمام التاريخ يشرح - أو يبرر - وجهة نظره في سبب هزيمته .

وأتذكر أن الماريشال « مونتجمري » - القائد البريطاني الذي انتصر في معركة العلمين - كان هو الذي لفت نظري الى لوحة « جرازياني » عندما ذهبت معه الى زيارة مواقع حرب الصحراء الغربية ، في مناسبة ذكرى مرور خمسة وعشرين سنة عليها - سنة ١٩٦٧ . ويومها كنا ثلاثة في سيارة « مونتجمري » : الجنرال « دي جينجان » رئيس أركان حربه وقت المعركة ، والسيد « دنيس هاملتون » رئيس مجلس ادارة « التيمس » الآن وكان من أقرب معاوني « مونتجمري » وقت الحرب ومن أقرب أصدقائه بعدها ، ثم أنا .

وعندما توقفت السيارة بجانب لوحة الرخام ، ونزل الماريشال « مونتجمري » ونزلنا معه ، وقف أمام اللوحة وأشار بعصا الماريشالية في يده الى

نقوشها ، وسألنا باسما :

ـ هل رأيتم « اظرف » من هذا الأثر الذي تركه لنا جرازياني ؟ »

واستطرد « مونتجمري » يقول :

ـ لكم أن توافقوا أو لا توافقوا على كفاءة جرازياني العسكرية . . . ولكن لا يستطيع أحد أن يختلف معي في أن الماريشال الايطالي كان « فناناً » .

لا بد أن يكون فناناً ذلك الذي يتذكر قبل انسحاب جيوشه ، وفي زحمة القرارات التي كان عليه اصدارها ـ أن يطلب عمال قطع الرخام وحفره وأن يسرح بخياله فيختار جملة لها هذا الرنين الدرامي لكي يسجلوها له على صفحة الحجر . . . « لم تكن تنقصنا الشجاعة . . . ولكن الحظ » !

ورحنا جميعاً نتطلع الى اللوحة في صمت ، والماريشال « مونتجمري » يواصل تأملاته قائلا :

ـ ايطالي فقط هو الذي يملك الحاسة التي تجعله يترك مثل هذا الأثر في هذه الصحارى . . . ومع ذلك فنزعة الهرب من المسئولية ليست ايطالية فقط وانما هي انسانية . . . لا أحد على استعداد للاعتراف بسوء التقدير ، وهكذا فلا بد من دفع المسئولية الى سوء الحظ !!

□

ولست أعرف لماذا تعود هذه الواقعة الى فكري عندما أقرأ ما ينشره بعض الكتاب الآن عن « الفرص التي أضاعها سوء الحظ » لحل أزمة الشرق الأوسط :

● لو أن « ريتشارد نيسكون » بقي في رئاسة الولايات المتحدة الى نهاية مدته الطبيعية ، ولم تسقطه القوى الشريرة التي دبرت مؤامرة « ووترجيت » ، لكانت أزمة الشرق الأوسط الآن قد وجدت حلها ـ هكذا يقولون مثلا .

● لو أن « جيرالد فورد » نجح في انتخابات سنة ١٩٧٦ ، وعاد الى البيت الأبيض ومعه « هنري كيسنجر » وزيرا للخارجية ، لكانت ازمة الشرق الأوسط الآن قد وجدت حلها ـ هكذا يقولون أيضاً .

● لو أن « جولدا مائير » هي التي تتولى الآن رئاسة الوزارة في اسرائيل ، أو لو أن حزب العمل هو الذي يحكم الآن تحت زعامة « شيمون بيريز » ، لكانت أزمة الشرق الأوسط الآن وجدت حلها ، أو على الأقل طريقها اليه ـ هكذا يقولون أخيراً .

سوء الحظ وحده في تقديرهم هو الذي ذهب بـ « نيكسون » و « فورد » و « كيسنجر » ، وجاء بـ « مناحم بيجين » الى رئاسة الوزارة في اسرائيل .

والغريب أننا لا نتوقف لنسأل أنفسنا :

ـ أي أمل كان لنا مع رئيس أمريكي خان أمانة منصبه ؟ ومع ذلك فما الذي فعله « ريتشارد نيكسون » أكثر من أنه كان الرئيس الأمريكي الذي حصلت اسرائيل في عهده على سلاح من الولايات المتحدة لم تحصل عليه من قبل عهده . . . ولم يكن هناك بين قوى العالم جميعها من يستطيع تقديمه لها غير الولايات المتحدة . . . ثم أليس « ريتشارد نيكسون » هو صاحب الجسر الجوي لامداد اسرائيل أثناء حرب أكتوبر ، وهو الجسر الذي تقول أنه جعلنا نوقف الحرب بمنطق « أننا لا نستطيع أن نحارب أمريكا » !

والغريب أيضا أننا لا نتوقف لنسأل أنفسنا :

ـ أي أمل كان لنا مع « فورد » و « كيسنجر » ؟ وأليس « كيسنجر » هو الرجل الذي أوصل الموقف التفاوضي العربي الى حيث هو الآن . . . ارتباكاً وضعفاً ؟ وصحيح أنه ليس من حقنا أن نلومه لأنه تصرف على النحو الذي يراه محققاً لمصالح الولايات المتحدة أولا وأخيراً . هذا واجبه . ولكن ذلك شيء ، وأن نندب الحظ العاثر الذي حرمنا منه شيء آخر . . . أليس كذلك ؟ !

والغريب أخيراً أننا لا نسأل أنفسنا :

ـ هل صحيح أن بسمة الحظ غابت عنا بغياب السيدة « جولدا مائير » ، وهل

صحيح أن أملنا في حل أزمة الشرق الأوسط خاب ـ بسوء الحظ ـ مع خيبة « شيمون بيريز » في أن يعود حزب العمل الى أغلبية في انتخابات الكنيست الاسرائيلي ؟

هل هذا صحيح ؟ أو هل هـو مما يجوز لنا تصوره ؟ وعلى أي أساس ؟ !

□

هل يمكن أن نكون قد نسينا التاريخ وفقدنا الذاكرة الى هذا الحد ؟

● كانت « جولدا مائير » ـ بلحمها وشحمها ـ رئيسة لأغلبية في الكنيست من حزب العمل ورئيسة للوزراء في الفترة التي أقيمت فيها المستعمرات في الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء ـ وكان يقال للعرب صراحة :

ـ اذا أردتم أن تعرفوا خريطة اسرائيل الجديدة ، فانظروا الى مواقع المستعمرات الجديدة . . . . خطوطها هي نفس خطوط حدود اسرائيل !

● وكانت « جولدا مائير » ـ بلحمها وشحمها ـ رئيسة لأغلبية في الكنيست من حزب العمل ورئيسة للوزراء خلال سنوات طويلة حاول فيها الملك حسين ـ عن طريق الولايات المتحدة وغيرها ـ أن يجد حلا للضفة الغربية ، ولم يجد أمامه غير « مشروع اللون » . وهو مشروع يعطي الأردن بعض مظاهر الوجود الاداري في الضفة الغربية ، ولكنه يحتفظ عليها بسيطرة المستعمرات الاسرائيلية ، محمية بقوة الجيش الاسرائيلي . وكانت القدس خارج اي نقاش . ورفض الملك حسين لسبع سنوات متصلة ، وحين طلب اليه أن يخلي مسئوليته عن الضفة الغربية في مؤتمر الرباط ، فانه وقف ليسجل ما كان معروضاً عليه ورفضه ، وتمنى التوفيق للآخرين !

● وكانت « جولدا مائير » ـ بلحمها وشحمها ـ رئيسة لأغلبية في الكنيست من حزب العمل ورئيسة للوزراء حين بعثت الى الرئيس السادات في فبراير سنة ١٩٧١ ـ عن طريق مبعوث الامم المتحدة المكلف بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، وهو السفير « جوناريارنج » ـ تقول له :

ـ لو أن ردك على يارنج تضمن ما يعني قبول مصر لاتفاقية سلام مع اسرائيل ، لانتهت المشكلة .

وصدرت التعليمات بأن يتضمن رد مصر وقتها كلمة « اتفاقية سلام » ، وكان تعليق « جونار يارنج » ـ حينما قرأ الرد المصري ووجد فيه كلمة « اتفاقية سلام » ـ هو قوله : « لم تبق لدى السيدة حجة » . . . ومع ذلك فقد بقيت لدى السيدة حجج !!

□

ويقول أنصار مذهب « الحظ » في السياسة وادارة الصراعات : « ان ذلك كله كان قبل المبادرة ، وأما بعد المبادرة فقد تغير كل شيء » !

وهذا اعتراض يستحق المناقشة . ومن حظنا ـ ولا أعرف لحسنه أو لسوئه ـ أن آراء « شيمون بيريز » الذي حل محل السيدة « جولدا مائير » في رئاسة حزب العمل ، ومقترحاته البديلة للمفاوضات على أساس المبادرة ـ موجودة أمامنا ومنشورة ، فقد أفضى بها « شيمون بيريز » بنفسه الى « ويليام بيتشر » مساعد وزير الدفاع الأمريكي الأسبق الذي كتب تقريرا عنها نشرته جريدة « البوسطن جلوب » الأمريكية .

كان لقاؤهما في مكتب زعيم المعارضة في الكنيست الاسرائيلي .

ولم يكن « شيمون بيريز » يتحدث مع صحفي عادي ، وانما كان يتحدث مع صديق قديم سبق له أن تعامل معه تعاملاً حمياً عندما كان « بيتشر » مساعداً لوزير الدفاع الأمريكي ، وكان « شيمون بيريز » مساعداً لوزير الدفاع الاسرائيلي ووزيراً للدفاع الاسرائيلي فيما بعد .

في بداية هذه المقابلة نقل « ويليام بيتشر » عن « شيمون بيريز » قوله :

« ان حزب العمل لا يرى أن المقترحات المعروضة الآن من مناحم بيجين

يمكن أن تؤدي الى نتيجة ، ولكن الحزب سوف ينتظر فترة من الوقت ليرى ما اذا كانت هذه المقترحات قادرة على ارضاء مصر ، أو على اغراء الأردن لكي ينضم الى مفاوضات السلام .

انني متشائم ، ولكني أوثر الانتظار قبل تقديم أية مقترحات بديلة » .

وكان طبيعياً أن يسأله « بيتشر » عن تصوره للمقترحات البديلة ، وكانت اجابة « شيمون بيريز » كما يلي ـ نقلاً حرفياً عن تقرير « بيتشر » كما ظهر في « البوسطن جلوب » :

ـ بالنسبة للخطوة الأولى ، فان مشروعي يتفق مع مشروع « بيجين » فيما يتعلق بالضفة الغربية وقطاع غزة ، ووجهة نظرنا أن يقوم فيهما نظام ادارة ذاتية لمدة خمس سنوات ، وبعد هذه السنوات الخمس فاننا سوف نكون على استعداد لأن نتفاوض من جديد مع الأردن حول الاعتراف بالسيادة الأردنية على اجزاء من هذه المناطق ، على أن الحدود الجديدة سوف يجرى تحديدها عن طريق المفاوضات .

« ان مشروع مناحم بيجين لا يسلم بمبدأ أي سيادة غير اسرائيلية على هذه المناطق ، حتى بعد انتهاء فترة السنوات الخمس ، وأما نحن فعلى استعداد للتخلي عن السيادة على أجزاء منها » .

وهنا سأل « بيتشر » :

ـ أليس ذلك هو مشروع آللون ؟

وقال « بيريز » :

ـ بالضبط . . هذه هي الخطوط العريضة لمشروع اللون ، ولكنها سوف تفتح الباب لاحتمالات مفاوضات على حدود جديدة .

وعاد « بيتشر » يسأل :

ـ ولكن ما الذي يدعو الملك حسين الى تغيير رأيه ؟ ولماذا يقبل الآن مشروع اللون الذي كان يرفضه من قبل ؟

ورد « شيمون بيريز » :

ـ ان مبادرة الرئيس السادات غيرت الموقف جوهرياً . . . في الماضي كان الملك حسين سوف يتصرف ـ اذا تصرف ـ وحده . وأما الآن فان الأردن ـ اذا قبل ـ لن يكون وحده . الآن سوف تكون مصر معه . وسوف تكون معه وجهة نظر عربية أوسع « تمثل نظرة جديدة للعلاقات مع اسرائيل » .

(هكذا فانه من وجهة نظر « بيريز » فان المبادرة لم تكن ضغطاً على اسرائيل ، وانما هو يريدها ـ أو يتصورها ـ ضغطاً على بقية الأطراف العربية !!) .

□

وينتقل « ويليام بيتشر » في حواره بعد ذلك الى قضية المستعمرات الاسرائيلية في سيناء ، ويرد زعيم حزب العمل بقوله :

ـ ان هذه المستعمرات تقوم في منطقة حيوية بالنسبة لاسرائيل ، فهذه المنطقة هي بوابات الدخول من سيناء الى اسرائيل ، ولهذا فانه من الضروري الاحتفاظ بها ، وقد كانت حكومة حزب العمل هي التي انشأت هذه المستعمرات ضمن تصورها لحل مشكلة الأمن في ظل اتفاقية سلام .

ولكن مناحم بيجين أخطأ في مشروعه الذي تقدم به .

هو أولا تسرع في تقديم اعترافه بالسيادة المصرية على كل سيناء مع رغبته في الاحتفاظ بالمستعمرات وفقاً لترتيب أمن خاص .

ان السيادة لا تتفق مع بقاء هذه المستعمرات محمية بالجيش الاسرائيلي .

ان بقاء هذه المستعمرات محمية بالجيش الاسرائيلي مسألة ضرورية وحيوية لأمن اسرائيل ، ولكن كان على مناحم بيجين أن يختار أحد بديلين :

ـ اما أن يعرض على مصر قطعة أرض بديلة في النقب تضمها الى اراضيها في مقابل هذه المستعمرات .

ـ وأما أن ينتظر مرحلة لاحقة في المفاوضات يعرض فيها رسم حدود جديدة بين مصر واسرائيل ، بحيث يكون ما تحصل عليه مصر من سيناء بعد هذه الحدود الجديدة تحت سيادتها الخالصة بدون أية قيود .

(هكذا فان مشروع حزب العمل يقوم اما على سلخ جزء من التراب المصري وضمه الى اسرائيل وفق خريطة حدود جديدة . . . واما تعويض مصر ـ اذا أصرت ـ بقطعة من النقب ، أي أن اسرائيل على استعداد لأن تعطي مصر قطعة من أرض فلسطين المحتلة مقابل قطعة من أرض مصر تضم الى اسرائيل !!) .

□

ان « ويليام بيتشر » لم يشأ أن يقتصر في استطلاع رأي المعارضة الاسرائيلية على رأي زعيمها الرسمي « شيمون بيريز » ، وانما ذهب أيضاً فاستطلع رأي « اسحق رابين » رئيس الوزراء ورئيس حزب العمل السابق . وكان هو الآخر صديقاً لـ « ويليام بيتشر » من أيام عمله سفيراً لاسرائيل في واشنطن ، وكانت صلته بـ « ويليام بيتشر » ـ بوصفه مساعداً لوزير الدفاع الامريكي وقتها ـ صلة وثيقة ومستمرة .

وكان مشروع « رابين » ـ كما أسر به الى « بيتشر » ـ طبعة أخرى من مشروع « بيريز » .

فقد قال « رابين » بالحرف :

ـ ان مشروعي للسلام يقوم على العناصر التالية :

١ ـ تؤجل مسألة السيادة على الأراضي المحتلة لفترة انتقالية مدتها ما بين خمس الى عشر سنوات .

٢ ـ بالنسبة للضفة الغربية وغزة ، تقوم ادارة ذاتية يديرها رسميون فلسطينيون .

٣ ـ تكون اسرائيل مسئولة عن الأمن .

٤ ـ يكون لاسرائيل الحق في اقامة مستعمرات جديدة ، ولكن على اساس يتفق عليه الطرفان ـ الأردن واسرائيل .

٥ ـ في نهاية فترة الانتقال ، يكون كل شيء قابلاً للتفاوض !

٦ ـ بالنسبة لسيناء ، فان المستعمرات التي اقيمت فيها لازمة لأمن اسرائيل ، ويمكن تعويض مصر عنها بجزء من النقب الجنوبي .

٧ يبدأ العمل على الفور باتفاقيات سلام تتضمن تطبيع العلاقات ، بحيث تكون تجربة التطبيع هي الحافز لاسرائيل على أن تكون سخية في المفاوضات التي تعقب انتهاء مرحلة الانتقال !

ويبدو أن « بينشر » لم يناقش في حواره مع « اسحاق رابين » ـ كما فعل مع « شيمون بيريز » ـ تفاصيل مشروعه بالنسبة للضفة الغربية وغزة ، ولكنه ركز تساؤلاته حول ما اذا كانت مصر تستطيع قبول مبادلة جزء من سيناء بجزء من النقب الجنوبي ، وكان رد « رابين » :

ـ ان بيجين والسادات كلاهما رفضا هذه الفكرة حينما « انطلقت » في الجـو .

ولكن بيجين يجب أن يفكر في هذا الموضوع جدياً لحل العقدة مع مصر ، ومن ناحية أخرى فان البروفسور يادين ـ يقصد ايجال يادين نائب رئيس الوزراء

الاسرائيلي ـ جس نبض مسئول مصري كبير حولها ، واحس من الرد الذي تلقاه ان الفكرة يمكن أن تكون موضع بحث !!

(وهذه هي المعارضة التي شاء سوء الحظ ان يقتلعها من الحكم قبل الأوان . . . والتي لو أنها كانت هناك لاختلفت الأمور وتغير مجرى التاريخ ، ولكنه سوء الحظ ـ كما يقولون !!) .

□

لكن القصة مع « الحظ » لم تتوقف عند هذا الحد ، فما زالت هناك آمال معلقة ، اذا حدث وهبت رياح مواتية ـ كما يقول القائلون .

وعلى سبيل المثال ، فان الحظ مفتوح الآن للحسن أو السوء ـ ! ـ اذا حدث واستطاعت الولايات المتحدة ـ وفق بعض الأقوال ـ أن ترغم « مناحم بيجين » على الخضوع .

واللافت للنظر أن هذه الأقوال لا تحدد نقط الخلاف بين « بيجين » والولايات المتحدة ، ونقط الاتفاق بينهما ، لكي يستطيع الآخرون أن يعرفوا ما هو هذا الذي تريد أمريكا أن ترغم « بيجين » عليه . . . وعلى فرض أنه أرغم ، فهل هذا الذي أرغم عليه مقبول من وجهة النظر العربية أو هو غير مقبول .

واذا جاز لنا أن نقبل شهادة « بيجين » في نقط الاتفاق بينه وبين الولايات المتحدة ، فسوف نجد ـ بشهادة « بيجين » ـ أن الاتفاق بين الاثنين كامل على ما يلي :

١ ـ لا دولة فلسطينية مستقلة بين نهر الأردن والبحر الأبيض .
٢ ـ لا دور لمنظمة التحرير الفلسطينية في أية مفاوضات .
٣ ـ ان القوات الاسرائيلية لا بد لها من البقاء في الضفة الغربية للأردن وفي قطاع غزة ،حتى بعد اجراء استفتاء تراه الولايات المتحدة بعد خمس سنوات ، ومهما كانت نتيجة هذا الاستفتاء الذي لا يعرف أحد ما هي الأسئلة التي سيطرحها ، وان

كان « بيجين » يرفض فكرة الاستفتاء من أساسها .

أليس أن معرفة « المشروع الأمريكي » كاملاً ضرورية قبل أن ننتظر ارغام الولايات المتحدة لـ « بيجين » على شيء ، أو فشلها في ارغامه ؟

لعلي أضيف هنا أنني واحد من الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة تستطيع أن تمارس بعض الضغط على اسرائيل ، ولكن الضغط الأمريكي لا يتحرك وحده ومن تلقاء نفسه ، وانما هو يتحرك بفعل ضغوط اخرى عليه هو نفسه ، وهذه الضغوط مصدرها عربي ودولي ، وأعترف أنني لا أرى في الساحة حتى الآن أثراً لها (وتلك قصة أخرى !) .

□

لكن أنصار « الحظ » ما زال عندهم أمل في ريح مواتية أخرى . . . في محاولة أمريكية لتغيير التحالف الحاكم الآن في اسرائيل بتحالف آخر لا يرأسه « مناحم بيجين » ، او بالبحث عن تحالف جديد في اطار انتخابات جديدة للكنيست تجرى في اسرائيل .

ولست أعرف ما الذي يمكن أن يعرضه أي تحالف حاكم في اطار نفس الكنيست القائم الآن ـ ولدينا مشروعات « بيريز » و « رابين » وغيرهما ؟.

كذلك فلست اعرف ما الذي يمكن أن تسفر عنه أية انتخابات لكنيست جديد ، وخشيتي أننا سوف نجد أمامنا « مناحم بيجين » مرة أخرى معززاً بتفويض أقوى !

ان المشكلة في اسرائيل ذاتها ، وليست في أي تحالف يحكمها . واسرائيل تريد السلام بلا شك ، ولكنها تريده سلامها .

واسرائيل ـ ـ مع السلام ـ تريد الأرض ، سواء بدعوى التوسع أو بدعوى الأمن .

ونقطة الخلاف الجوهرية هي في الواقع بين الذين يريدون الأرض بدعوى التوسع - أي كامل أرض اسرائيل - أو الذين يريدون الأرض بدعوى الأمن ، وهكذا فانهم يكتفون بمجرد طلب السيطرة عليها عن طريق الجيش الاسرائيلي .

وواقع الخلاف أن الذين يطالبون بكامل أرض اسرائيل سوف يواجهون بمشكلة السكان العرب الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة . . . وجود هؤلاء السكان سوف يؤثر في « النقاء اليهودي للدولة » ، وهو أساس الفكرة الصهيونية ، وهذا ما يقوله أنصار المطالبة بالاكتفاء بالسيطرة عليها بوجود الجيش الاسرائيلي .

أي أن أنصار التوسع يرون للدولة اليهودية حدوداً واحدة ، هي كامل أرض اسرائيل .

وأما أنصار الأمن فيرون للدولة اليهودية نوعين من الحدود : حدود الدولة اليهودية ذاتها ، وحدود الأمن اللازمة لها .

□

وأنصار « الحظ » لا ييأسون ، والحظ كما نعرف رمية زهر ، وهكذا تجمع التصورات الى احتمالات أخرى قد تجيء بها رياح مواتية .

ربما بقي التحالف الحاكم ، وبقي « بيجين » على رأسه .

وربما جاء تحالف جديد ، وعاد اليه « بيجين » أو لم يعد .

ما زال هناك شيء آخر .

والغريب أن هذا الشيء الآخر ظاهر أمامهم في اسرائيل ، وقد ذهب به صحفي اسرائيلي بارز - يتردد كثيراً على القاهرة هذه الايام - وطرحه أمام مسئول مصري كبير .

وقال هذا الصحفي الاسرائيلي البارز لمحدثه :

ـ ان الحكومة في اسرائيل ترى أنكم تقومون بمناورة لا يفهمونها .

فأنتم ـ فيما يبدو لهم ـ تتصورون أنه في مقدوركم احداث خلاف بين « بيجين » رئيس الوزراء وبين « ايزر وايزمان » وزير الدفاع .

ان حدوث هذا الخلاف صعب ، ليس لأن العلاقات بين « بيجين » و « وايزمان » وثيقة الى أبعد حد . . .

لقد اختلف الاثنان من قبل ، ويمكن لهما أن يختلفا اليوم وغدا وبعد غد .

ولكن المشكلة أن آراء « وايزمان » لا تقل تشدداً عن آراء « بيجين » . كل ما هناك أن « وايزمان » واحد من الذين يعتقدون أنه يمكن اخراج مصر من الصراع بصلح منفرد مع اسرائيل ، اذا تركت له حرية في التكتيك . وقد تركوا له مثل هذه الحرية . ولهذا فانه يجب عليكم أن تلعبوا أوراقكم بحذر .

وحين سئل الصحفي الاسرائيلي البارز :

ـ واذن ، ما الذي تنصح بعمله ؟ »

كان رده :

ـ لا بيجين ولا وايزمان . . . عليكم أن تعملوا على تغيير قناعات الرأي العام الاسرائيلي . . . لا تتركوا مظاهرة هنا أو مظاهرة هناك تؤثر عليكم . . ان العملية شاقة وطويلة . . . أمامكم عشر سنوات على الأقل من العمل للتأثير على الرأي العام الاسرائيلي ، فهو الأساس الذي تقوم عليه كل الأحزاب ويعبر عنه كل الساسة .

وفجع المصري المسئول ، وقال مستنكرا :

ـ عشر سنوات . . . عشر سنوات ؟ هل هذا معقول ؟

وكان رد الصحفي الاسرائيلي البارز :

ـ ان بيجين يقول للاسرائيليين كل يوم : ان صراع ثلاثين سنة لا ينتهي في ثلاثة أيام أو ثلاثة شهور أو ثلاث سنين، ولهذا كفوا عن النظر الى ساعاتكم . . .
وأنا أقترح أن تفعلوا أنتم أيضا نفس الشيء .

□

وكان تعليقي على هذا الحوار ، حين تناهت اليَّ أطرافمنه :

ـ بدلا من عشر سنوات لتغيير قناعات الرأي العام في اسرائيل ـ فان سنة أو سنتين هي فترة كافية لتغيير أوضاع العالم العربي ، ولخلق موازين جديدة فيه .

ذلك أدعى الى التأثير وأقرب الى الحل من كل ألعاب الحظ .

قلت ذلك ، وما زلت أقوله ، وأضيف اليه :

ـ على الأقل كان الماريشال « جرازياني » . . . ايطاليا فنانا !!

نظرة جديدة على الناحية الأخرى ٤

١٠ مستعمرات و٣ مطارات وشرم الشيخ !

في أية محاولة لالقاء نظرة جديدة على الناحية الأخرى ـ فان قدراً كبيراً من الاهتمام يجب أن يتركز على جهاز القوة الاسرائيلي ، أو المؤسسة العسكرية في اسرائيل . والسبب البديهي لذلك أن القوة عنصر رئيسي من عناصر الحلم الصهيوني . فليس يمكن لأسطورة أن تعيش ضد الطبيعة والتاريخ بغير سند من القوة تفرض وتعزز ، حتى وان تدنت الى مستوى العنف والارهاب .

ومن هنا ، فان الجيش الاسرائيلي يصبح ـ من حيث المهام الموكولة اليه ـ ظاهرة غريبة في نوعها ، فهو جيش لا يدافع عن الحدود المرسومة لدولة معينة فحسب ، ولكنه ـ الى جانب ذلك ـ يحارب من اجل تصورات عقيدة ما زالت تتشكل ، وما زالت حدودها قابلة للاتساع . وقد يقال ان هناك جيوشاً عقائدية أخرى في العالم غير اسرائيل ، وهذا صحيح مع فارق خطير . . . ففي غير اسرائيل تتمثل العقيدة في نظام اجتماعي تحميه القوات المسلحة داخل حدود الدولة ، ولكن حالة اسرائيل تختلف ، فالحلم العقائدي ليس نظاماً ، وانما هو أرض . وهنا صميم المشكلة !

وربما استطعنا ـ بنظرة سريعة على خطوط المواجهة مع اسرائيل ـ أن نكتشف مهام الأمن ومهام العقيدة بالنسبة للجيش الاسرائيلي .

فعلى جبهة سيناء وجبهة الجولان مهام أمن (مصادر الخطر المباشر على أمن الدولة)

وفي الضفة الغربية وغزة والقدس مهام عقيدة (مجال التوسع المحتمل الذي تطلبه الصهيونية) .

هذا مع العلم أن هناك تداخلا ـ بالضرورة ـ بين مهام الأمن ومهام العقيدة . وسبب هذا التداخل أن الجيش الاسرائيلي المكلف بالمهمتين هو في النهاية جيش واحد ، ومن ناحية أخرى فان العالم العربي الذي يواجه اسرائيل من كل ناحية يحركه تيار واحد .

وعلى هذا الأساس فان نظرية العمل الاستراتيجي بالنسبة لاسرائيل قامت ـ منذ أول لحظة ـ على ضرورة تحقيق المطالب التالية :

١ ـ انهاء الوجود الوطني المتماسك للشعب الفلسطيني . واجهاض أية محاولة لتنظيم هذا الشعب سياسيا او تسليحه عسكريا ، ولو كان ذلك في المنفى . والمنطق في ذلك ان أي وجود وطني فلسطيني متماسك هو نفي من الأساس للعقيدة الصهيونية ، أي أن فلسطين هي نفي لاسرائيل . وهذه قضية لا تقبل المساومة ، وليست فيها أنصاف حلول !

٢ ـ عزل مصر سياسياً عن بقية الأمة العربية ، باعتبارها الدولة المهيأة الآن لتجسيد حركة الوحدة العربية (وهي العدو الرئيسي بالنسبة لاسرائيل) . فاذا استحال عزل مصر سياسياً عن بقية الأمة العربية ، فان البديل هو انهاك القوة المصرية باستمرار ، والبدء بتوجيه اقسى الضربات اليها في حالة بدء المعارك ـ حتى تخرج مبكراً من الصراع ، وحتى تتحول من « مثال » عربي الى « أمثولة » للعرب !

٣ ـ اذا خرجت مصر ـ بعزلها سياسياً أو بضربها عسكرياً ـ فان ذلك سوف يؤدي تلقائيا الى تجميد موقف سوريا ، فهي لا تستطيع مواجهة اسرائيل في حرب على جبهة واحدة ـ علماً بأن الحرب على جبهتين كابوس يؤرق اسرائيل اذا فكرت فيه ـ يضاف الى ذلك أن تجميد سوريا كفيل بتعطيل أية محاولة لاقامة أي نوع من أنواع التحالف الاقليمي على الجبهة الشمالية .

٤ ـ اذا خرجت مصر واذا تجمدت سوريا ، فان فلسطين كلها ـ وهي مطمع العقيدة الصهيونية المطالبة بكامل أرض اسرائيل ـ تصبح منطقة مفرغة من أي قوة عربية قادرة على التصدي . وهذا يعطي لاسرائيل حرية التصرف المطلقة من البحر الى النهر ، وربما وراء النهر أيضاً .

٥ ـ ان صلات اسرائيل ينبغي أن تكون مفتوحة بالعالم الواسع خارج النطاق العربي المحيط باسرائيل ، ولتحقيق ذلك فان الطيران الاسرائيلي يجب ان يكون هو القوة المسيطرة على أجواء هذه المنطقة الحساسة التي تلتقي عندها افريقيا وآسيا ، ويتصل فيها البحر الأبيض بالبحر الاحمر .

وفي نفس الوقت فان طريق البحر الأحمر يجب أن يظل مفتوحاً بالقوة الاسرائيلية . وفيما يتعلق بالبحر الأبيض فان الاسطول الأمريكي السادس ومعه أساطيل بقية حلف الاطلنطي تستطيع أن تضمن الطرق البحرية فيه .

□

ان الضرورات الاستراتيجية لأي طرف لا تتغير بتغير الفصول ، وانما الذي يتغير هو تطبيقاتها مع متابعة نفس الأهداف .

وليس من شك ان المتغيرات الكثيرة التي تلاحقت على المنطقة في السنوات الاخيرة ، وابرزها النتائج السياسية التي انتهت اليها حرب أكتوبر ، وظهور قوة البترول العربي وفوائض أمواله ، وما سمي بمبادرة السلام ـ كل هذه المتغيرات تستوجب تطبيقات استراتيجية اسرائيلية جديدة ـ ولكننا نستطيع القول بأن البحث ما زال مستمرا لأن الظروف كلها ما زالت في حالة سيولة . لكننا ـ برغم ذلك ـ نستطيع أن نلمح بعض المحاولات الاسرائيلية ، ونستطيع من دراستها ان نحكم على اتجاهات التفكير وراءها . وبعض هذه المحاولات مزعج ، وبعضه شبه مستحيل ، ولكن مدارس التفكير الاستراتيجي الحديث تعتمد الآن على منطق « تجربة المستحيل ، ففي بعض الظروف تكون المستحيلات اقرب الممكنات » .

على هذا الأساس فان بعض المحاولات الاسرائيلية تبدو الآن وكأنها تطرح اسئلة ، وتروح تتابعها لتختبر امكانياتها في الحال وفي المستقبل ـ ومن ذلك على سبيل المثال ما يلي :

● هل يمكن اغراء مصر بصفقة تنقل بمقتضاها تركيزها من الشرق الى الغرب . . . أي من آسيا الى افريقيا ؟

● هل يمكن أن تقتنع مصر أن « مجالها الحيوي » هناك ، وأن اتجاهها المشرقي لم يصل بها الا الى تورط في الصراع العربي الاسرائيلي لم يعد عليها بفائدة ، وانما عاد عليها بالخسارة ؟ !

وفي الصيف الماضي ـ صيف سنة ١٩٧٧ ـ وصلت اسرائيل الى حد جعلها تتصل بطرف دولي ثالث تربطه علاقة بمصر ، وتطلب اليه نقل رسالة منها الى القاهرة مؤداها :

ـ اذا كانت القاهرة تريد تطوير عملياتها ضد ليبيا ، وتخشى من أية محاولة اسرائيلية لاستغلال انشغال مصر بحدودها الغربية ، فان اسرائيل على استعداد لأن تقدم اليها ما تشاء من الضمانات .

ورفض هذا الطرف الدولي الثالث نقل هذه الرسالة الى القاهرة .وكانت نصيحته لاسرائيل : « ان الاشتباكات بين مصر وليبيا لها اطار محدود ، وان اية محاولة اسرائيلية للصيد في المياه العكرة سوف تجيء بنتائج عكسية » .

وفي هذا كله فان اسرائيل لم تستطع أن تفهم أن توجه مصر نحو المشرق كان نتيجة انتماء قومي ، ولم يكن عملية بحث عن « مجال حيوي » !

● هل يمكن أن يقوم محور جديد في المنطقة بين طهران والقدس والقاهرة ؟

هذه كلها ـ في تصورات اسرائيل ـ مراكز غير عربية على حواف المنطقة العربية تقليديا ، وهي المشرق العربي . واذا استطاعت هذه العناصر غير العربية أن تتعاون فيما بينها ، فانها تستطيع ان تحول نفسها من وضع الحافة الى وضع الطوق :

« مصر واسرائيل على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض ، وقد يتعاون معهما موارنة لبنان .

وايران هناك على رأس الخليج .

ان هذا الطوق يستطيع تحزيم كل بترول الشرق الأوسط ، وبهذه الطريقة فانه يستطيع أن يقدم نفسه للغرب الذي سوف يسره دون شك أن تستطيع قوة محلية

أن تضمن له مصالحه الحيوية من داخل المنطقة وليس من خارجها »

أليس هـذا هـو المستحيـل بعينـه ؟ !

● هل يمكن انشغال السعودية ـ لأي سبب ـ عن الاهتمام المباشر بالصراع العربي الاسرائيلي ؟

ان اهتمام السعودية بالصراع العربي الاسرائيلي هو الذي يؤدي الى ادخال عنصر الضغط الأمريكي على اسرائيل في أزمة الشرق الأوسط .

ان انشغال السعودية هدف يساوي في هذه المرحلة هدف عزل مصر .

وربما كان ضيق اسرائيل بصفقة طائرات « ف ـ ١٥ » التي تطلبها الرياض من واشنطن راجعاً الى هذه المسألة بالذات .

فالمخطط العسكري الاسرائيلي لا يمكن أن يطمئن الى وجود خمس وسبعين من هذه الطائرات في المملكة العربية السعودية قرب اسرائيل ـ ولهذا فان عليه أن يرسم من الآن عمليات لتدميرها في الدقائق الأولى من الساعة الأولى في أي حرب محتملة .

ومثل ذلك يقرب السعودية من ساحة الصراع العربي الاسرائيلي ، بدل ان يشغلها عنه ، وهو ما لا تريده اسرائيل ، لأن معناه في تقديرها ان البترول سوف يدخل المعركة على نحو أو آخر ، وكذلك سوف تدخلها فوائض امواله بوسيلة أو بأخرى ، وذلك كله سوف يجيء بالولايات المتحدة الى ساحة الصراع في دور لا تستطيع اسرائيل ان تتحكم فيه .

الى هذا الحد يجمح التفكير في المستحيل ؟ !

□

وقد نتساءل ، ونحن نلمح هذه المحاولات الاسرائيلية :

ـ اذا كان ذلك كله مما يجري التفكير فيه ـ أو يمكن التفكير فيه ـ فكيف نستطيع تفسير موقف اسرائيل المتعنت ـ على سبيل المثال ـ تجاه مصر ؟

وألم يكن الأولى بالمفاوض الاسرائيلي أن يكون أكثر مرونة معها في شروطه ، لكي يسهل لها عملية الخروج من دورها العربي ؟

وما هي قيمة التمسك بعشر مستعمرات وثلاثة مطارات في شمال سيناء ، وبميناء صغير في شرم الشيخ الى الجنوب من شبه الجزيرة ؟ ما هي قيمة تلك كلها ازاء المطلب الاستراتيجي الكبير الذي يهدف الى اخراج مصر من الصراع العربي الاسرائيلي ؟

والسؤال في محله بغير جدال ، والدليل على ذلك أن النقاش من حوله هو محور كل حديث في اسرائيل الآن . لكن الرد ـ من وجهة نظر صانع القرار الاستراتيجي في اسرائيل ، ومن وجهة نظر المؤسسة العسكرية المسئولة عن تنفيذ هذا القرار على الأرض ، وبالسلاح اذا لزم ـ رد جاهز وتحت الطلب . والرد هو :

ـ ان طلب المستحيل ممكن . ولكن الترتيبات العملية لقضية حيوية كقضية الأمن لا يمكن ان توضع على غير الواقع وحده . وعندما يتحقق المستحيل فاننا سوف نعيد التفكير من جديد ، وقد نغير من ترتيباتنا على الأرض . وأما الآن فلا خيار .

واعترف أنني ـ قبل ما سمي بـ « مبادرة السلام » المصرية ـ كنت أظن أن اسرائيل لن تعاند الى النهاية في شأن سيناء : المستعمرات والمطارات وشرم الشيخ . كان ظني أن اسرائيل سوف تكون على استعداد لأن تعطي فيها بمقدار ما تأخذ من مصر في دورها العربي والفلسطيني . ولم يكن ذلك حلا سعيداً ولا موفقاً . ولم يكن لائقاً بمصر سياسياً ، ولا حتى أخلاقياً ، ولكنه كان يحوم كنوازل القدر ، يتحسب الناس وقوعها ولا يملكون ردها ! .

□

هكذا فاننا حتى في سيناء ـ وبصرف النظر عن كل المطلوب في فلسطين لـ « مهام العقيدة » ـ سوف نواجه بمشاكل حقيقية وترتيبات يراد فرضها بدعوى « مهام الأمن » ـ وذلك يفرض علينا ان نلقي نظرة على التفكير العسكري الاسرائيلي بالنسبة للمستعمرات والمطارات وشرم الشيخ ـ في سيناء .

● ونبدأ بالمستعمرات : وهنا نجد أن التفكير العسكري الاسرائيلي يثير النقط التالية :

١ ـ ان المنطقة التي أقيم فيها ميناء « ياميت » ومجموعة المستعمرات المحيطة به في شمال سيناء هي منطقة استراتيجية خطيرة في أهميتها ، فهي تعتبر تقليديا مدخل أي تقدم مصري الى فلسطين ، وذلك باب لا تتركه اسرائيل لغيرها ، كما أنها لا تتركه مفتوحا . ومن ناحية أخرى يرى عدد من الخبراء العسكريين ـ وبينهم اسرائيليون ـ أن هذه المنطقة في الواقع ليست بوابة مصر الى فلسطين ، وانما هي بوابة أي داخل من فلسطين الى مصر ، فهي في تقديرهم المدخل الى ما يسمونه « صحن سيناء » ، وهو مدخل لا تريد اسرائيل ان تجده مغلقاً أمامها في أي وقت . فالظروف الراهنة في المنطقة ليست مضمونة البقاء ، وحالة الهدوء السائدة قد تتبدد غداً بفعل طارىء لم يكن في الحسبان . ولهذا فان الطريق يجب ان يكون سالكاً الى « صحن سيناء » حيث تستطيع اسرائيل أن تنفذ اليه بسرعة وتواجه أي خطر في منتصف الطريق بالأسلوب الذي تتقنه أكثر من غيره ، وهو العمليات المشتركة بين الطيران والمدرعات ، خصوصا وأنها الآن درست الأرض وتمكنت من استيعاب خصائصها . وصحيح ان الاتفاقيات السارية الآن تحدد أقصى خط يصل اليه تواجد القوات المصرية بخط فك الاشتباك الثاني غرب المضايق ، ولكن من يستطيع أن يضمن المفاجآت ؟ وهكذا فانه حتى تتمكن اسرائيل من تهيئة الأوضاع الملائمة لسلامها هي ـ بصرف النظر عن سلام الآخرين ـ فان بوابة الدخول والخروج من سيناء واليها لا بد أن تكون تحت حراستها .

٢ ـ ان المستعمرات الاسرائيلية في هذه المنطقة لها دور آخر لا بد أن تقوم به ، وهو دور الحاجز الذي يفصل بين آخر تجمع سكاني مصري في العريش واول تجمع سكاني اسرائيلي في قطاع غزة ، وقطع الاتصال بين الشعبين ـ الا تحت رقابة وسيطرة

اسرائيلية ـ مطلب اساسي ، خصوصاً بالنسبة لـ « مهام الأمن » في قطاع غزة ، حتى يتم فيه تنفيذ « مهام العقيدة » . . . ان هذا القطاع لا بد له ان يعزل عزلاً مادياً عن أي اتصال بمصر . ومن ناحية أخرى فان السكان المصريين في سيناء يجب أن يتعودوا أنه عند نهاية خط حدود بلادهم يوجد هناك « اسرائيليون » .

٣ ـ ان هذه المستعمرات ـ مع قبول اسرائيل لوجودها تحت السيادة المصرية الاسمية ، وفي الحماية الفعلية لقوات الجيش الاسرائيلي ، وهو تلاعب بالحقائق مثير ـ تستطيع أن تكون جهاز اختبار يومي لحسن التصرف وحسن النوايا المصرية تحت يد الاسرائيليين . وبتعبير ورد على لسان « وايزمان » وزير الدفاع الاسرائيلي :

ـ لا تأخذوا هذه المستعمرات على أنها احتلال . . . سكانها لا يزيدون الآن على ثلاثة آلاف ، ولست أظن أنه ستبقى معهم لحمايتهم أكثر من فصيلتين من الجيش الاسرائيلي . فهل يمكن أن يسمى ذلك احتلالا ؟ . . . الحقيقة انه يمكن اعتبار الوضع كله واحداً من ترتيبات الأمن التي تستهدف الانذار المبكر ، وذلك حتى يجيء السلام الكامل ، فتكون هذه المستعمرات مجتمعات مدنية ـ زراعية أو صناعية أو تجارية ـ في دائرة تشابك المصالح بين مصر واسرائيل !!

□

● والآن الى المطارات :

ان اسرائيل تمسكت حتى الآن ـ وبشكل متعنت ـ بثلاثة مطارات في سيناء . وهي مطار « ايتام » القريب من رفح ، ومطار « اوفيرا » القريب من شرم الشيخ ، ومطار « آتزيون » القريب من قلعة « طابا » القديمة على خليج العقبة (وربما بادرت الى الاعتذار عن تسمية المطارات بأسمائها الاسرائيلية ولكن هذه هي الاسماء المكتوبة على الخرائط المستعملة على موائد المفاوضات !) .

وهناك مطارات أخرى في سيناء ، أكبرها مطار « الجفجافة » الذي أطلقت عليه اسرائيل اسم « رافيديم » ـ ولكن اسرائيل فيما يظهر لا تتمسك بها ، على عكس

تمسكها حتى الآن بالمطارات الثلاثة التي أشرت اليها .

ووجهة نظر اسرائيل في التمسك بالمطارات الثلاثة - « ايتام » و « اوفيرا » و « آتزيون » - طبقاً لكلام « ايزر وايزمان » - وهو رأس المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الآن بوصفه وزير الدفاع ، كما أن صلته الخاصة بأجواء ساحة الصراع وثيقة منذ كان قائداً لسلاح الطيران - وعلى أساس شرح قدمه في الولايات المتحدة الامريكية في شهر مارس الأخير ، وترددت اصداء له في محادثاته مع بعض من التقى بهم من العرب - كما يلي :

١ - ان المطارات الثلاثة ذات أهمية قصوى بالنسبة لاسرائيل ، فمطار « ايتام » ضروري لحماية طرق الاقتراب الى غزو اسرائيل من سيناء - I - وهو على هذا النحو جزء لا يتجزأ من نظام المستعمرات المقامة في منطقة رفح . وأما مطارا « اوفيرا » و « آتزيون » فهما لازمان لحماية « ايلات » من ناحية ، ولضمان حرية الملاحة في خليج العقبة من ناحية ثانية ، ومن ناحية ثالثة - خصوصاً بالنسبة لمطار « أوفيرا » - لحماية مسالك اسرائيل البحرية في البحر الأحمر وحتى باب المندب . وبدون مطار « أوفيرا » - هكذا يقول « وايزمان » - فان الطيران الاسرائيلي لا يستطيع الوصول - فضلا عن العمل - فوق هذا المدخل الحيوي عند الجنوب للبحر الأحمر .

(ذكر « وايزمان » سامعيه بما كتبه في مذكراته التي أصدرها بعنوان « على اجنحة النسور » ، أنه فقد اعصابه يوم صدر الأمر سنة ١٩٥٧ بالجلاء عن سيناء ، لأنه كان يدرك حاجة الدفاع الاسرائيلي - - الى مطاراتها . وكان « وايزمان » قد كتب في مذكراته انه في ذلك اليوم قاد طائرة صغيرة فوق العريش ، ونزل واطئا حتى اصبح طيرانه بين رؤوس النخيل على شاطىء البحر ، ثم وجد نفسه فجأة يصرخ في الجو وحده : « سوف نعود . . . نعم سوف نعود . . . تذكروا أننا سوف نعود) .

٢ - ان مطارات سيناء ضرورية للسلاح الجوي الاسرائيلي في أي حرب مقبلة في الشرق الاوسط ، حتى وان لم تكن مصر بين المشتركين فيها . ان مطارات سيناء بعيدة عن أي ضربة جوية يمكن ان تقوم بها طائرات احدى دول الجبهة الشرقية .

وطبقاً لرأي « وايزمان » فان اسرائيل لم يعد في مقدورها توجيه ضربة واحدة

قاضية ضد الأسلحة الجوية العربية بحيث تضمن السيطرة على الجـو ، ذلك لأن الدول العربية كلها درست وسائل الحماية والاخفاء التي اتبعتهـا مصر بعـد سنـة ١٩٦٧ ، ومعظمها حصل على تصميمات دشم الطائرات التي توصلت اليهـا مصر سنة ١٩٦٨ ، وبالتالي فانها قادرة على العمل لفترة طويلة بعد بدء المعارك ، ولهذا فان الطيران الاسرائيلي يجب أن يأخذ حذره ، ويجب ان ينتشر .

وليس هناك انتشار ممكن في رقعة اسرائيل ، وهـي محـدودة ، خصوصـاً مع التوسع الضخـم في السـلاح الجـوي الاسرائيلي ، وفي الأسلحـة الجـوية للـدول العربية ، وبخاصة على الجبهة الشرقية كما هي الآن فعلا ، أو كما يمكن أن تكون احتمالاً .

وبالنسبة للتوسع يقول « وايزمان » ان اسرائيل كان لديها سنة ١٩٦٧ قرابة مائتين من طائرات الخط الأول ، والآن فان لديها ستمائة طائرة ، وهي تريد في ظرف اربع سنوات ـ اي سنة ١٩٨٢ ـ ان يصل العدد الى الف طائرة خط أول .

وفي مقابل ذلك فان الدول العربية على الجبهة الشرقية تملك الآن اكثـر من الف طائرة ، بينها ثمانمائة طائرة تملكها سوريا والعراق . يضاف الى ذلك انه ليس في مقدور أحد أن يتنبأ ـ في حالة حدوث معارك على الجبهة الشرقية ـ بالطريقة التـي يمكن ان تتصرف بها المملكة العربية السعودية ، خصوصـا في حالـة حصولهـا على طائرات « ف ـ ١٥ » . وصـحيح ان الـولايات المتحـدة أكدت لاسرائيل أن هذه الطائرات سوف يتم تسليمها على فترة خمس سنوات ، وانها سوف تعمل من مطارات في جنوب السعودية قرب منابع البتـرول ، وليس في شمالهـا قرب اسرائيل ، وان خبراء أمريكيين سوف يشتركون في تشغيلها بما يكفل رقابـة مبـاشرة على مجـالات عملها ، فضلا عن تعهد قاطع بعدم جواز نقلها من السعودية الى أي دولـة عربية اخرى في أي وقت وفي اي ظرف ـ صحيح هذا كله ، ولكن اسرائيل تعرف بالتجربة أنه في حالة بدء معارك فان تصاعد المشاعر العربية يولد ضغوطا تصعب مقاومتها مهما كانت التعهدات السابقة المعطاة بعكسها .

٣ ـ ان اجواء سيناء المحيطة بالمطارات مهمة لاسرائيل في مجال التـدريب ،

فضلا عن مجال العمليات ، فالمجال الجوي لاسرائيل ضيق ، والمطارات الصالحة للتدريب فيها اربعة ، بما فيها مطار « بن جوريون » الدولي ، وحتى هذه المطارات الأربعة لا تملك من حولها مساحة كافية للانطلاق ـ فان أي طيار اسرائيلي لا يكاد ينطلق شرقا حتى يجد نفسه على وشك اقتحام المجال الجوي الاردني ، ولا يكاد ينطلق شمالا حتى يجد نفسه على وشك اقتحام المجال الجوي السوري ، ولا يكاد ينطلق غربا حتى يجد نفسه فوق البحر الأبيض واساطيل القوى الكبرى فيه ـ واجواء سيناء وحدها هي التي تعطي للمجال الجوي الاسرائيلي عمقه الضروري في التدريب ، وقد تعود الطيران الاسرائيلي عليها خلال السنوات العشر الماضية ، الى درجة أنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنها ـ ! ـ ولم تعد هيئة اركان الحرب ولا قيادة السلاح الجوي قادرة على تصور التوسع الجاري في قوة اسرائيل الجوية بغير مطارات سيناء .

ويقول « وايزمان » ان دولا في أوروبا الغربية حلت مشكلة الفضاء الجوي اللازم للتدريب بوسائل فادحة التكاليف ، ومن ذلك مثلا أن المانيا الغربية تبعث طياريها الى « اريزونا » في الولايات المتحدة ليتدربوا في سماوات مفتوحة . واسرائيل لا تستطيع ان تجاري المانيا الغربية . ثم لماذا تفعل ذلك وصحراء سيناء أقرب اليها من صحاري أريزونا ؟ !!

هذا عن المطـارات . . .

□

● وأخيراً تجيء قضية شرم الشيخ ، وهي قصة طويلة ذائع امرها في تصورات الأمن الاسرائيلي وفي مهامه ، الى درجة تغني عن أي تفصيل .

وهكذا نصل الى طريق شبه مسدود . . . حتى في سيناء !

ان اسرائيل ليست على استعداد لأي مغامرة فيما يتعلق بمهام العقيدة ومهام الأمن ، حتى اذا كانت هذه المغامرة في سبيل تسهيل تحقيق مطلب استراتيجي هام

بالنسبة لها كمطلب اخراج مصر من الصراع .

ان تجربة المستحيل ممكنة ، ولكن الخطط توضع على الأمر الواقع وحده .

ونجد أمامنا هذا المشهد العجيب الذي نراه اليوم :

تحاول اسرائيل اغراء مصر باخراجها ، وفي نفس الوقت فانها على غير استعداد للتضحية بعشر مستعمرات وثلاثة مطارات وميناء صغير في شرم الشيخ .

. . . .

. . . .

وهكذا يفكرون وتحت أيديهم سلاح نووي !

ونحن؟ ماذا أقـــول ؟ !

الحوار الضائع ١

نحن لا نفهم ما تقوله اسرائيل..
والعكس صحيح !.

حوار بين «شارون» و«جور» على مائدة عشاء
في القدس

اذا كان ما جرى ـ ولا زال يجرى ـ بين مصر واسرائيل نوعاً من الحوار ، فاني أعترف بالعجز عن فهم اللغة التي يدور بها ـ بل أخشى أن أطراف الحوار أنفسهم لا يعرفون بأي لغة يتكلمون .

وأتوقع أن أجد من يقول لي بسلامة نية : انهم اعتمدوا الانجليزية لغة رسمية للحوار ، فكلهم درسوها الى درجة أو أخرى !

وبالطبع فان ذلك لم يكن ما قصدته من السؤال ! فأنا أعرف أن مفردات من اللغة الانجليزية يجري تبادلها عبر المقاعد والموائد أثناء الجلسات الرسمية وغير الرسمية ، وحتى عبر الخطوط المباشرة وغير المباشرة . ولكن المسألة التي تثير تساؤلي هي ما اذا كانت هذه المفردات تعني نفس الشيء بالنسبة للطرفين ؟ والا فانه حوار ضائع .

ان الألفاظ مجرد أشكال ورموز للمعاني . فاذا لم يكن هناك توافق على هذه المعاني ، فان الألفاظ تصبح مضللة . . لا تؤدي الى المقصود منها ، وربما أدت الى عكسه . وتاريخ العالم مليء بنماذج سوء الفهم التي تصور أطراف فيها أنهم على اتفاق ، ثم ظهر أنهم على اختلاف رغم استعمالهم نفس الألفاظ . لم تكن معاني الألفاظ بالنسبة لهم واحدة ، ولهذا كان الحوار ضائعاً .

وبعض سوء الفهم من هذا النوع لا ضرر منه . ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ القصة المشهور عن المكتشف البريطاني الشهير « توماس كوك » حين وقعت أنظاره على أستراليا لأول مرة ونزل على شاطئها الغربي ، وراح يسجل كل ما يراه من تضاريس الأرض وأشكال النبات وأنواع الحيوان . ولمح « كوك » ضمن ما لمح حيوانا غريبا يقفز ولا يجري لأن اقدامه الخلفية طويلة ، في حين أن أقدامه الأمامية

شديدة القصر . وسأل « كوك » أحد السكان بالاشارة عن اسم هذا الحيوان ، ورد ساكن أستراليا القديم قائلا : كانجارو ! »

وسجلها « توماس كوك » أمام وصف الحيوان : حيوان غريب اسمه « كانجارو » .

وشاع الاسم ، والتصق بحيوان «الكانجارو » الأسترالي المشهور .

ومرت عشرات السنين ، ثم تبين أن كلمة « كانجارو » في لغة هذه القبائل الأسترالية التي سكنت استراليا قديماً معناها : لا أعرف !!

هذا النموذج من سوء الفهم سهل لا تنتج عنه أضرار ، ولا تترتب عليه مخاطر ، لكن الأمر يختلف في الصراعات الكبرى وفي مواجهاتها السياسية أو العسكرية المعقدة .

□

في الصراعات الكبرى تكون المسائل على درجة عالية من الدقة والحساسية بحيث لا يصبح الاتفاق على معاني الألفاظ هو المشكلة ـ وانما تصبح الاشارات والايماءات قادرة وحدها على خلق أجواء تتعطل فيها امكانية أي حوار .

ولقد كان من ذلك نموذج قريب أدى ما جرى فيه ـ مع عوامل أخرى ـ الى نسف الاجتماع الأخير للجنة السياسية المشتركة بين مصر واسرائيل في الاسبوع الثالث من شهر يناير الماضي في القدس . كان ذلك حين وقف « مناحم بيجين » رئيس وزراء اسرائيل في حفل أقامه تكريما للوفد المصري في هذه المحادثات ، وراح يتكلم عن حق تقرير المصير وكيف اسيء استعماله في أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية . ثم التفت الى « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكية ـ وكان يجلس الى يساره ـ وقال له :

ـ أنت وأنا نذكر هذه الظروف جيداً لأننا حضرناها . . . »

والتفت « بيجين » الى يمينه حيث يجلس وزير الخارجية المصري ، واستطرد :

ـ وأما وزير خارجية مصر فربما لا يتذكرها لأنه كان صغيراً عندما جرى ذلك كله . . . »

كان الجو مشحونا بطبيعة الظروف ، وبهذه الملاحظة وغيرها فان الجو المشحون تكهرب ، واحس وزير خارجية مصر أنه مطالب بالرد بحزم ، وحسنا فعل .

ان أحد الذين حضروا هذا العشاء الأخير كان شخصية أمريكية مرموقة ، وقد التقيت به فيما بعد ، وسمعت انطباعاته عن جو تلك الليلة .

كان تصويره كما يلي :

ـ لم يكن هناك حوار طوال تلك الليلة . . . كان الحوار معطلا . . . كان واضحا لكل من يريد أن يرى أن هناك فجوة واسعة بين الطرفين .

سوف أترك المواقف والقضايا السياسية جانباً . . . لكنه حتى على الناحية الانسانية ، لم يكن هناك مجال للقاء على أي مستوى .

ان الفجوة كانت انسانية وفكرية وعاطفية . وكان هناك نقص في الحساسية لدى الاسرائيليين يصعب على الذين لا يعرفونهم تخيله .

انني ـ على سبيل المثال ـ كنت جالساً على مائدة في هذا العشاء ضمت أحد العسكريين من أعضاء الوفد المصري ، الى جانب الجنرال « آريل شارون » وزير الزراعة ، والجنرال « موردخاي جور » رئيس الأركان (في ذلك الوقت) .

وفجأة مال الجنرال « شارون » الى الأمام ، وقال موجها الحديث الى الجنرال « جور » عبر المائدة :

ـ موتي (اسم التدليل لـ« موردخاي ») انك كنت في القاهرة . . . قل لي

كيف رأيتها : أنا لم أرها في حياتي مطلقاً . . . الا بالطبع من خلال صور الاستطلاع الجوي !

وأغمضت عيني وحبست أنفاسي ، فلم أتصور أن نقص الحساسية يمكن أن يصل بـ « شارون » الى توجيه سؤال بمثل هذه الصيغة على مسمع من ضابط مصري .

« لكن « جور » ـ لسوء الحظ ـ استطاع منافسة « شارون » والتفوق عليه في نقص الحساسية ، فقد أجاب :

ـ آريك (اسم التدليل لـ « آريل ») لا يخطر ببالك حجم القاهرة . . . كبيرة جداً ومزدحمة الى درجة لا يمكن تصورها . . . لقد ذكرتني بشيء وأنت تقول أنك لا تعرفها الا من خلال صور الاستطلاع الجوي . . . هل تعرف أن بعض الأحياء فيها متهدمة وغارقة في المستنقعات بحيث تبدو وكأنها تعرضت بالأمس فقط لغارة جوية مركزة ؟

لقد أغمضت عيني مرة أخرى وحبست أنفاسي ، ولم أستبعد أن أجد الضابط المصري الجالس معنا يسحب طبقاً من على المائدة ويكسره فوق رأس أي من الجنرالين . لكنه ـ فيما أحسست ـ استطاع السيطرة على مشاعره . بعدها فان أي حوار أصبح مستحيلاً ! »

انتهت رواية الأمريكي المرموق .

. . . .

. . . .

وبمقدار ما أن « توماس كوك » لم يكن يريد أن يخطىء في نقل اسم الـ « كانجارو » الى العالم ـ فلست أظن أن « مناحم بيجين » ـ رغم غلاظة تصرفاته أحياناً ـ قصد اساءة الأدب أمام وزير خارجية مصر وهو ضيفه في القدس ، أو أن الجنرالين « شارون » و « جور » تعمدا اظهار كل هذا القدر من بلادة الحس أمام

ضابط مصري يجلس معهما على مائدة عشاء .

لكنه الحوار الضائـــع !

ليس عن جهل بمفردات اللغة ـ وهذا يحدث أحيانا ـ وانما عن اختـلاف في معاني الألفاظ مع توهم الاتفاق ، ومن تضارب بين الأسماء والمسميات لدى اطراف تباعدت تجاربها ، ومن تباين في درجة الحس بما تنقله الايماءات والاشارات حتى وان استغنت عن الكلمات .

□

في الصراعات الكبرى أيضاً فان الحوار بين الأطراف ليس هو فقط ما يدور عبر المقاعد والموائد في الجلسات الرسمية وغير الرسمية ، وعبر الخطوط المباشرة وغير المباشرة ، وانما هو دائرة أوسع .

أي أن ما يقوله أي طرف ويسمعه الطرف الآخر داخل في دائرة الحوار .

حتى اذا كان هذا الطرف يتحدث مع آخرين . . . حتى اذا كان حديثه مع نفسه .

هكذا فان ما يقوله رئيس وزراء اسرائيل في أي مكان يكون فيه . . . ما يقوله أقطاب احزاب الائتلاف الحاكم . . . ما تجرى به المناقشات في الكنيسـت . . ما ينشر في صحافة اسرائيل ويذاع من محطاتها ـ هذا كله وغيره داخل في دائرة الحوار ، وعلينا ان نسمعه . . .

نفس الشيء بالنسبة لنا ، وعليهم أن يسمعوا .
وان يسمعوا ونسمع ـ فليس ذلك هو المهم ، فالألفاظ ـ كما اتفقنا ـ اشكال ورموز للمعاني .

المهم هـــو :

- هل الكلمات تحمل نفس المعاني بالنسبة للطرفين ؟
- وهل الأسماء تشير الى نفس المسميات بالنسبة للطرفين ؟
- وهل الايماءات والاشارات تعني نفس الشيء بالنسبة للطرفين ؟

اذا كان هناك اتفاق ـ اذن فالحوار متصل بصرف النظر عن نتيجته ، واذا لم يكن هناك اتفاق فالحوار معطل من بدايته ، رغم أن الكلمات طائرة عبر المقاعد والموائد ، وعبر الخطوط المباشرة وغير المباشرة .

ولعلنا نلاحظ أن هذا الحال يختلف كثيراً عن حال آخر يطلقون عليه مجازاً تعبير « حوار الطرشان » . ففي « حوار الطرشان » يتكلم الجميع وكلهم لا يسمعون . ولكن المشكلة في حال تعطل الحوار في الصراعات الكبرى أن الجميع يتكلمون ولكن الجميع يسمعون ، وما يسمعونه لا يعني نفس الشيء بالنسبة لكل طرف منهم . . . وهكذا ينشأ سوء الفهم .

وربما أوضحت أنني هنا لا أتحدث عن سوء النية ، فتلك قضية أخرى . وانما حديثي عن سوء الفهم وأضراره ، وهي احياناً أبعد أثراً وخطراً من أي شيء آخر على مسار أي حوار .

وأستشهد ببعض النماذج :

□

١ ـ لا أعرف لماذا كان اصرارنا على القول بأن « المبادرة » كانت قرار رجل واحد ، لم يناقشه معه أحد ، واحتفظ به في رأسه حتى جاءت اللحظة المناسبة فأعلنه مفاجأة لكل الناس ؟

هناك أسباب استطيع تصورها ، وربما استطعت تقدير بعضها :

- ان الرجل الواحد يريد أن يثبت للاطراف الأخرى أنه يملك سلطة اتخاذ قرار .

● أن الرجل الواحد يريد أن يتحمل المسئولية وحده .

● أن الرجل الواحد يريد أن يعفى آخرين ـ خصوصاً في المحيط الدولي ـ من أي احراج قد يشعرون به ازاء أطراف لها في المبادرة آراء معاكسة .

ربما كانت هناك أسباب غير ذلك لا أعرفها . . .

لكننا لم نسأل أنفسنا سؤالاً كان طرحه ضرورياً ، وهو :

ـ كيف تفهم اسرائيل هذا الذي رحنا نصر على قوله ، ونحاول تأكيده بكل الحاح ؟

هل ستفهمه كما يعنيه الذين قالوا به ، أو أنها ستفهمه على نحو آخر لا تسمح بغيره تجربتها ، ورؤيتها للأشياء من خلال هذه التجربة ؟

الرد على هذا السؤال يقدمه الجنرال « موشي ديان » وزير الخارجية الاسرائيلية أثناء حوار جرى بينه وبين بعض أقطاب الجالية اليهودية في الولايات المتحدة ، وقد جرى هذا الاجتماع في بيت أحد كبار المولين اليهود في مدينة نيويورك ، ونشرت بعض التفاصيل مما دار فيه في أكثر من صحيفة أمريكية ، وبينها الـ « واشنطن بوست » .

قال الجنرال « ديان » أثناء حديثه :

ـ لقد كانت زيارة القدس حادثاً تاريخياً ضخماً ، ولكن هذا الحادث لا يكفي لكي يكون قاعدة يقوم عليها بناء السلام .

ان الأوضاع في العالم العربي لا يجب أن تغيب عن بالنا ، فنظم الحكم كلها هناك لا تستند الى شرعية ثابتة ومستمرة . وانما سلطة الحكام هناك مطلقة ، وما يقرره أي حاكم اليوم قد يغيره خلف له بعد سنوات قليلة ، وقد رأينا من ذلك الكثير . بل ان نفس الحاكم قد يغير سياساته بزوايا حادة ، ولا يجد أحداً يسائله .

ولهذا فان بناء السلام يجب أن يقوم على دعائم تختلف عن مجرد أجواء حسن النية الطارئة التي فجرتها زيارة القدس . . . ونحن على استعداد لأن نصدق ما نراه ، ولكن هل يعقل أن عداوة ثلاثين سنة يمكن ان تذوب في لقاء ثلاثين ساعة ؟

هكذا فاننا قصدنا شيئاً ، وفهموا غيره ، وتعطل الحوار .

□

٢ ـ لا أعرف ما الذي كان يدعونا الى تلك الحملة المركزة لـ « غسل مخ الشعب المصري تجاه الصراع العربي الاسرائيلي . . .

رحنا نصور له أن السلام قريب . . . وكان في متناول اليد طوال الوقت ، ولكننا نحن الذين رفضنا أن نمد يدنا بالمكابرة والجهل .

كان قصدنا ـ فيما أظن ـ أن نجعل الجماهير المصرية في اطار تستطيع فيه قبول المبادرة . ولكن المشكلة أن العيار زاد عن حده ، فاذا نحن نصل الى نزع سلاح الشعب المصري . ان أول سلاح يملكه أي شعب تجاه أي عدو هو سلاح الرفض . وتجريد أي شعب من هذا السلاح قبل أن يجيء سلام حقيقي معناه أن هذا الشعب أصبح منزوع السلاح نفسياً بينما الحرب مستمرة .

ولولا أن الشعب المصري كبير كبير ، ولولا أنه أصيل أصيل لما استطاع استعادة توازنه وتمالك نفسه بسرعة مذهلة .

ولكن ذلك لا يمنع أنه جرت محاولة لوضع الشعب المصري في أقل من مكانته الطبيعية ، وذلك شيء لا يغتفر .

والمحزن أنها ليست المرة الأولى التي تحدث فيها هذه المحاولة ، فلقد كانت هناك سابقة سنة ١٩٧٤ ، عندما عبثت الجماهير المصرية « بغسيل المخ » لكي تستقبل « ريتشارد نيكسون » كما يستقبل الأبطال ، وهو الرجل المتهم في بلده بجرائم سياسية وغير سياسية ، بما في ذلك الرشوة .

وبرغم ذلك ، فقد فاتنا أن نسأل أنفسنا سؤالا كان ضروريا وهو :

ـ ما هو أثر هذه المحاولة لـ « غسيل المخ » في مصر على مواقفهم هناك في اسرائيل ؟

من سوء الحظ أننا سمعنا رأيهم في شكل سؤال قامت رئيسة تحرير « دافار » بتوجيهه أثناء المؤتمر الصحفي المشترك في الاسماعيلية في نهاية ديسمبر الماضي .

وقفت رئيسة تحرير « دافار » لتسأل على مسمع من الدنيا كلها :

ـ أليس غريباً هذا التحول الذي حدث في مواقف الشعب المصري . . . . وأي ضمان لدى اسرائيل أن الموقف الجديد للشعب المصري سوف يستمر ؟

ولم تكن رئيسة تحرير « دافار » وحدها هي التي تساءلت ، وانما تساءل غيرها أيضا ، وبينهم صحفي اسرائيلي كبير فتحت له كل الأبواب في مصر ، وفي نهاية زيارته ذهب الى رؤية أحد أصدقائه الدبلوماسيين . . سفير دولة غربية كبيرة في القاهرة ، معبراً عن قلقه وقائلا له :

ـ انني في حيرة من الصورة التي ظهر بها الشعب المصري امامنا ، ولست أعرف حقيقة ما يخفيه داخل اعماقه .

لقد سألت نفسي هل يتصور المصريون أنهم يضحكون علينا بهذه الطريقة في اظهار رغبتهم في السلام . . . مثل ذلك تصور ساذج . . . لكن الأخطر منه ـ لأنه أكثر سذاجة ـ أن يكون في وهمهم أن الصراع العربي الاسرائيلي يمكن حله بهذه المظاهر من الترحيب بنا .

كلتا الحالتين لا تدعوني الى أن أطمئن .

والشعب المصري في صميم الأمر غير ملوم ، فلقد كان هناك من تولوا غسل مخه ، ولو لأيام . في زيارة « نيكسون » صوروا له أن الرخاء قادم يرتفع عليه علم

الخمسين نجمة . وفي استقبال الاسرائيليين تكرر نفس الشيء بدعوى أن السلام قادم يرتفع عليه علم نجمة داود الواحدة . . . استشهادا في غير موضعه بالقول الكريم :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

مرة أخرى قصدنا شيئاً ، وفهموا غيره ، وتعطل الحوار .

□

٣ ـ لا أعرف ما هو السبب الذي جعلنا نفتح أبواب مصر لكل هذه الأعداد من الاسرائيليين .

في وقت من الأوقات كان في مصر قرابة خمسمائة صحفي ومصور ومذيع من اسرائيل ، أو من ادعوا هذه الصفة . وكانت مصر كلها مباحة أمامهم . . . مدنها وريفها .

والغريب أن كل واحد منهم لم يجيء الى مصر الا بعد تصريح خاص من وزارة الخارجية لأنه ذاهب الى « أرض العدو » ، وعندما جاءوا هنا تحولوا ـ في رأي بعضنا ـ الى أصدقاء .

ولقد وصل الأمر الى حد ترتيب مظاهرات ودية تستقبل « الياهو بن اليسار » رئيس الوفد الاسرائيلي في مؤتمر القاهرة الفاشل ، حينما ذهب لزيارة معبد يهودي في وسط القاهرة ، وحينما ذهب لزيارة قرية « ميت ابو الكوم » . وعاد « بن اليسار » من زياراته الى فندق « مينا هاوس » يقول للدكتور عصمت عبد المجيد رئيس الوفد المصري ، على مسمع من عشرات الصحفيين المصريين والاجانب :

ـ انني سمعت اليوم هتافاً بحياة « بيجين » . . . انني لم أسمع مثل هذا الهتاف في حياتي . . . لا أظن أن هذا الهتاف تردد أبداً في اسرائيل .

ولقد أضيئت القاهرة ـ كأنها ليلة مهرجان ـ طوال فترة وجود الوفد الاسرائيلي

في القاهرة . ومع أن اضاءة القاهرة كانت لها مناسبة مختلفة ، الا أن المناسبات اختلطت ، وضاعت الحدود .

ونحن نكرم ضيوفنا أحياناً بالمظاهرات والهتافات والأضواء الملونة ، وأحيانا نكرم بها أنفسنا . . . ولكن هل كل ذلك مما يجوز في العلاقات مع اسرائيل ؟

وهل ساعدهم ذلك كله على الفهم ، أو أنهم أساءوا الفهم نتيجة لاختلاف ما تعنيه الظواهر أو تعنيه الكلمات ؟

لقد فهموا ما أرادوا أن يفهموه !

« ان الشعب المصري يريد السلام بأي ثمن . واذا كان هناك بعض الذين ما زالوا يعاندون ، فليس على اسرائيل غير أن تنتظر حتى تقع التفاحة ناضجة من فوق الشجرة ، فتلتقطها بيدها الى فمها مباشرة » .

قصدنا شيئاً ، وفهموا غيره ، وتعطل الحوار .

□

٤ ـ لا أعرف أي منطق دعانا الى هذه الحملة التي شنتها وسائل الاعلام عندنا ضد انتمائنا العربي ؟

ما الذي أردنا اثباته لأنفسنا أو لغيرنا بهذه الحملة ؟

تصورنا أننا بذلك نبرز ارادتنا المستقلة ، ونسينا أننا بذلك نتنازل طواعية عن معظم أسباب القوة الاستراتيجية التي تجعل لارادتنا ـ مهما بلغت درجة استقلالها ـ وزنا مؤثرا في مصير الشرق الأوسط . . . بل حتى في مصير مصر ذاتها .

وما الذي فهمته اسرائيل مما حاولنا اثباته ؟

لقد رد « مناحم بيجين » على هذا السؤال في الولايات المتحدة أيضا ، حين

قال أمام نادي الصحافة :

ـ لا أعرف لماذا نتفاوض مع مصر في قضايا تتصل بالفلسطينيين أو بسوريا .

ان مصر جاءتنا وهي لا تحمل تفويضا من غيرها .

اننا على استعداد لاتفاق منفرد مع مصر ، ومصر هي التي ترددت في قبوله حتى الآن .

ولم يقل « بيجين » أي سلام تستطيع مصر أن تحصل عليه منفردة ؟

صحيح أن الأمة العربية لا تستطيع أن تحارب بغير مصر ، ولكن الصحيح أيضا أن مصر لا تستطيع أن تحارب بغير بقية الأمة العربية ، وحرب أكتوبر شاهد على هذه الحقيقة ، فلقد كانت أهم منجزات تلك الحرب راجعة الى ان المعارك جرت على جبهتين في نفس الوقت .

وأي سلام تستطيع مصر أن تحصل عليه منفردة . . . لا يمكن أن يعكس غير موازين القوى الراهنة بينها وبين اسرائيل .

ولست اظن ـ وأتمنى أن اكون مخطئاً ـ أن هذا الوضع ملائم ، حتى من وجهة نظر مصرية أنانية وانعزالية !

لكننا قصدنا شيئاً ، وفهموا غيره ، وتعطل الحوار .

□

٥ ـ ولست أعرف ما الذي يفرض علينا أن نقول ما قلناه أخيراً من أن خيار الحرب مستبعد من الاستراتيجية المصرية ، وأنه ليس أمامنا الا المفاوضات، ومزيد من المفاوضات ، فاذا لم تنجح محاولة ، رحنا بعدها نحاول ثانية وثالثة . . . هكذا الى الأبد .

هل يمكن أن تكون هذه استراتيجية تستخلص حقا أو ترد عدوانا ؟

ومع ذلك ، فهل سألنا أنفسنا :

ـ كيف يكون تقديرهم لهذا الذي تقوله حمامات السلام البيضاء التي تخفق باجنحتها في أجواء القاهرة ؟ !

انهم لم يتقدموا بالسلام رداً على دعوة السلام .

وانما راحوا يكسبون الوقت تحت شعار « دعونا نتفاوض » .

حاولوا انشاء خط ساخن بين القاهرة والقدس ، ـ أليس هو ضروري للتفاوض ؟

وحاولوا انشاء علاقات شخصية بين البعض هنا والبعض هناك ، ـ أليس ذلك مما يسهل التفاوض ؟

وحاولوا أن يدفعوا « وايزمان » ـ بعد « كيسنجر » و « فانس » و « آثرتون » ـ أن يقوم بدور « المكوك » في عملية التفاوض بمنطق « ابعاد الغرباء » ـ اليس ذلك ادعى الى نجاح المفاوضات ؟

وكان تعليقهم على القول باستبعاد خيار الحرب من الاستراتيجية المصرية هو :

ـ لقد كان ذلك ما اتفقنا عليه في القدس حين اعلنا سويا أنه لا حروب بعد الآن ، وأن حرب أكتوبر كانت آخر الحروب » .

كان ذلك تعليقهم ، وكان تصرفهم شيئاً آخر :

خاضوا هم الحرب العربية الاسرائيلية السادسة في جنوب لبنان ـ بعد حرب ٤٨ ، وبعد حرب ٥٦ ، وبعد حرب ٦٧ ، وبعد حرب الاستنزاف ، وبعد حرب

اكتوبر ـ تصرفوا بقوة السلاح ، وتركوا غيرهم لأحلام السلام !

هكذا أخيراً ـ قصدنا شيئاً ، وفهموا غيره ، وتعطل الحوار .

□

حوار أتحفظ عليه من أوله الى آخره ، ولأسباب مبدئية قبل أية تفاصيل .

ومع ذلك فهو حوار معطل .

ولم تكن هناك سوء نية ، وانما كان هناك سوء الفهم :

الكلمات لا تدل على نفس المعاني ، والأسماء والمسميات غير الاسماء والمسميات ، والمشاعر مختلفة ، وكذلك درجة الحساسية .

المشكلة لغة . قصور لغة بالمعنى الواسع .

و « كانجارو » ليست الاسم الأصلي للحيوان الاسترالي المشهور .

ومعناها الحقيقي في لغة القبائل الاسترالية القديمة : لا أعرف !

الحوار الضائع ٢

لماذا يتفقون هناك ونختلف هنا؟
في يدنا «سلطة» وفي يدهم
«استراتيجية» وهذا هو الفرق!

لا يضيع الحوار بين الأطراف في صراع بسبب قصور اللغة فحسب . ولا بسبب تباين وتباعد معاني الكلمات والأسماء والمسميات ودرجات الحس والشعور الى آخره. . . .

الى جانب ذلك كله ـ وكله وارد ـ يضيع الحوار أيضاً نتيجة اختلاف ما يسمونه « مجموعة القيم » السائدة في مجتمع من المجتمعات ، وتمايزه بها عن غيره . ويكون ذلك عادة نتيجة لمواريث تقليدية مؤثرة ، ومراحل في التطور بلغها طرف ولم يبلغها بعد طرف ثان . وقد تكون هناك عوامل أخرى فاتت عليّ . ولكن ذلك هو التفسير الوحيد الذي وجدته لنماذج عديدة ضاع فيها الحوار وتقطعت حباله وأوصاله ؟

ولم يكن هناك نموذج واحد فيكون التفسير هو : الصدفة . ولم يكن هناك نموذجان فيكون القول : انها صدفة تكررت . وانما الذي حدث أن النماذج توالت أحدها بعد الآخر ، مما ينفي عنها ظاهرة الصدفة ، ويجعلها على وجه اليقين « نمط سلوك » يكاد أن يصل الى مرتبة العرف ، وربما مرتبة القانون !

وعلى سبيل المثال ما يلي :

● تصورنا في نهاية سنة ١٩٧٣ أن « هنري كيسنجر » وزير خارجية الولايات المتحدة ـ ساحر الدبلوماسية الغربية وقتها ـ سوف يتكفل وحده بحل أزمة الشرق الأوسط على نحو مقبول منا : انسحاب من الأرض المحتلة ، ودولة فلسطينية ـ (لم يحدث) .

● وتصورنا في بداية سنة ١٩٧٤ ان « هنري كيسنجر » ليس الا وزير خارجية « لـ » « ريتشارد نيكسون » رئيس الولايات المتحدة ، والسلطة كلها في يده ،

وبالتالي الحل - (ولم يحدث) .

● وتصورنا سنة ١٩٧٥ أن « جيرالد فورد » الرئيس الأمريكي الذي خلف « نيكسون » سوف يستطيع ، لأنه رجل طيب يحب العدل ويكره الظلم - (ولم يحدث .)

● وتصورنا سنة ١٩٧٦ أن الرئيس الأمريكي الجديد « جيمي كارتر » سوف يفهم قضيتنا ويتولى حلها ، لأنه فلاح من « جورجيا » عاش على الأرض الطيبة يزرع الفول السوداني ، ولم يعش في دهاليز السياسة وسراديبها - (ولم يحدث .)

● وتصورنا سنة ١٩٧٧ أن الطريق المستقيم يقودنا الى الوحش في جحره - ! - وهكذا كانت المبادرة بعد أن أكد لنا الرئيس الروماني « تشاوتشيسكو » أن « مناحم بيجين » رئيس وزراء اسرائيل الجديد رجل يريد السلام ويملك سلطة قراره - (ولم يحدث .)

ولم نتوقف مرة لنراجع أنفسنا ونسأل : لماذا لم يحدث كل هذا الذي تصورناه مرة بعد مرة ؟

وحين خطر لنا أن نفعل ذلك أحياناً ، فقد اعتمدنا التبرير بديلاً للتفسير . وهكذا اكتفينا بعلة أن « كيسنجر » لم يقدر لأنهم حاصروه وكبلوه . و « نيكسون » لم يقدر لأنهم دهموه بفضيحة « ووترجيت » . و « فورد » لم يقدر لأن الوقت لم يسعفه قبل سقوطه في الانتخابات . و « كارتر » لم يقدر لأن « بيجين » قفز أمامه فجأة كالعفريت من العلبة . و « بيجين » لم يقدر لأنه مزدوج الشخصية ، طالعنا في القدس بوجه قطوديع ، ثم أطل علينا في الاسماعيلية بوجه ذئب جائع الى الأرض والمستعمرات !

نماذج متكررة ، احدها بعد الآخر في سياق متصل ، ومثل ذلك لا يمكن رده الى الصدفة ، ولا يسهل تفسيره بمجرد تبريره .

واذن ما هو السبب أو الأسباب ؟

□

قلت في البداية أنه اختلاف مواريث ومراحل تطور .

وربما جازفت بتفصيل وتحديد أكثر ، فقلت :

ـ ان الخطأ الذي وقعنا فيه ـ اذا صدق ظني ـ هو أننا قسنا سلطة القيادات عند غيرنا بسلطة القيادات عندنا . ثم اننا خلطنا بين القوة العامة للدولة ، والقوة الشخصية لرئيسها .

وهكذا تصورنا ـ بمقاييسنا ـ أن « نيكسون » و « فورد » و « كارتر » يملكون من سلطة القرار في الولايات المتحدة الأمريكية ما يملكه الرؤساء والملوك والسلاطين العرب . وبما أن اليمن والمغرب وعمان ـ مثلاً ـ ليست في قوة الولايات المتحدة الأمريكية ـ اذن فلا بد أن الرئيس الأمريكي قادر على كل شيء . . اذا شاء فعل ، واذا حسنت نيته تمكن من اثباتها في طرفة عين !

وكان هذا خطأ حتى في أبسط قواعد المنطق التي تقول لنا أن المتشابهات فقط هي التي يمكن قياسها لبعضها ، وأما المختلفات فالعلاقة بينها لا يمكن أن تكون بالقياس وانما بالمفارقة !

واذا شئنا أن نذهب في التفصيل والتحديد الى أبعد ، لقلنا :

ـ ان السلطة في معظم بلدان العالم العربي ما زالت سلطة قبلية ، وهذه هي الحالة التي تسمح بتركيزها في يد واحدة تملك بمفردها سلطة القرار .

وليس ذلك هو الحال في الولايات المتحدة ـ مثلا . فالسلطة هناك دستورية وقانونية ، ومراكز متعددة لصنع القرار ، وضوابط وتوازنات تحمي عملية صنعه بين مختلف المؤسسات .

وهكذا فاننا حين ننظر الى أنفسنا ثم نحكم على غيرنا ، نقع في الخطأ لأننا ننسى المواريث ومراحل التطور ومجموعات القيم السائدة المتباينة والمتباعدة .

وربما كان أبلغ دليل على أننا نظرنا الى أنفسنا وحكمنا على غيرنا هو تلك القصة التي وردت في كتابات معظم الصحف عن الأسئلة التي وجهناها الى الرئيس الروماني « نيكولاي تشاوتشيسكو » قبل قرار المبادرة .

سألناه ـ على ضوء معرفته واجتماعاته برئيس الوزراء الاسرائيلي ـ عما يلي :

ـ هل « مناحم بيجين » يريد السلام ؟ وهل يملك القوة التي تمكنه من اصدار قراره ؟

أي أننا في الحقيقة سألنا عن رأي فرد ، ولم نسأل عن رؤ ية مؤ سسات .

وسألنا عن سلطة فرد ، ولم نسأل عن استراتيجيات وخطط وبرامج ومشروعات .

□

وحينما قلت قبل سطور ـ مثلاً ـ أن السلطة في الولايات المتحدة دستورية وقانونية ، ومراكز متعددة لصنع القرار ، وضوابط وتوازنات تحمي عملية صنعه بين مختلف المؤ سسات ـ فلقد كان يجب أن أضيف شيئاً آخر هو : ان القرار في تلك المجتمعات لا يصدر من فراغ . ذلك ان الدولة في المجتمعات السابقة الى مراحل متقدمة من التطور ليست مجرد « مؤ سسة سلطة » ، وانما هي « مؤ سسة هدف » . والسلطة اداة لتنفيذ هذا الهدف ، وقيمتها ترتبط بنجاحها أو فشلها في تحقيقه ، بل ترتبط بذلك شرعيتها من الأساس .

وحينما نقول أن الدولة « مؤ سسة هدف » فهذا يعني في الحقيقة أنها تعمل من أجل تحقيق تصور استراتيجي كامل على جميع المستويات ، وينطبق هذا على العمل الداخلي والأمن . ونستطيع القول بأن كل دولة لها ـ في مجال الأمن مثلا ـ ثلاثة

مستويات لتحقيق هدفها :

- هناك مستوى الاستراتيجية العليا .
- وهناك مستوى الاستراتيجيـة .
- وهناك مستوى التكتيك .

وبالنسبة للولايات المتحدة فاننا نستطيع تلخيص استراتيجيتها العليا في جملة واحدة على النحو التالي :

ـ أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية ـ بنظامها الاجتماعي ـ هي أقوى بلد في العالم ، وأن تكون في هذه القوة غير مسبوقة بأي قوة أخرى مهما كانت الظروف والتكاليف » .

وهكذا فان قرار الرئيس الأمريكي الأسبق « جون كنيدي » ـ سنة ١٩٦٠ ـ بضرورة أن يكون أول انسان تطأ قدماه سطح القمر انسانا أمريكيا ـ لم يكن قرار « مزاج » ، وانما كان قرار استراتيجية عليا . فقد أحس « كنيدي » أن الاتحاد السوفيتي سبق الولايات المتحدة في مجال الأقمار الصناعية والصواريخ التي تحملها الى الفضاء العالي ، وذلك حين أطلق أول كوكب صناعي دوار حول الأرض ـ « سبوتنيك » ـ سنة ١٩٥٧ .

وكان حتماً أن تؤكد الولايات المتحدة أنها الأقوى . . وأن يجيء هذا التأكيد بطريقة درامية لا تترك لأحد في العالم مجالا لشك ، وكان القمر هو ساحة التجربة ـ بصرف النظر عن التكاليف ـ لأن الهيبة عنصر رئيسي من عناصر القوة .

. . . .

. . . .

وعلى مستوى الاستراتيجية ـ بعد مستوى الاستراتيجية العليا ـ فاننا نستطيع أن نلمح الخطوط الرئيسية « للهدف الامريكي » .

● المنافسة في كل المجالات وبكل الوسائل مع القوة الثانية التي تحاول أن تجرى معها في السباق على مركز الأقوى في العالم - (وهي الدولة السوفيتية في الظروف الراهنة .)

● مد الحماية الأمريكية عبر الأطلنطي الى أوروبا الغربية ، وعبر الباسيفيكي الى اليابان ، وهذه جميعاً شريكة نفس النظام الاجتماعي ، وبالتالي شريكة نفس دواعي الأمن (حلف الأطلنطي ، وحلف جنوب شرق آسيا) .

● التركيز على أقاليم معينة في العالم ذات اهمية خاصة اقتصادية أو عسكرية ، وربط هذه الاقاليم بروابط المصلحة والأمن مع الولايات المتحدة وحلفائها (الشرق الأوسط مثلاً) .

● محاولة خلق مناخ اقليمي وعالمي ملائم لمصالح الولايات المتحدة وضرورات أمنها ، وذلك عن طريق جهد سياسي واعلامي مكثف ، خصوصاً اذا أدى الى احراج القوة الثانية التي تحاول منافسة الولايات المتحدة (حملة الحقوق الانسانية ضد الاتحاد السوفيتي مثلاً) .

● اشاعة جو عام من حسن النية تجاه الولايات المتحدة (وربما كان أنجح تحقيق لذلك هو أن أنماط الاستهلاك الأمريكي راحت تكتسح مجتمعات اخرى ، بينها مجتمعات متخلفة لا تستطيع أن تدفع التكاليف العالية لنمط الاستهلاك الأمريكي ، وذلك ما يسمى أحيانا بـ « استراتيجية الكوكاكولا !) .

. . . .

. . . .

وعلى مستوى التكتيك - أي تنفيذ مهام الاستراتيجية العليا والاستراتيجية - يستطيع قرار رئيس الولايات المتحدة أن يلعب دوره وان يظهر أهميته .

من « جورج واشنطن » الرئيس الأول الى « جيمي كارتر » الرئيس الحالي

للولايات المتحدة ـ لا يستطيع أي فرد ولا تقدر أية سلطة على تغيير الاستراتيجية العليا أو الاستراتيجية . . .وانما كلهم يمارسون حق الاجتهاد في التكتيك

□

اسرائيل نفس الشيء الى حد ما :

الاستراتيجية العليا : ثلاث نقط بارزة : اقامة الدولة ـ التوسع في حدودها ـ الهجرة المفتوحة اليها .

الاستراتيجية : علاقة مع القوة الغالبة في كل عصر ـ التفوق العسكري في الشرق الاوسط .

التكتيك : مفتوح بابه للاجتهاد ، ولكن لا اجتهاد في الاستراتيجية العليا او الاستراتيجية .

ومن هنا نستطيع ان نفهم ظاهرة نتحسر عليها أحياناً ونحن ننظر الى أحوالنا ، ثم ننقل النظر الى أحوال العدو . خلافاتهم هناك محصورة ، وحلها بطريق الحوار .

لمـــاذا ؟

لأن هنـاك مرجعـاً ـ من الاستراتيجية العليا والاستـراتيجية ـ يحـكم كل التصرفات ، وعنه تصدر كل الاجتهادات . ولهذا لم يكن غريباً أن نرى ونسمع اتفاق الحكومة والمعارضة في اسرائيل على ثلاث نقط جوهرية في اية مفاوضات مع العرب :

- لا عودة الى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ .
- لا دولة فلسطينية على أي بقعة من أرض فلسطين .
- لا تعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية .

ويقال لنا أحياناً :

ـ انظروا اليهم في اسرائيل وتعلموا منهم كيف يضبطون خلافاتهم !

والرد على مثل هذا القول بطبيعة الحال بدهي ، وهو :

ـ ليتنا نتعلم جميعاً أن الدولة الحديثة ليست « أداة سلطة » وانما هي اداة تحقيق استراتيجية عليا واستراتيجية كلاهما ثابت . وتكتيك بعد ذلك نستطيع أن نترك مائة زهرة تتفتح فيه ـ على حد تعبير « ماوتسي تونج » !

ذلك وحده هو الذي يضبط اختلاف الآراء . . . ليس بقمعها ، وانما بالرجوع فيها الى قانون .

□

هذا هو الخطأ الذي نقع فيه :

« في يدنا سلطة ، وفي يدهم استراتيجية ، والمشكلة عويصة ، خصوصاً عندما نقيس عليهم في اتخاذ القرار » .

ومن هذا الخطأ يتعطل الحوار ، ليس فقط بسبب قصور اللغة ، ولا بسبب تباين وتباعد معاني الكلمات ـ ولكن ايضا بسبب اختلاف مجموعات القيم السائدة على الناحيتين .

والغريب ان التعامل اليومي في ادارة الصراع يشير الى هذا الخطأ ويكشف أمامنا مزالقه ، ومع ذلك فنحن لا نتوقف ، ولو لكي نعيد الدرس والتقييم

وأمامنا الظواهر المبينة عن هذا الخطأ في الأقوال والتصرفات على هذه الناحية أو هناك ، ونحن لا نلتفت . وأضرب الأمثلة من الناحيتين :

● من ناحيتنا مثلاً :

١ ـ نحن لا ندرس برامجهم وخططهم ، ونتصور ذلك جميعاً من قبل « بالونات الاختبار » تطلق في الجو لمعرفة رد فعلنا عليها ، وهذا هو كل شيء . (والحقيقة شيء آخر ، فهناك برامج وخطط قامت عليها مواقف وجرت انتخابات وتشكلت مجالس تشريعية وتنفيذية ، الى آخره) .

٢ ـ نحن دائماً نفضلها محادثات مغلقة بين رجلين اثنين لا ثالث معهما ، متصورين أن ذلك أدعى الى النجاح ، وغيرنا لا يفهم هذا الأسلوب . وقد تحدث أحياناً في علاقات الدول المتقدمة اجتماعات مغلقة بين الكبار ، ولكنها لا تكون للتفاوض اطلاقا ، وانما تكون اقرارا لمبادىء عامة ، أو اقرارا لتفاصيل توصلت اليها مفاوضات طويلة قام بها خبراء . وربما ادعيت ـ ولا أظنني مخطىء في دعواي ـ بأن المحادثات التي جرت مغلقة بين مسئولين عرب كبار وبين غيرهم بقيت في صدورهم ، ولم توضع على الورق في معظم الأحيان . وأظن على سبيل المثال ـ وبعض الظن ليس اثما ـ أنه لا يوجد سجل كامل بمحادثات « كيسنجر » مع أي زعيم عربي في الجلسات التي عقدها مغلقة معهم ، وكانت تلك أهم الجلسات . والأمر لا يقتصر على المحادثات مع « كيسنجر » وانما المشكلة أوسع وأبعد . وليس هناك عذر في معظم الأحيان الا غياب مفهوم الدولة ، وفي بعض الأحيان يمكن التماس العذر . وأتذكر أن الملك فيصل كان صريحاً معي ذات يوم أثناء نقاش طويل بيننا حول هذه النقطة في شهر مايو سنة ١٩٧١ .

سألته عن أوراقه . . . عن تسجيلات مقابلاته التي قام بها في العالم كله خلال تجربة لا تضاهيها تجربة أخرى في العالم العربي ، وكان قوله :

ـ انني لا أكتب شيئاً على الورق . . . كل ما لديّ احتفظت به في رأسي ، فهو فيها أكثر أمانا . . . أحيانا كنت أملي بعض التفاصيل على عمر السقاف أو غيره من الاخوان ، لكن ما أمليته قليل .

ثم استطرد ـ يرحمه الله ـ بصراحة يقول :

ـ الى عهد قريب ـ طال عمرك ـ لم نكن في السعودية دولة .

لكن الأوضاع الآن تختلف ، ولا تستطيع الدول أن تمارس دورها الآن بغير سجلات على ورق . . أليست تلك ذاكرة الدولة ؟ !

٣ ـ ونحن لا نصدق الآخرين حين يتحدثون الينا عن مصاعبهم في الداخل ، بما فيها اقناع زملائهم في الحكم ، أو نظائرهم في المعارضة، او مجالسهم النيابية ، او صحافتهم ، الى آخره .

نتصور اعترافهم بهذه المصاعب خداعا لنا في أسوأ الحالات ، وفي أحسن الحالات ـ وبتغليب حسن النية ـ فاننا نتصوره اقراراً بالعجز عن « اتخاذ القرار » .

وليس عجزاً في الحقيقة ، ولكنه تعدد مصادر القرار والتأثير فيه لدى السابقين الى التطور ، وهو ـ لسوء الحظ ـ ظاهرة قوة وليس ظاهرة عجز !

● من ناحيتهم مثلا :

١ ـ يدركون أنهم امام فرد ، عمر قراره هو عمر بقائه في السلطة ، وبعدها لا أحد يستطيع ان يضمن أي شيء . وذلك يدفعهم الى الشك في الأساس الذي تقوم عليه شرعية الطرف الذي يحاورهم ويحاورونه .

وربما كانوا على استعداد لعقد اتفاق يرون الظروف ملائمة له . ولكنه اتفاق لمدى قصير لا يتعداه الى المدى الطويل ، لأن هذا المدى الطويل مرهون بغيب يصعب حسابه ، خصوصا اذا كان اي خلف على استعداد لنسخ أي سلف !

(ومن سوء الحظ أن الجنرال « موشي ديان » وزير الخارجية الاسرائيلية قضى جلسة عمل بأكملها مع الرئيس الامريكي « جيمي كارتر » يدور حول هذه النقطة ويلح عليها) .

٢ ـ ان هذا الوضع يدفعهم الى تشديد الضغط على الناحية الأخرى ، ذلك أن ارادة الرجل الذي يواجهونه مطلقة ، وهم على استعداد لأن يحصلوا منه على كل ما يستطيع التنازل عنه من ميزات يأخذونها لأنفسهم وتتحول الى حقائق سياسية .

وفي نفس الوقت فهم في أمان من المعاملة بالمثل ، أي أنهم محصنون ضد التنازلات لأن سلطتهم ـ مساكين ! ـ سلطة مقيدة محكومة بألف اعتبار واعتبار .

٣ ـ لقد تعلموا بالتجربة لعبة رخيصة التكاليف . فهم يضغطون للحصول على تنازلات ولا يقدمون في مقابلها شيئاً ، ويشعرون في الوقت نفسه أنهم مطالبون بأن يقدموا في مقابل ما حصلوا عليه . وهنا تواتيهم معرفتهم بطبائع الشرق العريق !

يخجله المديح ولكنه يسعده . وهكذا فانهم في مقابل التنازلات يعطون قصائد شعر لمن يريد .

وهكذا نكتشف في نهاية مفاوضات طويلة مع « كيسنجر » مثلا أو « نيكسون » أو « فورد » أو غيرهم ، أننا أعطينا ميزات وحصلنا على شهادات !

ونتنبه أحيانا بعد الوقت المناسب . ونغضب مرات . ويتعطل الحوار .

□

وتقفز الى ذاكرتي صيحة « أمين الريحاني » :

ـ انا الشرق عندي فلسفات فهل من يبيعني بها طائرات ؟ »

وأسأل بعده :

ـ أليست هناك وسيلة نستبدل بها ما لدينا من سلطات بشيء آخر اسمه : استراتيجيات ؟

على الأقل لكي يتصل ـ ولا يتعطل ـ الحوار !

الحوار الضائع ٣

نوع الضمانات التي يطلبها الآخرون ؟
٣ وثائق تتحدث عن نفسها بنفسها !

ويضيع الحوار أيضاً بين الأطراف نتيجة للاختلاف بين منطق ومنطق مما تصدر عنه التصرفات . ومن الطبيعي أن كل تصرف يصدر عن منطق سواء اتفقنا معه أو لم نتفق .

ولقد رأينا من قبل كيف ضاع الحوار بين الأطراف بسبب قصور اللغة ، وتباين وتباعد معاني الكلمات والأسماء والمسميات ودرجات الحس والشعور .

ورأينا من قبل ـ كذلك ـ كيف ضاع الحوار لأن مجموعات القيم السائدة هنا ليست هي مجموعات القيم السائدة هناك .

والآن فنحن أمام قضية أخرى ـ ثالثة ـ من قضايا الحوار الضائع . ولعل موضوعها ـ كما تنطق به الوثائق ـ أوضح وأفدح ، وهو : الاختلاف بين منطق ومنطق!

□

ولست أعرف كيف يمكن توصيف المنطق الذي تصدر عنه تصرفاتنا أحياناً ، ولكني أعرف كيف يمكن توصيف المنطق الذي تصدر عنه تصرفاتهم في اسرائيل دائماً .

ولكي لا يضيع هذا الحديث ـ كما ضاع ذلك الحوار ـ فقد اخترت أن أركز فيه على نقطة واحدة ، وهي « عملية التفاوض » في منطق الطرفين ، باعتبار أن التفاوض هو الصورة البسيطة المباشرة لحوار بين الأطراف في أي نزاع دولي .

وربما سمحت لنفسي أن استطرد هنا الى القول بأننا ـ فيما يبدو لي ـ نستهين

بـ « عملية التفاوض » ، في حين ان « المفاوضات » أصبحت علما مستقلاً بذاته في محيط العلوم السياسية . والى عهد قريب كانت العلوم السياسية مجالا محصورا لا يبتعد كثيراً عن دراسة التاريخ والقانون الدولي والمنظمات الدولية ، ولكنها الآن شيء يختلف تماماً . أصبح الصراع علماً مستقلاً . وأصبحت ادارة الأزمات علماً مستقلاً . وأصبح حل الأزمات علماً مستقلاً . وأصبح العنف ـ بعيداً عن القوة ـ علماً مستقلاً . وأصبحت المفاوضات علماً مستقلاً . وتلك كلها ثورات في مجال علوم السياسة لا أعرف تماماً أين نحن من تأثيراتها ؟

لكن اسرائيل ـ مع الأسف ـ ليست بعيدة عما يجرى في العالم . ومنطقها في « التفاوض » يعكس علمياً وعملياً ما هو مطلوب في « عملية التفاوض » ذاتها ، بصرف النظر عما هو مطلوب قبلها من توازنات ومطلوب معها من مؤثرات .

وبدون الدخول في تفاصيل لا لزوم لها في هذا الحديث ، فان ما هو مطلوب في « عملية التفاوض » ذاتها لا يختلف كثيراً عن المنطق العلمي والعملي الذي تدعو اليه كل علوم الادارة الحديثة ، ابتداء من ادارة الأعمال الى ادارة الصراعات ـ وأهمه ما يلي :

● لا بد في البداية من تحديد اطار المفاوضات ، والا دخل المتفاوضون الى القاعات وجلسوا على الموائد وراح كل منهم يتكلم ، وفي الحقيقة لا يقول شيئاً في الموضوع .

● ان كل طرف لا يعطي شيئاً الا اذا أخذ شيئاً في مقابله ، فمثل هذا التبادل في عناصر القوة هو المعنى الوحيد لـ « عملية التفاوض » .

● من حق كل طرف أن يحاول « أخذ » أقصى ما يستطيع ، وأن يحاول أن « يعطي » في مقابله أقل ما يمكن ، فذلك هو جوهر « عملية التفاوض » .

● ما يعطيه أي طرف أو يأخذه يجب أن يكون محدداً وبشكل واضح ومسجلاً وموثقاً بطريقة لا لبس فيها ، والا تحولت نتيجة المفاوضات الى جدل

فلسفي ـ أو بيزنطي ـ يتصل الى آخر الزمان .

● لا بد أن تكون هناك ضمانات وروادع تكفل احترام النتيجة التي تصل اليها « عملية التفاوض » ، وتفرض ما يترتب على الاخلال بما تعهد به الأطراف ، وان يكون ذلك منصوصاً عليه بحزم ، والا فقدت « عملية التفاوض » قدرتها على الفعل .

□

اذا كان ذلك منطقهم هناك في التفاوض ، فما هو منطقنا نحن ؟

وقلت منذ البداية انني لا أعرف . . . وما زال ذلك قولي بمنتهى التجرد والاخلاص !

ما أعرفه هو أننا لسنا مثلهم علميين وعمليين ، وانما نحن . . .

ماذا اقول ؟

ربما كنا من الفرسان . . . وربما كنا من الشعراء . . . وربما كنا من الفنانين . . . وربما كنا شيئاً آخر . والمشكلة أنه كيفما كنا ، فان ما لدينا ليس هو بالضبط ما هو مطلوب للمفاوضات بما تعنيه في الفكر السياسي الحديث . وهكذا يتعطل ويضيع الحوار لأنه ليس هناك منطق مشترك بين الفروسية والشعر والفن وأشباهها ـ وبين ادارة الأعمال وادارة الصراعات والأزمات في هذا الزمان .

ولنأخذ نماذج عملية في محاولة لدراسة منطق اسرائيل في المفاوضات .

● قبل أكثر من ستين سنة ـ أي سنة ١٩١٧ ـ كانت اسرائيل تريد من بريطانيا ـ وهي القوة العالمية الغالبة في ذلك العصر ـ وعدا بالحلم الاسرائيلي في فلسطين . وبرغم العلاقات الوثيقة بين الحركة الصهيونية بزعامة « وايزمان » وبين الحكومة البريطانية برئاسة « لويد جورج » ، فان « وايزمان » أصر على تعهد

مكتوب وموقع . وأن تكون صياغته من الوضوح بحيث تعني وطنا قومياً لليهود في فلسطين . . . اي دولة يهودية ـ وكان « وعد بلفور » .

● بعد ثلاثين سنة ـ بالضبط سنة ١٩٥٦ ـ وكانت اسرائيل قد قامت ، تنفيذاً لوعد بلفور المكتوب والموقع بامضاء وزير الخارجية البريطانية ـ وجدت اسرائيل نفسها طرفاً في مؤامرة ضد مصر دعتها بريطانيا وفرنسا الى الاشتراك فيها ، وهي مؤامرة التواطؤ الثلاثي في حرب السويس . كان المطلوب من اسرائيل شيئاً واحداً محدداً ، هو أن تعطي مبرراً للتدخل البريطاني الفرنسي في منطقة قناة السويس . وبالتحديد كان دورها أن تبدأ في القيام بعمليات عسكرية يكون توقيتها قبل ساعات من الغزو البريطاني الفرنسي ، بحيث تكون المعركة بينها وبين مصر هي الادعاء الذي تتمسك به الدولتان الكبريان للتدخل العسكري بمقولة « الحرص على الملاحة في قناة السويس » .

كانت المؤامرة تحقق لاسرائيل هدفاً هو أكثر ما تطمح اليه ، ومع ذلك فانها أصرت على ان يكون الاتفاق ـ المؤامرة ـ مفاوضات في قرية « سيفر » قرب «باريس» ، وان يكون كل شيء في التواطؤ محدداً ومكتوباً على ورق ، وموقعاً بامضاء مسئولين مخولين بالتوقيع عن الحكومتين البريطانية والفرنسية . حتى في مؤامرة لم يكن الطموح كافياً ، ولا حسن النية بين الأطراف كافياً ـ وهكذا كانت « معاهدة سيفر » السرية في ٢٥ أكتوبر ١٩٥٦ ، قبل بدء العمليات العسكرية في سيناء بأربعة أيام . ولم يطمئن بال « دافيد بن جوريون » رئيس وزراء اسرائيل الا حينما طوى نسخة من المعاهدة بعناية ووضعها في جيب سترته الداخلي وعاد يركب طائرته الى اسرائيل لينفذ دوره في المؤامرة !

● أصل الى نموذج ثالث قريب . ولأنه قريب ، ولأن الوقائع فيه ما زالت ماثلة للأذهان ، فانه نموذج يستحق التركيز عليه بقدر أكبر من التفاصيل . وهذا النموذج هو « اتفاقية فصل القوات » الثانية بين مصر واسرائيل التي وقعت بالحروف الأولى في أول سبتمبر ١٩٧٥ .

□

كانت المفاوضات لحل ازمة الشرق الأوسط ـ في أعقاب حرب أكتوبر ـ تجرى تحت رعاية وتوجيه الولايات المتحدة الامريكية ، وهي الطرف الدولي الأقرب والألصق باسرائيل .

وكانت المفاوضات قد توصلت ـ في مرحلة سابقة ـ الى اتفاقية أولى للفصل بين القوات على الجبهة المصرية ، واتفاقية أولى للفصل بين القوات على الجبهة السورية . وكان تقدير الولايات المتحدة أنه لا بد من مواصلة عملية الاندفاع في المفاوضات ، والا توقفت العملية . وكان هذا هو الدافع الى محاولة التوصل الى اتفاق ثان لفصل القوات على الجبهة المصرية .

كان العرب قد اعطوا وقدموا من الدلائل والتأكيدات والتنازلات ما لم يكن يخطر على بال أحد ، حتى راسمي السياسة الأمريكية في أكثر أحلامهم جموحاً واغراقاً في الخيال . وهذه نقطة سوف أعود اليها تفصيلاً فيما بعد . لكني أركز الآن على ما حدث في مفاوضات الاتفاقية الثانية للفصل بين القوات على الجبهة المصرية . كان المطلوب من اسرائيل في هذه الاتفاقية أن تسحب قواتها الى مسافة لا تزيد عن بضعة كيلومترات الى الشرق من قناة السويس ، وكان ذلك يعني أن تعود الى مصر آبار البترول في « أبو رديس » و « رأس سدر » . واعتبرت اسرائيل أن ذلك تنازلا ضخما أكرهت عليه . وقد قدمته للولايات المتحدة وليس لغيرها ، لكي تتمكن الولايات المتحدة من تدعيم موقفها السياسي العام في المنطقة . وهكذا فان الولايات المتحدة مطالبة بأن تعطي لاسرائيل مقابل ما أخذته منها وقدمته لمصر .

وكانت لاسرائيل مطالب متعددة ، وفي كل النواحي والمجالات .

وبرغم وشائج القربى بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وبرغم الأهداف المشتركة والثقة المتبادلة ، فان اسرائيل لم تكن على استعداد لأن تترك شيئاً للحظ أو لحسن النوايا . وهكذا لم تقبل اسرائيل أن تعيد الى مصر بضعة كيلومترات من سيناء الا بعد توقيع ثلاث وثائق بينها وبين حكومة الولايات المتحدة الامريكية .

وبرغم طول بعض هذه الوثائق ، فاني أنشرها بالنص نقلاً عن محضر جلسة لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الامريكي بتاريخ ٣ اكتوبر ١٩٧٥ .

وهدفي من نشر النص أن ندرس المنطق الاسرائيلي وما يصدر عنه .

□

أولى الوثائق الثلاث ـ وهي ضمن الملاحق السرية لاتفاقية سيناء الثانية ـ تتعرض لمؤتمر السلام المنتظر في جنيف ، وترتب تنسيق المواقف بين الولايات المتحدة واسرائيل . ونص الوثيقة كما يلي :

« مذكرة باتفاق بين حكومتي اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية

مؤتمر السلام في جنيف :

١ ـ يدعى مؤتمر جنيف للاجتماع في وقت يتم التنسيق بشأنه بين الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل .

٢ ـ ان الولايات المتحدة سوف تواصل التزامها بالسياسة المتبعة حاليا تجاه منظمة التحرير الفلسطينية ، وبمقتضى ذلك فانها لن تعترف او تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية طالما أن منظمة التحرير الفلسطينية لا تعترف بحق اسرائيل في البقاء ولا تقبل قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ .

ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تجري مشاورات وافية ، وسوف تنسق مواقفها واستراتيجيتها في مؤتمر السلام في جنيف فيما يتعلق بهذه المسألة مع حكومة اسرائيل .

وبنفس الطريقة فان الولايات المتحدة الامريكية سوف تجري مشاورات وافية وسوف تسعى الى تنسيق مواقفها واستراتيجيتها في مؤتمر السلام في جنيف مع اسرائيل فيما يتعلق باشتراك اي دول اخرى في المؤتمر .

ومن المتفق عليه أن اشتراك أي دولة أخرى أو جماعة أو منظمة في مرحلة لاحقة من مؤتمر السلام في جنيف ـ يتطلب اتفاقاً بين جميع الأطراف الأصليين في المؤتمر .

٣ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية سوف تبذل كل جهدها في المؤتمر للتأكد من أن جميع المفاوضات في المسائل الحيوية سوف تكون على اساس ثنائي .

٤ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية سوف تعارض ـ واذا دعت الضرورة سوف تصوت ضد ـ اي مبادرة في مجلس الأمن تستهدف ادخال تغييرات على الشروط التي قام عليها مؤتمر جنيف . وسوف تعارض أيضاً بنفس الطريقة أي محاولات لتعديل قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ بطريقة تجعلهما غير ملائمين لأهدافهما الأصلية .

٥ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية سوف تسعى للتأكد من أن دور الدولتين الداعيتين للمؤتمر سوف يكون متسقا مع ما تم الاتفاق عليه في مذكرة التفاهم بين حكومة الولايات المتحدة الامريكية وحكومة اسرائيل في ٢٠ ديسمبر ١٩٧٣ .

٦ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل سوف تنسقان جهودهما للتأكد من أن المؤتمر سوف يمارس عمله بطريقة متناسقة مع اهداف تلك الوثيقة ومع الهدف المعلن لمؤتمر جنيف ، وبالذات فتح السبيل لاتفاق يجري التفاوض عليه بين اسرائيل وكل واحدة من جيرانه على حدة .

امضـــاء	امضـــاء
عن حكومة الولايات المتحدة الامريكية	عن حكومة اسرائيل
هنري كيسنجر	ايجال آللون
وزير الخارجية	نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية

□

وتتعرض الوثيقة الثانية لموضوع امداد اسرائيل بالأسلحة الأمريكية ، ومع أن هذه الوثيقة تعبر عن تأكيد أمريكي لاسرائيل ، ومن ثم كان يمكن تلقيها شفوياً ـ فان اسرائيل صممت على أن يجيئها التأكيد مكتوباً . . . مسجلاً وموثقاً .

وهكذا فان نص الوثيقة الثانية كما يلي :

تأكيدات من حكومة الولايات المتحدة الامريكية الى اسرائيل

في موضوع المساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل :

فان التأكيد التالي تم نقله بواسطة حكومة الولايات المتحدة الامريكية الى اسرائيل ، علاوة على ما تضمنته المذكرة باتفاق بين الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل :

ان الولايات المتحدة الأمريكية مصممة على أن تواصل امداد اسرائيل بكل ما يلزم لتقوية قدراتها الدفاعية ، وذلك عن طريق امدادها بانواع متطورة من المعدات مثل طائرات « ف ـ ١٦ » .

ان الولايات المتحدة الامريكية توافق على اجتماع مشترك يعقد في موعد مبكر يقوم باعداد دراسة مشتركة لامكانية امداد إسرائيل باسلحة تكنولوجية متقدمة ، بما في ذلك قذائف « بيرشنج » أرض أرض مزودة برؤوس تقليدية . وترى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ان تكون نتيجة هذه الدراسات ايجابية .

ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تقدم سنوياً لموافقة الكونجرس الأمريكي طلبا بالموافقة على مساعدات عسكرية واقتصادية تمكن اسرائيل من مواجهة احتياجاتها العسكرية والاقتصادية .

□

ثم تجيء اخيرا الوثيقة الثالثة ، وهي في ظني أهم هذه الوثائق فيما ندرسه عن المنطق الاسرائيلي وما يصدر عنه من تصرفات . فهذه الوثيقة لم تترك موقفاً يمكن أن تواجهه اسرائيل الا واحتاطت له ، وربما كان الأفضل أن أترك نصها يعطي وحده عبرتها . النص كما يلي :

« مذكرة باتفاق بين حكومتي الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل

ان الولايات المتحدة الامريكية تعترف بأن الاتفاق المصري الاسرائيلي الذي

تم التوقيع عليه بالحروف الأولى في ١ سبتمبر ١٩٧٥ (والمشار اليه فيما بعد بوصف الاتفاق) دعا اسرائيل الى الانسحاب من مناطق حيوية في سيناء ، وهو على هذا النحو يشكل خطوة ضخمة لها معناها من جانب اسرائيل في سبيل تحقيق السلام النهائي .

ان هذا الاتفاق يحظى بالتأييد الكامل للولايات المتحدة الأمريكية .

تأكيدات من الولايات المتحدة الامريكية لاسرائيل

١ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تبذل كل مجهود لكي تتمكن من ان تلبي كاملا ـ وفي حدود مواردها وموافقة وتخصيص الكونجرس ، وذلك على أساس جاري وطويل المدى ـ كل احتياجات اسرائيل من العتاد العسكري وغير ذلك من مستلزمات الدفاع ، وكل احتياجات اسرائيل من الطاقة ، وكل احتياجاتها الاقتصادية .

ان الاحتياجات المشار اليها في الفقرات ٢ و ٣ و ٤ أدناه صالحة للادراج في حجم المساعدات الكلي المطلوب في السنة المالية ١٩٧٦ والسنوات المالية التالية لها .

٢ ـ ان احتياجات اسرائيل من الامداد العسكري على المدى الطويل من الولايات المتحدة الأمريكية سوف تكون موضع مشاورات دورية بين ممثلين عن مؤسسات الدفاع في كل من الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل ، وعندما يتم الاتفاق على كمية من الامداد توضع بها مذكرة اتفاق بين حكومتي الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل .

ولهذا الغرض فان دراسة مشتركة بواسطة الخبراء العسكريين سوف تبدأ في ظرف ثلاثة اسابيع . وفي اجراء هذه الدراسة ـ التي سوف تتضمن احتياجات اسرائيل سنة ١٩٧٧ ـ فان الولايات المتحدة الامريكية سوف تنظر بروح الود الى طلبات اسرائيل من الاسلحة المتطورة .

٣ ـ ان اسرائيل سوف تتولى بنفسها ترتيبات الحصول على ما يلزمها من

البترول بالوسائل الطبيعية . وفي حالة ما اذا لم تتمكن اسرائيل من تحقيق احتياجاتها بهذه الوسائل، فان حكومة الولايات المتحدة ـ فور اخطارها بهذه الحقيقة بواسطة الحكومة الاسرائيلية ـ سوف تتصرف ولمدة خمس سنوات على النحو المبين فيما بعد ـ وفي نهاية هذه المدة فان ايا من الطرفين يستطيع انهاء هذه الترتيبات باخطار مسبق مدته عام واحد :

أ ـ اذا لم تتمكن اسرائيل من الحصول على البترول اللازم لاستهلاكها المحلي في ظروف لا توجد فيها أي قيود على مقدرة الولايات المتحدة الامريكية على الحصول على احتياجاتها العادية من البترول ـ فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تمكن اسرائيل فوراً من شراء كل احتياجاتها المشار اليها من البترول . واذا لم تكن اسرائيل قادرة على تأمين الوسائل الضرورية لنقل هذا البترول الى اسرائيل ، فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تبذل كل جهدها لمساعدة اسرائيل على الحصول على الوسائل اللازمة للنقل .

ب ـ اذا لم يكن البترول المطلوب لاحتياجات الاستهلاك الطبيعي لاسرائيل متاحاً للشراء في ظروف توجد فيها قيود ـ بالحظر أو خلافه ـ تمنع الولايات المتحدة الامريكية من الحصول على البترول لمواجهة احتياجاتها الطبيعية ـ فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تجعل البترول اللازم متاحاً لاسرائيل على الفور طبقاً لبرنامج وكالة حفظ الطاقة الدولية ، وذلك بنفس الشروط التي تتعامل بها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى تتمكن اسرائيل من مواجهة احتياجاتها الضرورية .

واذا لم يكن في وسع اسرائيل تأمين الوسائل اللازمة لنقل هذا البترول الى اسرائيل ، فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تبذل كل جهد لمساعدة اسرائيل على تأمين الوسائل اللازمة للنقل .

وسوف يجتمع الخبراء الاسرائيليون والامريكيون سنويا ـ او اكثر اذا دعا احد الأطراف ـ لمراجعة احتياجات اسرائيل المستمرة من البترول .

٤ ـ بغرض مساعدة اسرائيل في الحصول على مطالبها من الطاقة ، وكجزء من

الرقم الكلي في الفقرة (١) اعلاه ، توافق الولايات المتحدة الامريكية على ما يلي :

أ ـ في تحديد المبلغ الاجمالي الذي تتقدم به الحكومة الامريكية للكونجرس بشأن المساعدات الامريكية ، فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تعطي اهتماما خاصا لاحتياجات اسرائيل من البترول ، وللفترة المقررة في البند الثالث أعلاه ، سوف تأخذ في تقديرها عند حساب هذا الرقم مصاريف اسرائيل الاضافية في استيراد البترول الذي يحل محل البترول الذي كان يمكن لاسرائيل أن تحصل عليه طبيعيا من حقول « ابو رديس » و « رأس سدر » (٤,٥ مليون طن سنة ١٩٧٥) .

ب ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تتقدم الى الكونجرس بطلب تخصيص اعتمادات يتم تحديدها باتفاق مشترك لتقديمها الى حكومة اسرائيل باعتبارها لازمة لمشروع بناء وسائل تخزين تتسع للاحتياطي المطلوب لاسرائيل بحيث يمكن رفع حجم الاحتياطي المخزون لكي يصل مما يكفي لستة شهور الى ما يكفي لسنة عند انتهاء المشروع .

ان المشروع يجب اتمامه خلال أربع سنوات ، ولهذا فان البناء وعملية اقامته وتمويله وكافة المسائل المتصلة بالمشروع سوف تكون موضع محادثات مفصلة بين الحكومتين .

٥ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية لن تتوقع ان تبدأ اسرائيل في تطبيق الاتفاق قبل أن تفي مصر بما تعهدت به بمقتضى اتفاق فض الاشتباك من السماح بمرور كافة البضائع من والى الموانيء الاسرائيلية عبر قناة السويس .

٦ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية تقرر وجهة نظر اسرائيل بأن أي اتفاق قادم مع مصر يجب ان يكون اتفاق سلام نهائي .

٧ ـ في حالة قيام مصر بخرق أي من بنود الاتفاق فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تكون مستعدة للتشاور مع اسرائيل في معنى هذا الخرق وفي أية اجراءات لتصحيحه بواسطة حكومة الولايات المتحدة الامريكية .

٨ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تصوت ضد اي مشروع قرار يقدم الى مجلس الأمن وتجده ـ في تقديرها ـ مؤثرا بشكل غير ملائم على الاتفاق .

٩ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف ترفض الانضمام الى ـ وسوف تحاول منع جهود الآخرين من ـ أية محاولة لطرح مقترحات تجدها هي واسرائيل ضارة بمصالح اسرائيل .

١٠ ـ بالنظر الى تعهد الولايات المتحدة الامريكية المستمر بالالتزام ببقاء وسلامة اسرائيل ، فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف تأخذ على محمل الجد اية تهديدات توجه الى أمن وسيادة اسرائيل بواسطة أي قوة دولية . ولتدعيم هذا الهدف فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية ـ في حالة صدور مثل هذا التهديد ـ سوف تتشاور على الفور مع الحكومة الاسرائيلية بشأن تقديم كل مساعدات دبلوماسية ـ أو غيرها ـ يمكن أن تقدمها لاسرائيل وفقاً للقواعد الدستورية المرعية

١١ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية وحكومة اسرائيل سوف تبدآن في اقرب فرصة ممكنة ـ وفي خلال شهرين من توقيع هذا الاتفاق اذا أمكن ـ في اعداد خطة طوارىء لامداد اسرائيل بالعتاد العسكري في أي موقف ينشأ ويستدعي ذلك .

١٢ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية ترى أن التزامات مصر بمقتضى الاتفاق المصري الاسرائيلي ، وكذلك تطبيقه وصلاحيته وسريانه ، لا تتوقف على أي تصرف أو أية تطورات تجري بين أية دولة عربية أخرى واسرائيل .

ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية ترى أن هذا الاتفاق قائم بذاته .

١٣ ـ ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية تتفق مع الموقف الاسرائيلي في أنه في الظروف السياسية الراهنة فان المفاوضات مع الأردن يجب ان تتوجه نحو تحقيق تسوية سلمية شاملة .

١٤ ـ طبقاً لمبدأ حرية الملاحة في اعالي البحار وحق المرور المفتوح خلال وفوق المضايق التي تصل بين المياه الدولية ـ فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية تعتبر أن مضايق « باب المندب » و « جبل طارق » ممرات مائية دولية . وسوف تؤيد حق اسرائيل في المرور الحر والمفتوح خلال هذه المضايق . وعلى نفس هذا الاساس فان حكومة الولايات المتحدة الامريكية تعترف بحق اسرائيل في الطيران الحر فوق البحر الأحمر ومضايقه ، وسوف تؤيد ـ دبلوماسيا ـ ممارسة هذا الحق .

١٥ ـ في حالة انسحاب قوات الطوارىء الدولية أو أي قوات تابعة للأمم المتحدة بغير اتفاق مسبق بين الأطراف في الاتفاق بين كل من مصر واسرائيل والولايات المتحدة الامريكية ـ واذا لم يكن هذا الاتفاق قد تم استبداله باتفاق آخر ـ فان الولايات المتحدة الامريكية ترى أن هذا الاتفاق سوف يبقى ملزماً في كل أجزائه .

١٦ ـ ان الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل تتفقان على ان امضاء بروتوكول الاتفاق بين مصر واسرائيل وسريان تطبيقه بالكامل لا يتم قبل موافقة الكونجرس الامريكي على دور الولايات المتحدة الامريكية في متابعة ومراقبة المهام المشار اليها في الاتفاق وفي ملحقه .

ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية قد أخطرت حكومة اسرائيل أنها حصلت على موافقة حكومة مصر على المشار اليه أعلاه .

امضاء	امضاء
عن حكومة الولايات المتحدة الامريكية	عن حكومة اسرائيل
هنري كيسنجر	ايجال آللون
وزير الخارجية	نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية

☐

ان البند الأخير في هذه الوثيقة ـ وهو البند (١٦) ـ وكذلك الجملة الختامية التالية له ـ يستحقان لفت نظر سريع :

فاسرائيل تجد أن أي اتفاق مع حكومة الولايات المتحدة لا يكفيها ، ولهذا تشترط موافقة الكونجرس الأمريكي عليه ، والمدخل هو دور الولايات المتحدة في مراقبة الاتفاق ، وهو دور يقتضي مجيء بضع مئات من الخبراء الامريكيين لتشغيل محطة مراقبة في منطقة الممرات ، ومثل ذلك التواجد الامريكي بافراد على أرض أي صراع يقتضي موافقة الكونجرس . وهكذا فان اسرائيل لا تضمن موافقة الكونجرس فحسب ، ولكنها تضمن موافقة الرأي العام الأمريكي تبعا لموافقة الكونجرس .

وكل ذلك لا تكتفي به اسرائيل ، وانما هي تريد فضلا عنه وزيادة عليه أن تتأكد ان مصر تعرف ـ وتوافق ـ على تقديم هذه الضمانات التي تتضمنها البنود الستة عشر للمذكرة باتفاق بين حكومة الولايات المتحدة الامريكية وحكومة اسرائيل .

كل ذلك . . . كله تأخذه اسرائيل وتسجله وتوثقه ، في مقابل الانسحاب بضعة كيلومترات الى الشرق من قناة السويس ، وتعيد فيها لمصر بعض بترولها الموجود في سيناء !!

وأعترف انني لا أجد فيه شيئاً غريباً . وانما هو المنطق العلمي والعملي في ادارة الصراعات .

□

وهناك سؤال يلح عليّ الآن ، وأتصوره ملحا على غيري :

ـ اذا كانت اسرائيل قد أخذت ذلك كله مفصلا مسجلا موثقا في مقابل بضعة كيلومترات من سيناء ـ فما الذي اخذه العرب في مقابل كل ما أعطوه للولايات المتحدة أو لاسرائيل ، وهو هائل هائل . . . هائل الى غير حدود ؟ !

بعضه ـ وليس كله ـ يتضمن ما يلي :

١ ـ اخراج الاتحاد السوفيتي من العالم العربي ـ او محاولة ذلك ـ ابتداء من طرد الخبراء الى الغاء المعاهدات .

٢ ـ مطاردة الاتحاد السوفيتي في افريقيا ـ او محاولة ذلك ـ خصوصا في القرن الأفريقي ـ بصرف النظر عن النتائج الفعلية .

٣ ـ فتح الأبواب على مصراعيها للولايات المتحدة ، ابتداء من تركيز أوراق الحل في يدها الى تأييد وتوسيع دائرة مصالحها .

٤ ـ رفع حظر البترول قبل أن تتحقق الأهداف التي فرض من أجلها .

٥ ـ تسهيل وجود عسكري أمريكي في المنطقة تصعب السيطرة على نشاطه .

٦ ـ الاعتراف بوجود اسرائيل ، والتفاوض المباشر معها .

٧ ـ تجميد سعر البترول وقبول الدفع عنه بالدولار رغم تدهور اسعاره يوما بعد يوم .

٨ ـ المبادرة بكل ما تعنيه .

ذلك بعض ما أعطيناه ، وليس كله ، ولست اعرف ماذا اخذنا في مقابله .

لم نأخذ أكثر من وعود غامضة مبهمة تحتمل كل معنى وكل تأويل . . . لكننا اكتفينا بها حامدين وشاكرين . ولم نتنبه الى أن الحوار قد ضاع لاختلاف ـ بل تصادم ـ منطقين .

ثم أسعدنا أن نقول لأنفسنا : هم مرابون يهود ، ونحن لسنا كذلك . . . نحن فرسان وشعراء وفنانون. . .

الحوار الضائع ٤

تصورات السلام كما يراها
«بيجين» و«ديان» و«جور»

وبسبب « اختلاف التصورات » يضيع الحوار أخيراً . . .

● كما ضاع ـ أولا ـ بسبب قصور اللغة ، وتباين وتباعد معاني الكلمات والأسماء والمسميات ودرجات الحس والشعور . . .

● وكما ضاع ـ ثانيا ـ لأن مجموعات القيم السائدة هنا ليست هي مجموعات القيم السائدة هناك . . .

● وكما ضاع ـ ثالثا ـ بسبب تصادم المنطق الذي تصدر عنه تصرفاتنا مع المنطق الذي تصدر عنه تصرفاتهم ، حتى من خلال عملية واحدة محددة كعملية التفاوض . . .

● وها هو الحوار يضيع ـ رابعا وأخيرا ـ بسبب « تصورات » المستقبل التي يذهب كل منها الى واد بعيد : هم الى واد سبق لهم استكشاف آفاقه ودراسة دروبه ، ونحن الى واد آخر شددنا الرحال اليه بغير بوصلة تهدي أو دليل يقود !

. . . .

. . . .

وفي هذا الحديث أيضاً أحاول التركيز على نقطة واحدة لشرح مسألة « اختلاف التصورات » ، وكيف يمكن أن تؤدي الى تعطيل وتضييع الحوار والنقطة الواحدة التي أقترحها لهذه المحاولة في التركيز هي نقطة « تصورات السلام » ، وهي في الحقيقة أوسع الآفاق المفتوحة للتصورات ، ذلك لأن بقية النقط في جهود حل الصراع تتعرض في الغالب لقضايا حالة وقائمة على الأرض .

فموضوع الانسحاب ـ مثلا ـ ليس مجال تصورات . وموضوع الشعب الفلسطيني وحقوقه ليس هو الآخر مجال تصورات .

الأرض حقيقة مادية قائمة ، بصرف النظر عن مواقع قوات الاحتلال .

والشعب الفلسطيني حقيقة قائمة ، بصرف النظر عن مكان تواجد جموعه في الوقت الراهن : وهل هي في الأرض التي احتلت سنة ١٩٤٨ ، او الأرض التي احتلت سنة ١٩٦٧ ، أو فيما حول الأرض الفلسطينية من بقية ارجاء أرض الأمة العربية .

وأما السلام فهو شيء يختلف . . . شيء لم يوجد قط منذ قامت اسرائيل ـ وهكذا فهو محاولة خلق منذ البداية ، وبداية الخلق تصور .

كيف نتصور السـلام ؟
كيف يتصورون السـلام ؟

□

نبدأ بالتصور العربي للسلام . ونلاحظ لأول وهلة أنه ليس هناك تصور عربي ، وانما هناك عدة تصورات عربية للسلام .

١ ـ هناك تصور عربي يعتقد أن السلام ليس احتمالا مطروحا تحت أي ظرف ، فهناك صراع بين طرفين على قطعة من الأرض لا تحتمل غير أحدهما . وفي تقدير هذا التصور أن أحد طرفي الصراع ـ الطرف الفلسطيني ـ يملك الحق الأصيل في الأرض ، بينما الطرف الثاني ـ الطرف الاسرائيلي ـ لا يملك غير ادعاء باطل تسنده قوة غالبة ، وذلك لا ينشيء حقا . والصراع بين الحق والباطل لا سبيل فيه الى حل وسط. وهكذا فان الطريق الى السلام مسدود ، وأي جهد لتصوره في ظل الأمر الواقع ضربا من الوهم .

(والغريب أن ذلك هو نفسه التصور الاسرائيلي للسلام . ومنه الى حد كبير

رفض اسرائيل القاطع لفكرة اقامة دولة فلسطينية أو لأي اتصال مع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الطليعة السياسية والعسكرية للشعب الفلسطيني . ولا يكف « مناحم بيجين » على سبيل المثال عن القول بأن « قيام دولة فلسطينية يعتبر نفيا لقيام دولة اسرائيل ») .

٢ ـ هناك تصور عربي يحاول الهرب من كل موضوع السلام ، وذلك هو موقف بعض دول المساندة ، كالمملكة العربية السعودية مثلاً . البعض هناك يدرك أن الضرورات لها أحكام . ولكن لأن السعودية بعيدة عن خطوط المواجهة المباشرة فان الضرورات لا تطالبها هي بشيء ولا تفرض عليها أحكامها ، « واذا رضي الاخوان على خطوط المواجهة بشيء فذلك حقهم ومسئوليتهم ، ولهم ما يرون » ـ هكذا يقال !

وهذا التصور ـ بنظرته الاجمالية للأمور ـ يريد حلا لأزمة الشرق الأوسط يمكن معه السيطرة على التفاعلات العنيفة في العالم العربي بمضاعفاتها السياسية والاجتماعية .

لكن ما يريده هو الحل فقط ، وأما تصورات السلام فبينه وبينها حد الله . . وهكذا فانه يسير الى منتصف الطريق ، لكنه يريد أن يخرج ـ أو هل أقول يهرب ـ قبل نهايته !

٣ ـ هناك تصور عربي للسلام تتبناه سوريا ، وهو يرى أن السلام هو انهاء حالة الحرب .

٤ ـ وهناك تصور عربي للسلام تتبناه مصر ، وهو يرى أن السلام يمكن أن يتضمن ـ الى جانب انهاء حالة الحرب ـ بعض اجراءات الأمن ، وبعض تطبيع العلاقات ، الى آخره .

والمشكلة أن تضارب التصورات العربية عن السلام ـ وغيبة تصور واحد وموحد ـ معناه أنه لا سلام . ذلك لأن السلام « حالة » لا تقبل التجزئة . فهي توجد أو لا توجد . . . تقوم أو لا تقوم . . . أي أنه لا يوجد شيء اسمه نصف سلام ،

بمقدار ما يقول المثل الأمريكي « أنه ليست هناك امرأة نصف حامل » ، فهي اما أن تكون في حالة حمل ، أو لا تكون !

بمعنى أنه حتى اذا عقدت مصر ـ لا سمح الله ـ اتفاق سلام منفرد مع اسرائيل ، فان ذلك ليس سلاما في الشرق الأوسط ، وانما خطر الحرب ماثل على الجبهة الشرقية ، واذا انفجر الوضع عليها فليس هناك ضمان لردة الفعل المصري ، وهكذا . . .

ويترتب على هذا ـ بالمنطق المجرد ، وبصرف النظر عن اجتهاداتي واجتهادات غيري وآرائي وآراء غيري ـ أن اسرائيل لن تدفع ثمن السلام العربي الا اذا كان هناك تصور عربي واحد وموحد للسلام .

ومن ناحية ثانية ـ وذلك أيضا من باب المنطق المجرد ـ فان القوة العربية ـ على فرض وجود الكفاية منها ـ لا تستطيع أن تفرض السلام لأنها لا تعرف أي سلام تريد .

وهكذا فان تصورات السلام من الناحية العربية خليط مشوش يمشي ـ أو لعله يتدحرج ـ نحو واد بعيد بغير بوصلة تهدي أو دليل يقود !

□

ننتقل الى الناحية الأخرى . . . الى تصورات السلام الاسرائيلي .

التصور الاسرائيلي للسلام ـ ومن أسباب عديدة ـ لا يجهد نفسه في البحث كثيراً حول التصورات العربية ، التي ترفض السلام أو التي تهرب منه . ويفضل ـ لدواع عملية ـ أن يركز على التصور السوري والتصور المصري للسلام ، ولو من اعتبار أن تلك هي التصورات القائمة على خطوط المواجهة مباشرة ، وبالتالي فانه معها ـ وليس مع غيرها ـ يدور الحوار .

والذي نلاحظه ـ من أول نظرة ـ أن التصور الاسرائيلي للسلام يرفض رفضا

كاملا كل التصورات السورية وكل التصورات المصرية للسلام ، حتى برغم بعد المسافة بينهما واتساع الخلاف .

والسبب أن التصور الاسرائيلي للسلام في واد آخر سبق له استكشاف آفاقه ودراسة دروبه ورسم خريطة كاملة له .

وأترك الكلام لـ « مناحم بيجين » رئيس وزراء اسرائيل . أنقل عن نصوص حديثه تقريبا داخل اجتماع في احدى القاعات المغلقة في القدس .

قال « مناحم بيجين » :

ـ انني أريد السلام ، ولكني أريده سلاما حقيقيا .

ان السلام بالنسبة لاسرائيل مخاطرة ، وانا على استعداد لقبولها . لكن الناس لا يقبلون المخاطرات الا اذا كانت فرص النجاح ظاهرة أمامهم وعواقبها مأمونة .

والسلام بالنسبة لي هو أمن أرض اسرائيل ، وأمن شعب اسرائيل ، ثم ان هناك عنصراً ثالثاً لا بد أن آخذه في الاعتبار ، وهو أنني عندما أقول أن السلام قد جاء ، فمعنى ذلك أنه لا يعود من حق اسرائيل أن تطالب يهود العالم ـ وبالذات يهود الولايات المتحدة ـ بالتبرع لأمن اسرائيل ، ولا أستطيع أن أطالب الولايات المتحدة بأن تعطينا السلاح والمساعدات الاقتصادية لأن ذلك ضروري لأمن اسرائيل .

سوف يقال لي « لقد وصلتم الى السلام ، ويمكنكم أن تعتمدوا على انفسكم » ، ولا أستطيع أن أجادل فيما يقال لي .

هكذا فان المسئولية تفرض عليّ أن لا أسمي سلاما الا اذا كان سلاماً فعلاً ما أسميه .

انهاء حالة الحرب بمعنى توقف العمليات العسكرية ليست سلاماً ، لأن القتال يمكن أن يندلع في أي وقت .

عندما وقعنا اتفاقية الهدنة سنة ١٩٤٩ ، كنا نتصور أنها بمثابة انهاء لحالة الحرب ، وأنها تمهيد للسلام ـ وذلك لم يحدث .

هنا في اسرائيل ـ على قمة الحكم أو على قمة المعارضة ـ ثلاثة من الذين اشتركوا في وضع اتفاقية الهدنة في رودس سنة ١٩٤٩ ، وهم : الكولونيل « ييجال يادين » والماجور « موشي ديان » والماجور « اسحاق رابين » ـ وقتها كانت رتبهم صغيرة ، ما بين كولونيل وميجور ، وبعدها كبروا وأصبحوا جميعاً جنرالات .

كثيرا ما سألتهم : كيف قبلتم هذه الخطوط في رودس ؟

وكان ردهم : نحن لم ندقق في مواقع التلال والهضاب والوديان على الخرائط ، فقد كان تصورنا أن اتفاقية الهدنة سوف تؤدي الى السلام .

بعد قرابة ثلاثين سنة من توقيع اتفاقية الهدنة لم يتحقق السلام ، والآن لا بد أن ندقق في مواقع التلال والهضاب والوديان .

لقد خضنا من وقتها اربعة حروب : حرب السويس ، وحرب الأيام الستة ، وحرب الاستنزاف ، وحرب يوم الغفران ـ ودفعنا تضحيات كثيرة بالدم . وحين قلت ان حرب يوم الغفران يجب أن تكون آخر الحروب ، فقد كنت أعني أنها يجب أن تقودنا الى السلام .

لقد حرصت عندما شكلت وزارتي على تكديس كل خبرة الحرب فيها : « يادين » وهو نجم حرب ١٩٤٨ ، هو الآن نائب رئيس الوزراء . . و« ديان » نجم حرب ١٩٥٦ ، هو اليوم وزير الخارجية . . و« وايزمان » نجم حرب ٦٧ ، هو وزير الدفاع . . و« شارون » نجم حرب ٧٣ ، هو وزير الزراعة .

كدست كل تجربة الحرب في وزارتي ، لكي لا نخطىء مرة اخرى في تقدير دواعي السلام !

هذه المرة لا خطوط على الأرض فوق التلال والهضاب والوديان ، وانما أرض

اسرائيل بكاملها .

وهذه المرة لا بد من ضمانات حول أرض اسرائيل ، حتى نتأكد أنهم غير قادرين على الوصول اليها .

وهذه المرة سلام حقيقي كالسلام القائم بين بريطانيا وفرنسا مثلاً .

□

وتوقف « مناحم بيجين » عن الكلام في تلك الجلسة في القدس ، والتقط منه حبل الحديث « موشي ديان » وزير الخارجية ، ومضى يقول :

ـ انني أريد أن أوضح مفهومين للسلام .

هناك السلام بمعنى « المحافظة على وضع قائم » . . . وهذا هو السلام الجامد .

وهناك المفهوم الآخر ، وهو السلام باعتباره استراتيجية . . . أي حركة مستمرة . والسلام باعتباره استراتيجية هو ما تريده اسرائيل ، حركة ليست لها نهاية . . . هل هناك نهاية لحركة العلاقات السلمية بين بريطانيا وفرنسا ؟ . . . ان السلام بينهما ليس موضع نصوص وقيود ، ولكنه باب مفتوح على الآخر .

هناك أربع درجات من السلام :

هناك السلام الأدنى minimal peace ، وهناك السلام الجزئي partial peace ، وهناك السلام العادي formal peace ، وهناك السلام الأقصى maximal peace .

السلام الأدنى جربناه بالقرار ٣٣٨ الذي دعا الى وقف اطلاق النار وفي نفس الوقت الى المفاوضات بين الأطراف لأول مرة . والسلام الجزئي جربناه باتفاقيات

الفصل بين القوات . والسلام العادي يمكن أن يتحقق بمبادرة الرئيس المصري وزيارته للقدس ، على شرط أن نعرف أن السلام العادي مقدمة الى السلام الأقصى . . . بمثابة فتح باب له . اذا لم نفعل ذلك ، تراجعنا من مفهوم السلام كاستراتيجية ، كحركة مستمرة ، الى مفهوم السلام كوضع نريد المحافظة عليه ، وذلك صعب .

المطلوب الآن هو خطوة كبيرة واسعة .

ندخل من باب السلام العادي ، ونمشي منه مباشرة الى السلام الأقصى .

السلام الأقصى ليس مجرد نبذ الحرب ، والاتفاق على الحدود ، وتبادل السفراء . . هذه كلها خطوات في اطار السلام العادي. السلام الأقصى حدود مفتوحة بغير قيد . تجارة . . . تعاون علمي وتكنولوجي . . . اتفاقيات ثقافية . . سياحة . . . مشروعات مشتركة في كل المجالات . . . حرية لانتقال رؤوس الأموال والأيدي العاملة . . . حركة بلا نهاية .

واستطرد « ديان » :

ـ ان بعض رفاقنا في اسرائيل ـ حتى داخل الوزارة ـ يحذروننا من عدم جدوى الوصول الى حالة « السلام الأقصى » مع العرب في ظل الأوضاع الراهنة في العالم العربي . فهم يرون أن النظم القائمة بالحكم الآن لا تستطيع ذلك ، وبالتالي فليس هناك ما يمكن أن تربحه اسرائيل من التخلي عن عوامل القوة التي تمسك بها في يدها الآن من أجل صنع السلام باشتراك نظم معرضة لتغييرات اجتماعية وسياسية يصعب التنبؤ بها .

ومع ذلك فان الرأي الغالب بيننا على استعداد لأن يقبل المخاطرة ، اذا كان الطرف الآخر على استعداد للسلام الأقصى !

□

وسكت « ديان » ليتكلم الجنرال « جور » رئيس اركان الحرب وقتها ـ وكأنها ادوار موزعة فيما بينهم !

وقال الجنرال « جور » :

ـ أريد أن أقول انه لا بد أن تمر فترة اختبار كافية لحالة « السلام الأقصى » قبل أن نعطي التنازلات النهائية التي يطلبها العرب .

ان صراع ثلاثين سنة ـ كما قال رئيس الوزراء ـ لا يمكن ان يزول وتزول آثاره في أيام أو شهور .

ومن ناحية اخرى فلا بد أن نتأكد من أن العرب قد تحولوا الى صراعات أخرى غير الصراع العربي الاسرائيلي .

هناك مسألة لا بد من الالتفات اليها ، وقد نبهتني اليها التقارير الواردة الينا من القاهرة . ان الناس هناك يتصورون أن توقيع اتفاقية سلام سوف ينهي جميع مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك بالطبع لن يحدث ، ولا أستطيع تقدير النتائج التي يمكن أن تترتب على خيبة أملهم فيما ينتظرونه .

وبالنسبة للعالم العربي كله فيبدو لي أنهم لا يعرفون بعد ان السلام عندما يجيء سوف يفرض عليهم تغييرات اجتماعية عميقة وواسعة ، وتأثير ذلك على الأوضاع السياسية مفتوح لكل الاحتمالات ، ولكننا قد نجد أنفسنا فجأة أمام ظروف تختلف عن ظروف اليوم ، وأمام ارادات قد تكون لها آراء معاكسة .

ولذلك فان حالة « السلام الأقصى » لا بد أن توضع للاختبار فترة عشر سنوات على الأقل قبل أن تفكر اسرائيل في التخلي عن بعض الميزات الحقيقية التي تمسك بها الآن !

□

ما الذي نستنتجه من هذا الكلام كله عن التصورات الاسرائيلية للسلام ؟

أظن أن النقط التالية يمكن أن تكون استقراءاً معقولاً لكل ما سمعناه من كلامهم حتى الآن :

١ ـ ان التصور الاسرائيلي للسلام ليس مستعداً للتنازل في موضوع الأرض : القدس خارج أية مناقشة ، والضفة الغربية وغزة معرضة كلها اما للضم الكامل بالنسبة لبعض الأجزاء ، أو السيطرة المطلقة ـ دون ضم ـ بالنسبة لأجزاء أخرى . نفس الشيء بالنسبة لهضبة الجولان . نفس الشيء بالنسبة لسيناء ، خصوصاً فيما يتعلق بالمناطق الواقعة الى الشرق من خط العريش ـ رأس محمد .

٢ ـ ان التصور الاسرائيلي للسلام ليس مستعدا لقبول دولة فلسطينية مستقلة على أي بقعة من ارض فلسطين . واقصى ما يمكن الوصول اليه ـ سياسيا ـ في الضفة الغربية وغزة ، وهو نوع من الادارة الذاتية . وليس هناك ما يمنع الضم الكامل الى اسرائيل غير الرغبة في الاحتفاظ بـ « النقاء اليهودي » ـ !! ـ لدولة اسرائيل ـ من ناحية ـ وصعوبة تفريغ الضفة الغربية والقطاع من سكانهما في وقت قريب ـ من ناحية اخرى .

٣ ـ ان التصور الاسرائيلي للسلام ليس في عجلة من أمره ، فهو يتصور عملية طويلة ـ ما بين ٢٥ الى ٣٠ سنة ـ يتخذها فترة تجربة يختبر خلالها ترتيبات الأمن ، ونوايا الآخرين ، وقدرتهم على التأقلم مع متطلبات السلام الاسرائيلي . ثم ان هذه الفترة أيضاً ضرورية ـ في تقديره ـ للحكم على شرعية النظم التي يتعامل معها ، وقدرتها على البقاء ، أو التأكد من هوية واتجاهات ما قد يجيء بعدها ، اذا حدث وتعرضت هذه النظم لأية مفاجآت ـ هكذا !!

٤ ـ ان التصور الاسرائيلي للسلام يرى ضرورة أن يحصل ـ فور الوصول الى اتفاق ـ على كامل مزايا السلام عند الحد الأقصى . وعلى العرب ان ينتظروا نهاية فترة الاختبار فيما يتعلق بحصولهم على مقابل مزايا سلام الحد الأقصى الذي يقدمونه لاسرائيل . أي أن اسرائيل تريد أن تحصل على ما تريده فوراً ، وتريد أن تدفع

للعرب مقابله - كما تقدره هي - بالتقسيط المربح وطويل الأجل ، على أن يكون هذا التقسيط مسبوقاً بفترة سماح !

٥ - ان التصور الاسرائيلي للسلام يربط نفسه - الى النهاية - بمطلب التفوق العسكري الكامل لاسرائيل وحدها ضد كل العرب ، وهذا هو الأساس الذي اعدت عليه خطط تسليح وتطوير وتدريب القوات المسلحة الاسرائيلية لفترة الثمانينات ، وهي خطة لا تأخذ في اعتبارها احتمال اية تسوية من أي نوع ، فهي خطة مستقلة قائمة وحدها ، والفلسفة التي تقوم عليها هي أن التفوق العسكري مطلب للسلام كما هو مطلب للحرب !

□

وربما كان أكثر ما يدل على جموح التصور الاسرائيلي للسلام أنه ما زال حتى الآن يرفض المشروع الامريكي للتسوية . وهو مشروع اعتقد - وهذا رأي شخصي - أنه بالغ السوء ، مع التقدير الكامل لنوايا أصحابه وأصدقائهم .

وربما كان مفيداً أن أضع الآن نصوص مشروع التسوية الذي تعرضه الولايات المتحدة الآن على الأطراف ، وأظنه كان موضوع المناقشة الأساسي في حوار « بيجين » الأخير مع « كارتر » .

خطوط المشروع الأمريكي كما يلي :

● وصاية أمم متحدة على الضفة الغربية وقطاع غزة لمدة ثلاث الى خمس سنوات طبق ما تسفر عنه نتيجة المفاوضات .

● تقسم مهام الأمن في الضفة الغربية وقطاع غزة . ويقوم الاردن بالمهام الموكولة للبوليس ، وتقوم اسرائيل بالمهام التي يقوم بها الجيش ، وتحتفظ اسرائيل بحق المطاردة النشيطة « للارهابيين » الى أي مكان .

● تجري انتخابات بلدية . يشارك فيها كل الذين تثبت اقامتهم في المنطقة

لمدة سنة كاملة قبل الموعد الذي يتقرر لها .

● تقوم لجان مشتركة اسرائيلية ـ فلسطينية للاتفاق على مشاكل الحياة اليومية ـ كطبيعة الحدود المفتوحة ، والتجارة ، والأيدي العاملة ، ومصادر المياه ، وسعر الصرف والاجراءات الصحية .

● في نهاية مدة الوصاية تجرى انتخابات لاختيار ممثلين ينضمون الى وفود مصر والاردن واسرائيل في المفاوضات من أجل الوصول الى معاهدة ، أو تكون هذه الانتخابات بقصد اختيار مجلس شعبي يختار بدوره مجلس تنفيذي يعين الاعضاء الذين يشتركون في المفاوضات .

● كل العناصر في أي اتفاق يمكن التوصل اليه تبقى لمدة خمس وعشرين سنة غير قابلة للتغيير الا بموافقة اجماعية لكل الأطراف التي اشتركت في المفاوضات ، حتى يمكن التأكد من عدم تحول الادارة الذاتية الى دولة فلسطينية مستقلة . واذا كانت الرغبة ـ في نهاية المدة ـ تتجه الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، فهذه الدولة لا يمكن ان تقوم الا اذا تأكد أنها طرف في التسوية .

● أي طرف يقوم بأي اخلال بأحكام ما يتم الاتفاق عليه يعتبر مرتكبا لعمل من اعمال الحرب ، ويتعرض للنتائج المترتبة على ذلك » .

تصورات لم تجرؤ الولايات المتحدة أن تفكر فيها ـ فضلا عن ان تتقدم بها حتى في اعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧ ـ ومع ذلك فان اسرائيل ترفض هذه التصورات حتى الآن ، تمسكا بتصوراتها هي للسلام .

وهكـــذا . . .

مصداقا للمثل المصري الشائع « رضينا بالهم . والهم بنا غير راض !

□

وأسأل الآن : ألم يجيء الوقت لتكون لنا تصورات سلام عربي نطرحها في مواجهة تصورات السلام الاسرائيلي من حده الأدنى الى حده الأقصى ؟

وأليس غريباً أنهم ـ في تصوراتهم للسلام ـ يصلون الى حد التنبه لاحتمالات التفاعل الاجتماعي في العالم العربي ويحتاطون لها ، بينما نحن غارقون حتى الذقون في الخليط المشوش ؟

● هل يعقل اننا لم نطرح في تصوراتنا للسلام قضية الاتصال البري بين عرب آسيا وعرب افريقيا ؟ . . ندعي اننا أمة واحدة ، ونسمح لعازل غير عربي أن يقطع الاتصال العضوي بين شعوب الأمة الواحدة ؟

● هل يعقل اننا لم نطرح في تصوراتنا للسلام قضية وقف الهجرة الى اسرائيل ؟ . . . وهل هناك في الدنيا من يقبل بالتعامل على أساس السلام مع دولة لا نعرف حدودها ولا نعرف من هو شعبها ؟

● هل يعقل اننا لم نطرح في تصوراتنا للسلام قضية الاسلحة النووية في اسرائيل ، ولم نسأل كيف نقبل في وسطنا ـ ونحن عزل من الأسلحة النووية ـ بوجود دولة تملك قرابة عشرين قنبلة نووية ، ثم هي فوق ذلك تطالبنا بضمانات للأمن تصل الى حد ضم بعض أراضينا ؟

وهل يعقل ؟ . . وهل يعقل ؟ واللا معقول كثير .

وأليس بين هذا اللامعقول أننا نتصور وجود حوار ، بينما الحوار معطل ، أو هو ضائع ؟

الكلمات مختلفة ، وكذلك القيم ، وكذلك المنطق .

والتصورات كل منها في واد !